

# ~~ليس~~ هناك إله

كيف غير أشهر ملحد رأيته؟

تأليف

أنتوني فلو

ترجمة/ الدكتور صلاح الفضلي

جميع الحقوق محفوظة للمترجم  
دولة الكويت  
الطبعة الأولى  
٢٠١٥ م - ١٤٣٦ هـ

## الفهرس

الصفحة	العنوان	الفصل
٥	■ مقدمة المترجم	
١١	■ المقدمة	
١٧	القسم الأول: إنكاري للمقدس	
٢١	صناعة ملحد	الأول
٤٥	إلى حيث يقود الدليل	الثاني
٨١	إعادة نظر في الإلحاد	الثالث
٩٩	القسم الثاني: إكتشاف المقدس	
١٠٣	حج العقل	الرابع
١١٥	من كتب قوانين الطبيعة؟	الخامس
١٣٥	هل كان الكون يعرف بقدمونا؟	السادس
١٤٧	كيف حدثت الحياة؟	السابع
١٥٩	هل تأتي الأشياء من لا شيء؟	الثامن
١٧٣	إيجاد مساحة للإله	التاسع
١٨٥	المجال مُشرع للإله الكامل القدرة	العاشر
١٩١	● الملحق الأول: الإلحاد الجديد	
٢١٧	● الملحق الثاني: الوحي الذاتي للإله في التاريخ البشري	



## مقدمة المترجم

عندما تخرجت من الولايات المتحدة قبل أكثر من ٢٥ سنة بتخصص علوم الكمبيوتر و عدت إلى الكويت كنت أنوي إكمال دراستي في الماجستير بتخصص علوم الكمبيوتر أو الرياضيات، ولكن لأن الصدفة تلعب دوراً كبيراً في حياة الإنسان فإن الصدفة لعبت دوراً كبيراً في دفعي نحو الفلسفة، وقد حدث ذلك عندما التقيت بالدكتور غانم هنا وهو بروفييسور فلسفة الأخلاق بقسم الفلسفة بجامعة الكويت، وذلك عندما دعاه ابن عمي أحمد لزيارتنا في البيت.

دعاني الدكتور غانم لحضور محاضراته في فلسفة الأخلاق، وهذا ما حصل بالفعل حيث حضرت جميع المحاضرات ولم أفوت أيّاً منها طوال الفصل الدراسي، ورغم أنني كنت مجرد ضيف مستمع في المحاضرات فقد وجدتني أشارك بحماس في النقاشات الفلسفية داخل قاعة المحاضرة. في تلك الفترة أكتشفت أن لدي ميولاً فلسفية، لأنني كنت مستمتعاً للغاية بحضور محاضرات فلسفة الأخلاق.

بعد فترة تفكير قررت أن أدرس الفلسفة، ولكن كان هناك عائق أساسي، وهو أن نظام الدراسة في الجامعة يشترط لمن يريد الدراسة في مرحلة الماجستير أن يكون حاصلاً على درجة البكالوريوس في نفس التخصص. كان الحل الوحيد أن أقوم بدراسة مجموعة من المواد الفلسفية كنوع من التمهيد لمدة ثلاثة فصول دراسية بنظام الدراسة المشروط، وهذا بالفعل ما حصل. خلال أخذني لمجموعة المقررات الفلسفية تعرفت على البروفيسور ميشيل متياس وهو الذي اعتبره

أفضل أستاذ مر عليّ طوال مراحل الدراسة بجميع مستوياتها، وكان يرعاني بشكل مكثف، وشجعني كثيراً على مواصلة الدراسة في مرحلة الماجستير، وهكذا التحقت بنظام الدراسة الرسمي.

خلال فترة الماجستير تعرفت على العديد من طلبة الماجستير والبيكالوريوس في قسم الفلسفة، وكان أحدهم شاباً متديناً خجولاً اسمه حسين وكان متفوقاً وذكياً، وبعد أن تخرج حسين من مرحلة البكالوريوس تقدم للحصول على بعثة لدراسة الماجستير والدكتوراة في الولايات المتحدة الأمريكية باعتباره تخصصاً نادراً لا يوجد من يقوم بتدريسه سوى أحد الأساتذة المصريين الذي كان قد بلغ من الكبر عتياً. مرت الأيام وقررت أن أعود إلى تخصصي الأصلي في مجال الكمبيوتر لإكمال دراسة الدكتوراة وذلك لأن مجالات العمل في الفلسفة محدودة وبعثات الدراسة لدرجة الدكتوراة مقتصرة على من يكون تخصصهم الفلسفة في مرحلتي البكالوريوس والماجستير معاً وهذه، من الأخطاء الشائعة في الأنظمة الجامعية في جامعاتنا العربية.

من بين الأشخاص الذين تعرفت عليهم خلال فترة الماجستير الصديق العزيز الدكتور الشيخ مرتضى فرج، وكان صديقاً في نفس الوقت للشباب الخجول حسين الذي ذكرته فيما سبق، وحين التقيت بالدكتور مرتضى في إحدى المرات سألته عن حسين، فصمت قليلاً وبدأ عليه التحسر، ثم أجاب بأن حسين لم يعد حسين الذي كنا نعرفه، فقد تغير كثيراً، وترك التدين الذي كان عليه وحلق لحيته التي كان يعتز بها، وأصبح يلبس السلاسل والخواتم الذهبية، وأنه تغير فكراً بشكل كبير وأصبح أقرب إلى الإلحاد.

مع ثقتي الكاملة بكلام الدكتور مرتضى إلا أنني لم أستطع تصديق هذا التغير

الجدري الذي حصل لحسين. ولكن بعد عدة شهور علمت أن حسين أكمل الدكتوراة وعاد ليصبح استاذاً جامعياً في قسم الفلسفة، وصادف أن ذهبت في إحدى المرات إلى قسم الفلسفة للسلام على الاصدقاء القدامى من الاساتذة والطلاب فوجدت الدكتور حسين أمامي، وإذا به كما وصفه لي دكتور مرتضى. سلمت عليه وسألته عن أحواله وأحسست أنه يتجنب إطالة الحديث معي. بعد ذلك علمت أن الدكتور حسين لم يكتف بتحوله الفكري بل أصبح يؤثر على طلابه لتبني نفس أفكاره، وقد بلغتني شكوى عدد من أولياء أمور الطلاب الذين تغيرت بعض معتقداتهم بسبب تأثرهم بأفكار دكتور حسين وقد فكر بعضهم في تقديم شكوى ضده إلى إدارة الجامعة.

بعد سنتين تقريباً من ذلك، علمت أن دكتور مرتضى على وشك إصدار كتاب يفند به الشكوك التي تدور في أذهان العديد من الشباب حول المعتقدات الدينية وكيف يمكن مواجهة الأفكار التي تدفع الشباب إلى الإلحاد. بعد ذلك بفترة تكلمت مع دكتور مرتضى عن سبب «إضاعة» وقته في تأليف كتاب قليل الفائدة كوننا نعيش في مجتمع إسلامي تقليدي لم أسمع فيه من قبل عن حالات إلحادية. كان جواب دكتور مرتضى أن هناك موجة خطيرة منتشرة بين الشباب وهي التأثير بالأفكار الإلحادية من خلال مواقع إلحادية كثيرة على شبكة الإنترنت. في الحقيقة لم اقتنع بكلام دكتور مرتضى في ذلك الوقت واعتقدت أنه نوع من المبالغة. ولكن مع مرور الوقت بدأت أسمع عن حالات متعددة من الشباب الذي تغيرت افكارهم واتجهوا نحو الإلحاد، فبدأت أهتم بتتبع هذه الظاهرة، وبالفعل وجدت أنها أصبحت ملاحظة وملموسة والبعض يصرح بتوجهاته الإلحادية رغم أن هذا أمر غير مألوف في مجتمع محافظ مثل المجتمع الكويتي.

وفي يوم من الأيام وصلتني رسالة على الهاتف النقال من السيد علي ابوالحسن، وهو أحد الطلبة النابغين الذين يدرسون في مدينة قم الإيرانية، وفيها يطلب مني أن أساعده في ترجمة أحد الكتب المكتوبة باللغة الإنجليزية التي ترد على الاطروحات الإلحادية، وخيرني بين كتابين لاثنين من مشاهير الفلاسفة أحدهما كتاب «هناك إله» مؤلفه أنتوني فلو. في البداية أعذرت عن المهمة لضيق الوقت، ولكن في فجر اليوم التالي جلست أفكر فيما اذا كان من مسؤوليتي المساهمة في التصدي لظاهرة الإلحاد، وفعلاً اقتنعت بأن عليّ أن أساهم في كبح جماح هذه الموجة، وعندها أبلغت السيد علي بموافقتي على القيام بالمهمة، وهكذا كان.

في البداية كنت اتوقع أن تأخذ عملية الترجمة وقتاً طويلاً، أولاً لكونها التجربة الأولى لي في الترجمة، وثانياً لضيق وقتي وانشغالاتي المتعددة، ولكن بمجرد أن شرعت في عملية الترجمة وجدتي أقطع مراحل الترجمة بسرعة كبيرة، وبعد أن كنت أتوقع أن الوقت اللازم لإنجاز مهمة ترجمة الكتاب لن يقل عن ثلاثة أشهر على اقل تقدير وجدت أنني أنهيت ترجمة الكتاب ومراجعته وطباعته خلال عشرة أيام فقط.

أهمية هذا الكتاب تأتي بالدرجة الأولى من جهة مؤلفه، فكما يشير عنوان الكتاب الفرعي فإن المؤلف أنتوني فلو كان واحداً من أكبر الملاحدة في العصر الحالي. وبالتالي فإن تجربة فلو التي أستمرت أكثر من خمسين سنة في الإلحاد وكتابته للعديد من الكتب التي تؤيد الموقف الإلحادي وخوضه العديد من المناظرات التي تدافع عن الإلحاد ثم تحوله بعد كل هذه السنين إلى الإيمان بوجود الإله لا بد أنه يضيف مصداقية كبيرة لما سيقوله في هذا الكتاب. ولد الفيلسوف البريطاني أنتوني ريتشارد فلو في فبراير من عام ١٩٢٣، وهو ينتمي إلى تيار الفلسفة

التحليلية، واشتهر بكتاباتة في فلسفة الأديان، وقد قام بتأليف أكثر من ٣٠ كتاباً أغلبها في محاولة دحض فكرة الدين وأشتهر عنه مقولته أن على المرء أن يظل ملحداً حتى يجد الدليل التجريبي على وجود الإله، غير أنه وفي أواخر حياته غير قناعاته، وفي عام ٢٠٠٤ وخلال مناظرة فلسفية أعلن عن تحوله إلى التوحيد وتخليه عن الإلحاد، وقام بتأليف كتاب نسخ فيه كل كتبه السابقة، وهو الكتاب الذي بين يدينا. على أثر إعلانه لتحوله عن الإلحاد، تعرض فلو لحملة تشهير ضخمة من المواقع الإلحادية في العالم، وذلك لأنه ولخمسين عاماً كان يعتبر من أهم منظري الإلحاد في العالم، وقد شكل خبر تحوله إلى الفكر الربوبي صدمة قوية في وسط الفكر الإلحادي في العالم. توفي الفيلسوف أنتوني فلو في عام ٢٠١٠ عن عمر يناهز السابعة والثمانين.

قبل أن أنهي هذه المقدمة، أجد لزاماً علي أن أتقدم بالشكر الجزيل للدكتور الفاضل والصديق الصدوق الشيخ مرتضى فرج على مراجعته الدقيقة لترجمة الكتاب، والذي بسبب دقته الشديدة وحرصه على ألا تفوته شاردة ولا واردة تأخر صدور الكتاب شهرين كاملين، لأنه لم يترك لا همزة ولا فاصلة إلا أحصاها وعدها عدا.

في الختام، أريد أن أقول أنني أقدم للقراء هذا الكتاب بنسخته المترجمة، على أمل أن يكون هذا الجهد مفيداً لشبابنا الحائر، الذي تتعرض معتقداته الدينية للهجوم بسبب ضعف مناعة الدفاعات العقائدية لديه، مما يؤدي أبسط هجوم فكري عليه إلى إختلال في تفكيره وهو ما يقود في الكثير من الحالات إلى الوقوع في مستتقع الضياع الفكري القاتل، نتيجة لسيل الشبهات التي تغزو عقله من إتجاهات عدة، دون أن يكون لديه مصدات تمنع عنه غائلة هذه الشبهات.



## هناك إله

## كيف غيّر أشهر ملحد رأيه؟

منذ أن أعلنت عن «تحولي» إلى الإلهية طُلب مني في مناسبات كثيرة جداً بيان أسباب تغيير وجهة نظري، أشرت في عدة مقالات متتابعة وكذلك في مقدمة طبعة عام ٢٠٠٥ من كتابي «الإله والفلسفة» God and Philoaothy إلى الأعمال الحديثة المتعلقة بالنقاش حول وجود «الإله»، ولكنني لم أبين وجهة نظري في ذلك. أما الآن فقد وصلت إلى قناعة بأن أعرض ما يمكن تسميته وصيتي وشهادتي الأخيرة، وباختصار وكما يدل عليه عنوان الكتاب فأنا أعتقد الآن بأن هناك إلهاً.

عنوان الكتاب الفرعي «كيف غيّر أشهر ملحد رأيه؟»<sup>(١)</sup> لم يكن من اختياري، ولكنني مع ذلك سعيد بتوظيفه باعتباره من العناوين الجذابة. لقد قام أبي اللاهوتي في إحدى المرات بتحرير مجموعة من مقالاته ومقالات بعض تلامذته السابقين وضمّنها كتاباً جديلاً وعنون هذا الكتاب بعنوان متناقض ولكنه مناسب وهو «كاثوليكية البروستانتية»<sup>(٢)</sup>. وسيراً على النمط نفسه في طريقة العرض قمت بنشر أبحاث بعناوين مشابهة مثل «القيام بالخيرات ليس أمراً خيراً» و «هل رهان باسكال Wager Pascal's هو وحده الرهان الآمن؟»<sup>(٣)</sup>.

(1) How the World's Most Notorious Atheist Changed His Mind.

(2) The Catholicity of Protestantism

(٣) رهان باسكال: حجة مبنية على نظرية الاحتمالات ونظرية القرار وتستخدم للاحتجاج بضرورة إتخاذ قرار بشأن الإيمان بوجود الله على الرغم من عدم إمكانية إثبات وجوده أو عدم وجوده عقلياً. بليز باسكال هو من صاغ الحجة.

وفي البداية لابد أن أكون واضحاً، فعندما أنتشرت أخبار تحولي في وسائل الإعلام وعلى شبكة الإنترنت سارع بعض المعلقين إلى الادّعاء بأن تقديمي في العمر أثر في عملية تحولي، لقد قيل: إنَّ الخوف تراكم في عقلي بقوة، وقد انتهى هؤلاء المنتقدون إلى أن توقعات الدخول إلى عالم ما بعد الموت حفزت لدي «تحول فراش الموت» Deathbed conversion. من الواضح أن هؤلاء الأشخاص لم يكونوا مطلعين على كتاباتي عن اللاوجود بعد الموت، وهم ليسوا مطلعين كذلك على آرائي الحالية حول هذا الموضوع<sup>(١)</sup>.

خلال أكثر من خمسين سنة لم أنكر وجود إله فحسب، بل أنكرت أيضاً وجود حياة بعد الموت، ومحاضراتي التي نشرت في كتاب «منطق الفناء» والتي تمثل خلاصة عملية التفكير هذه شاهد على ذلك. هذا الأمر هو من ضمن الأمور التي لم أغير وجهة نظري فيها، وقد كان ذلك واضحاً في هذا الكتاب من خلال مساهمة رايت N. T. Wright's في الملحق الثاني. أود أن أضع حد لكل هذه الشائعات التي وضعت موقفي في إطار رهان باسكال. وعليّ أن أشير إلى أن هذه ليست المرة الأولى التي أُغيّر فيها وجهة نظري في قضية رئيسية.

إلى جانب أمور أخرى غيرت رأيي فيها ربما يندهش القراء الملمين بدفاعي المستमित عن الأسواق الحرة عندما يعلمون أنني كنت ماركسياً (للتفاصيل، أنظر الفصل الثاني من هذا الكتاب). وقبل عقدين من الزمن تراجعت عن قناعاتي السابقة بأن اختيارات الإنسان محكومة بنحو شامل بواسطة أسباب مادية.

بما أن هذا الكتاب يتكلم عن سبب تغيير وجهة نظري بخصوص وجود الإله فإن السؤال الواضح سوف يكون «ماذا كانت وجهة نظري قبل التحول؟ ولماذا؟»،

(١) تعبير إنجليزي عن ظاهرة اعتناق معتقدات إيمانية قبل الموت بقليل لدى بعض الناس.

الفصول الثلاثة الأولى في الكتاب سوف تخصص للإجابة على هذا السؤال، أما الفصول السبعة الأخيرة فسوف تبين عملية اكتشافي للإله. وعند تهيئة الفصول السبعة الأخيرة لابد أن أبين أنني استفدت كثيراً من النقاش مع البروفيسور ريتشارد Richard Swinburne والبروفيسور برايان ليفتو Brian Leftow أستاذي الكرسي السابق والحالي في جامعة أكسفورد.

هناك ملحقان مضافان للكتاب، الملحق الأول هو تحليل لما يسمى بالإلحادية الجديدة لريتشارد ديكنز Richard Dawkins وآخرين<sup>(1)</sup>، وقد كتبه روي أبرهام فارغير Roy Abraham Varghese، أما الملحق الثاني فهو عن النقاش الدائم البالغ الأهمية للمؤمنين بالدين حول وجود نوع ما من الوحي الإلهي في التاريخ البشري، مع تركيز خاص على الادعاء المتعلق بمسيح الناصرة Jesus of Nazareth، وللمهتمين بالاطلاع على المزيد في هذا الموضوع فإن الباحث المتخصص في العهد الجديد رايت N. T. Wright وهو أسقف دُرام Durham الحالي قدم تقييمه للحقيقة التاريخية التي يقوم عليها الإيمان المسيحي بالسيد المسيح، وفي الحقيقة يجب أن أقول: إن الأسقف رايت قدم حسب اطلاعي أفضل رؤية لقبول الاعتقاد المسيحي في هذا الشأن.

لعل من المناسب أن أذكر شيئاً عن شهرتي كملحد -وهو ما يشير إليه العنوان الفرعي للكتاب -، لقد كانت أولى أعمالتي المعارضة للألوهية في عام ١٩٥٠ عبر الورقة البحثية «اللاهوت والتكذيب» Theology and Falsification، وقد أعيد طبع

---

(1) new atheism of Richard Dawkins and others.

هذه الورقة البحثية في كتاب «مقالات جديدة في اللاهوت الفلسفي» New Essays in Philosophical Theology عام ١٩٥٥ وهي مقتطفات قمت بتحريرها بالاشتراك مع السدير ماكلانتيير Alasdair MacIntyre، لقد كان كتاب «مقالات جديدة في اللاهوت الفلسفي» New Essays in Philosophical Theology محاولة لقياس التأثير على المواضيع اللاهوتية والتي سميت فيما بعد «ثورة في الفلسفة» . revolution in philosophy

الاسهام الثاني المهم كان كتاب «الإله والفلسفة» God and Philosophy، وقد نُشر لأول مرة عام ١٩٦٦، وأعيد نشره في الأعوام ١٩٧٥، ١٩٨٤، ٢٠٠٥. وفي مقدمة طبعة عام ٢٠٠٥، كتب بول كيرتز Paul Kurtz، وهو أحد أكبر الملاحدة في عصرنا الحالي، وهو أيضاً مؤلف كتاب «البيان الإنساني الثاني» Humanist Manifesto II، أن دار النشر يسرها أن تقدم ما أصبح يعرف بفلسفة الدين التقليدية.

وتبع نشر كتاب «الإله والفلسفة» نشر كتاب «فرضية الألحاد» The Presumption of Atheism عام ١٩٧٦، والذي طُبِع بعنوان «الإله، الحرية، والخلود» God, Freedom and Immortality، وكان ذلك في الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٨٤. أما بقية المؤلفات المتعلقة بالموضوع فهي «فلسفة هيوم في الإعتقاد والمنطق واللغة» Hume's Philosophy of Belief and Logic and Language، و «مدخل إلى الفلسفة الغربية: أفكار وحجج من أفلاطون إلى سارتر والتطور الدارويني» An Introduction to Western Philosophy، و«منطق الفناء» Logic of Mortality.

في الحقيقة، إنه لمن المفارقات أن أول حجة منشورة في تأييد الإلحاد قُدمت

لأول مرة في ندوة عن أعظم المدافعين عن المسيحية، وعقدت في النادي السقراطي ورأس الندوة لويس C.S. Lewis، والمفارقة الثانية هي أن والدي كان أحد قادة التبشير في إنكلترا، ويضاف إلى ذلك أنني في بداية حياتي العملية لم يكن لدي اهتمام خاص بأن أصبح فيلسوفاً محترفاً.

بما أن كل الأشياء الحسنة -إذا لم تكن كل الأشياء دون استثناء- لابد أن تصل إلى نهاية فإنني سوف أنهي كلمات المقدمة هنا وأترك للقراء أن يقرروا ما هي أسباب تغيير وجهة نظري فيما يخص السؤال عن الإله.

---

(١) كاتب وباحث إيرلندي وُلد في عام ١٨٩٨ وتوفي في عام ١٩٦٣. تتوعت اهتماماته بين أدب القرون الوسطى وعلم العقائد في المسيحية والنقد الأدبي والبهث الإذاعي والعلاقة الافتراضية بين الخير والشر، بالإضافة إلى سلسلة الأطفال الشهيرة التي كتبها، سجلات نارنيا، وكتب خيالية أخرى مثل رسائل سكروتيب وثلاثية الفضاء.



القسم الأول

إنكاري للمقدس



# الفصل الأول

صناعة ملحد



## صناعة ملحد

لم أكن ملحداً على الدوام، فقد بدأت حياتي كمؤمن، نشأت في بيت مسيحي، ودرست في مدرسة مسيحية خاصة، وفي الحقيقة أنا ابن لمبشر مسيحي. والدي كان نتاجاً لكلية ميرتون في أكسفورد، وكان هو المسؤول الديني في الكنيسة المنهجية التابعة للكنيسة البروتستانتية، وليس في كنيسة إنجلترا الكاثوليكية. ورغم أن قلبه ظل تبشيراًً Evangelism على الدوام فإن ذكرياتي الأولى عنه أنه كان يعمل مرشداً في دراسات العهد الجديد في كلية اللاهوت المنهجية في كامبردج، وبعد ذلك أصبح رئيساً للكلية، وبعد ذلك تقاعد وتوفي في كامبردج. بالإضافة إلى مسؤولياته التبشيرية والتعليمية، اضطلع والدي بمهمة ممثل للمدرسة المنهجية Methodist<sup>(1)</sup> في عدد من المنظمات الكنسية، كما أنه رأس لفترة واحدة مدتها سنة كل من المؤتمر المنهجي والمجلس الكنسي الفيدرالي الحر.

يصعب عليّ تذكر أو تشخيص أية إشارات في مرحلة صباي تدل على قناعاتي الإلحادية اللاحقة. في شبابي درست في مدرسة كنفزود في مدينة باث Bath وهي المدرسة التي تعرف اختصاراً K.S، ولحسن الحظ كانت -ولا تزال- مدرسة عمومية. لقد تم إنشاؤها من قبل مؤسس الكنيسة المنهجية جون وسلي John Wesley من أجل تدريس أبناء المبشرين التابعين له. التحقت بمدرسة كنفزود بالتزام ديني فاتر، ولم أجد أي مغزى للعبادة، وكنت بعيداً عن الاستمتاع والمشاركة

(1) إحدى الكنائس البروتستانتية التي تستمد توجهاتها من جون وسلي.

في غناء الترانيم، ولم يحدث أبداً أن قرأت شيئاً في الأدب الديني بنفس الشوق الذي كنت أقرأ به كتب السياسة والتاريخ والعلوم وبقية المواضيع.

كان الذهاب إلى الكنيسة وترديد الصلوات وبقية الطقوس الدينية بالنسبة لي بمثابة مسؤولية ثقيلة، ولم أشعر على الإطلاق برغبة ولو قليلة بالاقتراب من الإله. لا أستطيع أن أجب لماذا كنت غير مهتم بالطقوس الدينية وبقية الأمور التي شكلت حياة والدي. ببساطة.. لا أتذكر أنني كنت أشعر باهتمام أو حماسة لهذه الاحتفالات، ولم يكن عقلي مأسورا ولا «قلبي مولعاً» (حسب تعبير ويسلي الشهير) بالدراسة الكنسية أو بالعبادة، ولا أدري إذا ما كانت عدم حماستي للدين في أيام شبابي سبب أم نتيجة؟ ولكن أستطيع القول أن أي قدر من الإيمان كان موجوداً لدي عندما دخلت مدرسة كنفزود كان قد تلاشى عندما تخرجت منها.

## نظرية في المأل

### A Theory Of Devolution

---

لقد قيل لي: إن مجموعة بارنا Barna Group - وهي منظمة مسيحية لقياس إنطباعات الرأي العام- توصلت من خلال استبياناتها إلى نتيجة مفادها أن ما تؤمن به في عمر الثالثة عشرة من عمرك هو ما ستظل تؤمن به حتى موتك. بغض النظر عن صحة هذه النتيجة من عدمها، فإنني أدرك أن القناعات التي كانت لدي عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري بقيت معي في أغلب سنوات حياتي، فقط لا أتذكر بالتحديد متى وكيف بدأ التغيير، ولكن بالتأكيد -كما هو الحال مع أي إنسان يفكر- فإن عوامل عدة تلعب دوراً في تكوين معتقداته، ليس أقلها ما أسماه إمانويل كانت Immanuel Kant «الرغبة الجامحة للعقل بعدم الإستسلام للتبشير»، وهو ما أعتقد أنني أشترك فيه مع والدي. أنا وهو نشترك في ميلنا الطبيعي لاتباع «طريق الحكمة» كما وصفها الفيلسوف كانت «إنها الحكمة التي لها خاصية إختيار المسألة التي يكون حلها مفيداً للجنس البشري من بين عدد لا حصر له من المسائل التي تعرض أمامنا».

معتقدات والدي المسيحية أقتنعه بأنه لا يوجد شيئاً «أهم للجنس البشري» أكثر من توضيح ونشر وتطبيق الحقائق الموجودة في العهد الجديد. رحلتي الفكرية قادتني لاتخاذ اتجاهات عدة، ولكن كل منها كانت تنطوي على الرغبة العقلية الشديدة، وهو ما أشترك فيه مع والدي.

أتذكر أيضاً أنني استفتدت كثيراً من تذكير والدي لي في أكثر من مناسبة بأن علماء الإنجيل عندما يريدون استيعاب مفهوم ما من العهد القديم فإنهم لم يكونوا

يبحثون عن الجواب ببساطة من خلال التفكير فيه بمفردهم، وإنما كانوا يجمعون ويفحصون أكبر قدر من النصوص يمكن أن يجدوه.

هذا الأسلوب البحثي شكل من عدة أوجه الأساس لدراستي الفكرية - والذي لازلت محافظا عليه - في تجميع وفحص كل المعلومات التي لها علاقة بالموضوع. إنه من الأمور التي تدعو للدهشة أن مالك البيت الذي نشأت فيه غرس في الحماسة للبحث الناقد، وهو ما قادني بعد ذلك إلى رفض إيمان والدي.

## وجه الشيطان The Face Of Evil

---

لقد قلت في بعض كتاباتي الإلحادية المتأخرة أنني وصلت إلى نتيجة بشأن عدم وجود إله بصورة متعجلة جداً، وبشكل مبسط جداً، والذي تبين لي فيما بعد أنها كانت أسباباً خاطئة. لقد كررت استخدام هذه النتيجة الخاطئة بشكل متكرر ومفصل في مناقشاتي وكتاباتي، ولكن بعد سبع سنوات من ذلك، لم أجد أي أساس كاف لتسوية هذا الموقف الأصولي. أحد الأسباب المبكرة لتحويلي إلى الإلحاد كان مشكلة وجود الشرور في العالم.

لقد كان أبي يصطحبني أنا وأمي في رحلة صيفية كل سنة، ولم يكن ممكناً القيام بهذه الرحلات اعتماداً على راتب والدي كمشرف ديني لوحده. لقد أمكن القيام بهذه الرحلات لأن والدي كان يقوم بمساعدة طلبة الثانوية في مراجعة دروسهم في بداية فصل الصيف، وكان يتقاضى أجراً مقابل ذلك. لقد كان السفر بالنسبة لنا ممكناً وبنحو رخيص نظراً إلى أن والدي كان يتكلم الألمانية بطلاقة بعد أن درس اللاهوت لمدة سنتين في جامعة ماربورغ الألمانية قبل الحرب العالمية الأولى، ولذلك كان بمقدوره أن يأخذنا في أثناء العطلات في رحلة إلى ألمانيا، ومرة أو مرتين سافرنا إلى فرنسا دون الحاجة إلى الاستعانة بمكتب سياحي. كما أن والدي كان قد تم تعيينه كممثل للكنيسة المنهجية في عدة مؤتمرات لاهوتية دولية، وقد اصطحبني - وأنا ولده الوحيد - مع والدتي كضيوف غير مشاركين في هذه المؤتمرات.

لقد تأثرت كثيراً برحلات السفر الخارجية في السنوات التي سبقت الحرب

العالمية الأولى، ولازلت أتذكر بوضوح اللافتات والعلامات المعلقة خارج القرى الصغيرة مكتوباً عليها «لا يسمح بدخول اليهود»، وأتذكر أيضاً أنه كانت تعلق لافتات خارج مدخل المكتبات العامة تقول «لا تسمح لوائح المؤسسات بإعارة الكتب لليهود»، وشاهدت أيضاً عرضاً عسكرياً لعشرة آلاف من أصحاب القمصان البنية في إحدى ليالي بافاريا الصيفية. لقد مكنتني رحلاتي العائلية أيضاً من رؤية مجموعات من جماعة وافن Waffen SS بلباسهم الأسود وقبعاتهم المرسوم عليها صورة جمجمة وعظمين متقاطعين.

هذه التجارب رسمت مخيلتي في مرحلة الشباب وشكلت لي -كما هو الحال مع الكثيرين- تحدياً حول وجود إله محب يمتلك القوة الكاملة، ولا أستطيع أن أقيس درجة تأثير ذلك على تفكيري، هذه الخبرات إذا لم يكن سواها أيقظت داخلي الوعي بثنائية الشياطين وهما معادية السامية<sup>(١)</sup> AntiSemitism والشمولية<sup>(٢)</sup> Totalitarianism.

---

(١) معاداة السامية أو معاداة اليهود هو مصطلح يعطى لمعاداة اليهودية كمجموعة عرقية ودينية وإثنية. تم استعمال المصطلح لأول مرة من قبل الباحث الألماني فيلهم مار لوصف موجة العداة لليهود في أوروبا الوسطى في أواسط القرن التاسع عشر.

(٢) الشمولية هي طريقة حكم ونظام سياسي يمسك فيه حزب واحد بكامل السلطة، ولا يسمح بأية معارضة فارضاً جمع المواطنين وتكتيلهم في كتلة واحدة. وبعبارة أخرى فإن الشمولية أو نظام المجتمع المغلق هو مصطلح يشير إلى نظام سياسي تكون فيه الدولة تحت سلطة فرد أو فئة أو فصيل واحد ودون أن تعرف الدولة حدوداً لسلطاتها وأن تسعى بكل جد لتنظيم كل مظاهر الحياة العامة والخاصة ما أمكنها ذلك.

## مكان مضعم بالحيوية

### An Enormously Lively Place

أن تتربى خلال الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين في بيت مثل بيتنا -ينتمي للطائفة المنهجية- يعني أنك تعيش في كامبردج ولكن لا تنتمي لها . بدايةً.. اللاهوت لم يعد مقبولاً على أنه «ملكة العلوم»، وكما هو الحال في باقي المؤسسات كما لم تكن هناك كلية للتأهيل الديني في أجواء الجامعة، وكنتيجة لذلك لم أكن معروفاً بإرتباطي بكامبردج، على الرغم من أن والدي شعر وكأنه في بيته هناك، وعلى كل حال فإنه في عام ١٩٢٦ وعندما بدأت بالترقي في المدرسة فإنني نادراً ما كنت أقيم في كامبردج خلال فترة الدراسة، ومع ذلك فإن مدرسة كنفزود كانت في أيامي مكاناً يعج بالحياة، وكان يرأسها رجل يستحق أن يُقِيم باعتباره واحداً من أفضل مدراء المدارس. قبل قدومي إليها بسنة، حصلت المدرسة على جوائز في أكسفورد و كامبردج في مؤتمرات المدارس أكثر من أية مدرسة أخرى، ولم يكن نشاطنا المدرسي يقتصر على قاعات الدراسة والمختبرات فقط.

عندما تكون في مثل هذه البيئة المثيرة فإنه ليس مدعاة للدهشة لأحد أنني بدأت في التشكيك بالإيمان الصارم لوالدي، وهو الإيمان الذي لم أشعر بأي إرتباط عاطفي قوي تجاهه. عندما كنت في الصف السادس العلوي (يمثل الصف الثاني عشر في النظام الأمريكي) كنت أناقش مع زملائي في الصف بشكل متكرر فكرة الإله ذو القدرة المطلقة والخير المطلق، وعدم توافق هذه الفكرة مع وجود الشرور ونواقص العالم. عندما كنت في مدرسة K.S، لم تكن مراسم يوم الأحد المنتظمة تتضمن أية إشارة إلى مصير الإنسان في الجنة أو النار. عندما كان

ساكيت A.B Sackett - مديراً للمدرسة، وكان في الوقت ذاته أسقفاً، وهو أمر غير معتاد في وقته- كانت كلمته دائماً ما تتعلق بعجائب وروعة الطبيعة. وعندما حل عيد ميلادي الخامس عشر كنت قد بدأت برفض فكرة أن الكون قد خلقه إله كامل القدرة والرحمة.

قد يسأل أحدهم عما إذا كنت قد فكرت باستشارة المرشد الديني حول شكوكي المتعلقة بوجود الإله، ولكنني في الحقيقة لم أفعل ذلك قط، ومن أجل الحفاظ على استقرار العائلة وبشكل خاص علاقتي مع والدي حاولت قدر المستطاع أن أخفي عن الجميع في البيت تحولي نحو اللادين، وحسب ما أعتقد فإنني نجحت في ذلك لسنوات عديدة. ولكن بحلول يناير من عام ١٩٤٦، وحينما كنت في الثالثة والعشرين من عمري أنتشر الخبر -ووصل إلى والدي- بأنني ملحد وأنني كذلك لا أؤمن بالحياة بعد الموت، وأنه لم يكن من المرجح أبداً عودتي عن قناعاتي.

لقد كان تحولي كاملاً وصارماً بحيث إن النقاش في البيت حول هذا الموضوع كان سيبدو نقاشاً عقيماً، ومع ذلك - فاليوم وبعد خمسين سنة من ذلك الوقت- فإنه يمكنني القول بأن والدي كان سيشعر بالسعادة الغامرة بقناعاتي الحالية المتعلقة بوجود الإله، فعلى الأقل سوف يعتبر أن ذلك يمثل مساعدة عظيمة للكنيسة المسيحية.

## أكسفورد مختلفة

### A Different Oxford

---

من مدرسة كنفزود انتقلتُ للدراسة في جامعة أكسفورد . وصلت إلى أكسفورد في يناير من عام ١٩٤٢ ، وكانت الحرب العالمية الثانية وقتها مشتعلة . في أيامي الأولى كطالب ، وكنت حينها في الثامنة عشرة من عمري ، قمت بإجراء الفحص الطبي وتم بعد ذلك إلحاقني بشكل رسمي في سلاح الجو الملكي . في أيام الحرب تلك ، كان مطلوباً من كل الشباب اللاتقنين بدنياً أن يقوموا بالخدمة يوماً واحداً في الأسبوع في أحد مراكز الخدمة ، وبالنسبة لي كان مركز الخدمة هو سرب الطائرات التابع لجامعة أكسفورد .

كانت الخدمة العسكرية لمدة سنة واحدة بنظام العمل الجزئي ، وبعد ذلك تكون بنظام العمل الكلي ، ولكن خدمتي العسكرية لم تكن ذات طابع قتالي . كانت الخدمة تتضمن تعلم بعض من اللغة اليابانية في قسم الدراسات الشرقية والأفريقية في جامعة لندن ، ومن ثم القيام بترجمة الإشارات اللاسلكية التي يتم رصدها وفك شفرتها ، وكان ذلك يتم في منطقة بلتشي بارك .

بعد استسلام الجيش الياباني عملت في ترجمة الإشارات اللاسلكية التي كانت تصدر من قبل الجيش الفرنسي الذي كان قد أنشأ حديثاً للسيطرة على المنطقة المحتلة وهي ما عرفت بالمانيا الشرقية بعد ذلك .

عندما عدت إلى نظام الدراسة الكامل في جامعة أكسفورد في يناير من عام ١٩٤٦ ، كان عليّ أن أتقدم للاختبار النهائي في صيف عام ١٩٤٧ ، وجدت أن أكسفورد التي عدت إليها أصبحت أكسفورد مختلفة . يبدو أنها أصبحت مؤسسة

أكثر إثارة مما كانت عليه عندما تركتها قبل ثلاث سنوات تقريباً. كان هناك العديد من الوظائف المدنية، وكانت هناك وظائف عسكرية كذلك، ولكنها كانت وظائف أكثر أماناً مما كانت عليه في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى. حضرت بعض المحاضرات في كلية الآداب الإنسانية، وقد كان يلقي بعض المحاضرات محاربون قدامى من الذين كانوا فاعلين في مساعدة المقاومة اليونانية في جزيرة كريت وعلى الأراضي اليونانية، وكان الهدف من ذلك جعل المحاضرات أكثر تشويقاً وتحفيزاً لطلبة البكالوريوس.

تقدمت للاختبار النهائي في الفصل الصيفي من عام ١٩٤٧، وقد كان مدهشاً ومفرحاً في ذات الوقت أنني حصلت على المرتبة الأولى، وبعد أن حصلت على هذه المرتبة عدت إلى معلمي الخاص جون مابوت John Mabbott في كلية القديس جونز وقلت له: إنني تخليت عن هدفي السابق في العمل على الحصول على شهادة بكالوريوس ثانية في المدرسة التي شُيِّدَت حديثاً في الفلسفة وعلم النفس، فأنا الآن أريد أن أكمل دراستي العليا في الفلسفة.

## الأصبوحات الفلسفية Waxing Phiosophic

---

قام مابوت بمساعدتي في الالتحاق بالدراسات العليا في الفلسفة تحت إشراف غلبرت رايل (1) Gilbert Ryle، والذي كان وقتها أستاذ مادة الميتافيزيقا في جامعة أكسفورد. كان رايل أحد أساتذة كرسي الفلسفة الثلاثة خلال الفصل الثاني من العام الدراسي ١٩٤٧-١٩٤٨.

بعد ذلك بسنوات، علمت عن طريق كتاب مابوت «ذكريات أكسفورد» Oxford Memories أنه ورايل كانا صديقين منذ أن التقيا لأول مرة في أكسفورد. لو كنت في كلية أخرى وسُئلت من قبل أستاذي الخاص عن الأفضل من بين الأساتذة الثلاثة لفضلت بالتأكيد هنري برايس Henry Price، وذلك بسبب اهتماماتنا المشتركة في علم ما وراء النفس، وهو التخصص الذي كان يسمى بالبحث النفسي في ذلك الوقت. ولذلك فإن كتابي الأول كان بعنوان «مقاربة جديدة إلى البحث النفسي» A New Approach to Psychical Research، وقد أصبحنا أنا وبرائيس بعد ذلك متحدثين في المؤتمرات التي تعني بالبحث النفسي، ولكن أنا متأكد أنني لم أكن لأحصل على جائزة الجامعة في الفلسفة في تلك السنة لو كنت تحت إشراف برايس، لأننا كنا سنقضي الوقت في النقاش حول مواضيع الاهتمام المشترك بيننا.

بعد أن قضيت العام الدراسي ١٩٤٨ في الدراسات العليا في الفلسفة تحت إشراف رايل حصلت على جائزة التميز، وكانت عبارة عن منحة جون لوك للدراسة (1) فيلسوف بريطاني نال شهرته عن كتابه مفهوم العقل (١٩٤٩)، وفيه قال أن الكثير من العضلات الفلسفية نشأت من الخلط في تفسير المصطلحات اللغوية.

في تخصص الفلسفة الذهنية، وبعد ذلك تم تعييني بوظيفة محاضر في المجال التدريسي.

خلال السنة التي قمت فيها بالتدريس في أكسفورد قمت بتدريس كتابات الفيلسوف لودفيج فتجنشتين<sup>(١)</sup> Ludwig Wittgenstein وهو صاحب الاتجاه الفلسفي الذي أثر فيّ عند الدراسة في أكسفورد. نشرت هذه الكتابات بعد ذلك بعنوان «الكتاب الأزرق والكتاب البني» Blue Book، Brown Book و «محاضرات في الرياضيات» Lectures on Mathematics، وقد كانت مرفقة برسائل من فتجنشتين تشير إلى نوعية القراء الموجهة لهم، وكذلك نوعية القراء الذين لا ينبغي لهم أن يقرأوها، وقمت أنا وأحد زملائي بنشر نسخ من محاضرات فتجنشتين في أكسفورد، وجعلناها في متناول جميع من يرغبون بقراءتها. كنا نسأل كل شخص نعرف إهتمامه بالفلسفة في أكسفورد عما إذا كانت لديه مخطوطات لمحاضرات فتجنشتين، وإذا كان الجواب «نعم» كنا نسأله عن المحاضرة المتوفرة لديه، ولأن مكائن التصوير لم تكن قد ظهرت في ذلك الوقت قمنا بتوظيف طباع للقيام بمهمة طباعة عدد نسخ كافية لتلبية حاجة من يطلبها.

تعرفّ رايل على فتجنشتين عندما زار الفيلسوف النمساوي جامعة كامبردج، وبعدها كوّن رايل علاقة صداقة مع فتجنشتين، وأقنعه بأن يقوموا برحلة على الأقدام إلى منطقة بحيرة Lake District الإنجليزية في عام ١٩٣٠ أو ١٩٣١. لم ينشر رايل

---

(١) واحد من أكبر فلاسفة القرن العشرين، ولد في فيينا بالنمسا ودرس بجامعة كامبردج بإنجلترا وعمل بالتدريس هناك. وقد حظي بالتقدير بفضل كتابه «رسالة منطقية فلسفية» وتحقيقات فلسفية. عمل في المقام الأول في أسس المنطق، والفلسفة والرياضيات، وفلسفة الذهن، وفلسفة اللغة. اعتقد أن معظم المشاكل الفلسفية تقع بسبب اعتقاد الفلاسفة أن معظم الكلمات أسماء. كان لأفكاره أثرها الكبير على كل من «الوضعية المنطقية وفلسفة التحليل». أحدثت كتاباته ثورة في فلسفة ما بعد الحربين.

أي وصف لهذه الرحلة وما الذي تعرف عليه أثناء صحبته لفتجنشتين، لكن بعد هذه الرحلة أصبح رايل يتصرف كوسيط بين فتجنشتين و «العالم الخارجي».

وكم كانت هذه الوساطة ضرورية في بعض الأحيان، وهذا ما يكشف عنه التسجيل الذي يوثق لمحادثة بين فتجنشتين -الذي كان يهودياً- وأخواته بعد أن احتل جنود هتلر النمسا.

في هذه المحادثة، يطمئن فتجنشتين أخواته بالقول «أنه وبسبب علاقاته مع الشخصيات الرئيسية والعوائل الكبيرة في النظام السابق وعلاقته بالناس فإنهم جميعاً لن يتعرضوا لأي أذى»، ولاحقاً عندما أصبحت أستاذة للفلسفة كنت أكره أن أكشف لطلبتي أن فتجنشتين - والذي كنت أعتبره والكثير من زملائي فيلسوفاً عبقرياً- كان شديد الغرور في الأمور العلمية.

لقد كنت شاهداً شخصياً على سلوك فتجنشتين مرة واحدة على الأقل، وحدث ذلك عندما كنت في مرحلة البكالوريوس، وكان فتجنشتين يقوم بزيارة إلى جمعية جويت Jowett Society. كان موضوع المحاضرة المعلن هو «أنا أفكر إذاً أنا موجود»، والعنوان مأخوذ بالتأكيد من عبارة الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت الشهيرة. كانت القاعة مكتظة بالحضور، والجمهور يصفي لكل كلمة يقولها الضيف العظيم، ولكن الشيء الوحيد الذي أتذكره الآن أن المحاضرة لم تكن لها علاقة واضحة بالعنوان المعلن للمحاضرة، ولذلك عندما انتهى فتجنشتين من محاضرتة نهض البروفيسور ريتشارد H.A Richard من مكانه، وكان بادياً عليه السخط، وسأل فتجنشتين «يا فتجنشتين (ودكتوراه كامبردج لم يكن معترفاً بها في أكسفورد كما يبدو) مع ذلك أنا أفكر إذاً أنا موجود». وضع فتجنشتين أصبع سبابته على جبهته، واكتفى بالقول: إن عبارة «أنا أفكر إذاً أنا موجود» جملة غريبة جداً. كنت ولا أزال

أعتقد أن الرد الأنسب على فتجنشتين كان ينبغي أن يُستوحى من أحد مشاهد المسلسل الكرتوني «الرجال والنساء والكلاب»، والذي يقول فيه أحدهم «ربما ليس لديك جاذبية يا ليلي، وإنما الذي تقوله مجرد أُلغاز».

## التصادم مع لويس

### Locking Horns With Lewis

خلال الفترة التي كنت فيها طالباً في الدراسات العليا تحت إشراف غلبرت رايل، أصبحت أدرك أن من عادته أن يرد بشكل مباشر وجهاً لوجه على أي اعتراض يوجه لأيٍّ من أفكاره الفلسفية، ورغم أن رايل لم يحدثني بذلك ولا أي شخص آخر حسب علمي، فإن حدسي يقول إن رايل يتبع المقولة التي أوردها أفلاطون في كتابه «الجمهورية» - وهي المقولة التي تنسب إلى سقراط-، وفيها يقول «يجب أن نتبع الحجة أينما قادتنا»، وهذا المبدأ - ضمن أمور أخرى - يتطلب أن يتم نقاش أي اعتراض بصورة مباشرة وجهاً لوجه، وقد حاولت أن أطبق هذا المبدأ طوال حياتي الجدلية.

هذا المبدأ السقراطي شكّل عنصر تحفيز للنادي السقراطي، وهو عبارة عن مجموعة كانت فاعلة في المشهد الفكري في أكسفورد أيام الحرب. لقد كان النادي السقراطي مسرحاً لمناظرات بين الملحدين والمسيحيين، وقد كنت أشارك بانتظام في هذه الجلسات، وكان رئيس النادي في الفترة من ١٩٤٢ إلى ١٩٥٤ الكاتب المسيحي لويس C. S Lewis. كان النادي يعقد اجتماعه في مساء كل يوم اثنين في قاعة السرداب في كلية القديس هيلدا. أشار لويس في مقدمة العدد الأول من «مجلة سقراط» إلى عبارة سقراط «يجب أن نتبع الحجة أينما قادتنا»، وقد لاحظ لويس في هذه المقدمة أن هذه الحلبة المخصصة (النادي السقراطي) للصراع بين الإلحاد والمسيحية كانت أمراً بديعاً.

تصادم العديد من كبار الملحنين في أكسفود مع لويس وأتباعه المسيحيين، ولعل أفضل مناظرة حدثت بين الطرفين كانت في فبراير من ١٩٤٨ وكانت بين لويس Lewis واليزابيث أنسكومب Elizabeth Anscombe، وهي المناظرة التي جعلت لويس يعيد كتابة الفصل الثالث من كتابه «المعجز» Miracles. لازلت أتذكر عودتي مع مجموعة من الأصدقاء بعد انتهاء المناظرة العظيمة، حيث كنا نسير خلف اليزابيث وأصدقاءها، وكانت مبتهجة وكذلك كان حال أصدقائها. فور الانتهاء من المناظرة، خرج لويس وحيداً وكان يمشي بأقصى ما يمكنه ليلجأ إلى غرفته في كلية ماغدن Magdalen College التي كانت تقع بالقرب من المكان الذي كنا نقطع فيه الشارع.

رغم أن البعض اعتبر أن نتيجة المناظرة أثرت بشكل دائم على معنويات لويس، ولكن أنسكومب Anscombe ذاتها كانت تختلف معهم في ذلك. لقد كتبت لاحقاً: «لقد كان اجتماع النادي السقراطي الذي قرأت فيه ورقتي البحثية بالنسبة لمجموعة من أصدقاء لويس فظيماً وصادماً وهو ما أدى إلى إحباطه بشكل كبير، ولكن لا الدكتور هارفرد Havard ولا البروفيسور جاك بينت Jack Bennett يتذكر أن مثل هذا الشعور كان بادياً على لويس ... أنا أميل إلى التحليل المناقض لهذا الاعتقاد من قبل أصدقائه ... باعتباره مثلاً جيداً على ظاهرة تسمى «الإسقاط»<sup>(١)</sup> ... لقد كان لويس أكثر المدافعين عن الدين المسيحي تأثيراً في الحقبة الأخيرة من القرن العشرين ... لقد سألتني هيئة الإذاعة البريطانية BBC عما إذا كنت قد دحضت دفاع لويس عن الدين بشكل كامل ... أجبت لا، أنا فقط لم أكن أعتقد أن هناك

---

(١) الإسقاط هي حيلة دفاعية ينسب فيها الفرد عيوبه ورغباته المحرمة والعدوانية أو الجنسية للناس حتى يبرء نفسه ويبعد الشبهات عنها.

أسباباً كافية للاعتقاد بذلك، ولكن عندما عدت للتفكير في الأمور اللاهوتية، بدا لي أن الوحي المسيحي قوي جداً إذا كنت تعتقد بالوحي من الأساس»<sup>(1)</sup>.

---

(1) G. E. M. Anscombe, The Collected Papers of G. E. M. Anscombe, vol. 2, Metaphysics and the Philosophy of Mind (Minneapolis: University of Min (Minneapolis: University of Minnesota Prss, 1981), x.

## تطورات إيجابية جداً

### Highly Positive Development

خلال الفصل الأخير لي في جامعة أكسفورد، نشر آير<sup>(١)</sup> A.J. Ayer كتابه «اللغة، الصدق والمنطق» Language, Truth and Logic، وهو ما أقتع عدداً من أعضاء النادي السقراطي أنه لا بد من تفنيد هرطقة آير في الوضعية المنطقية، والتي تقول أن كل الفرضيات الدينية لا أهمية معرفية لها، وأنها يجب أن تُدحض. بدا لي أن الورقة الأولى والوحيدة التي قدمتها للنادي السقراطي وكانت بعنوان «اللاهوت والتكذيب» Theology and Falsification قدمت ما اعتبرته تفنيدياً كافياً، وأعتقدت حينها أنني حققت نصراً كاملاً، وأنه لا حاجة لأية مناظرة في المستقبل بهذا الخصوص.

ألتقيت في أكسفورد بآنس دونسون Annis Donnison، والتي أصبحت فيما بعد زوجتي. لقد تعرفنا على بعضنا البعض عن طريق أخت زوجتي التي دعنا إلى إجتماع النادي العمالي في أكسفورد، وبعد أن تعرفت على آنس Annis لم أعد أعير اهتماماً لأي شخص في هذا الاجتماع سواها، وبعد هذا اللقاء أتفقنا أنا وآنس على أن نلتقي مرة أخرى، وكان ذلك اللقاء الوحيد الذي واعدت فيه فتاة على الإطلاق. كان وضعنا الاجتماعي مختلفاً عندما التقينا لأول مرة، حيث كنت

---

(١) ألفرد جول آير (Alfred Jules Ayer): فيلسوف بريطاني ولد في ٢٩ أكتوبر ١٩١٠ وتوفي في ٢٧ يونيو ١٩٨٩، أبرز علام الوضعية المنطقية. تمحورت أفكاره حول نقد الميتافيزيقيا بمختلف فروعها كاللاهوت و الجمال و الأخلاق [١]. حيث رأى أن الميتافيزيقيا لا يمكن التأكد من حقيقتها من خلال التجربة. كما أنكر بديهية الأحكام المتعلقة بالماضي، وذهب إلى أنها ليست كبداهة الحاضر، لأننا لا نتمكن من الرجوع إلى الوراء للتيقن من صحة ما وقع في الماضي، والنتيجة أننا لا يمكننا أن نثبت ذلك بطريقة علمية.

أقوم حينها بالتدريس في كنيسة مسيحية مخصصة للرجال فقط، بينما كانت أنس Annis في سنتها الأولى كطالبة في كلية سومرفيل Somerville College في أكسفورد، وهي الكلية التي كانت تقوم في ذلك الوقت بفصل كل طالب يُقدم على الزواج.

لقد كانت والدة زوجتي قلقة من قيام طالب دراسات عليا مثلي بمواعدة أبنيتها التي كانت تصغرنى كثيراً، ولذلك سألت أبنها - وهو الذي أصبح بعد ذلك أخو زوجتي- والذي أكد لها أن إبعادي عن أنس سوف يكسر قلبها. كنت أفترض على الدوام أن أخوا زوجتي يريد لأخته الصغيرة أن تُترك وشأنها لتدبر أمور حياتها؛ لأنه كان يعرف أنها فتاة عاقلة وأنها محل ثقة وأنها لن تتخذ أي قرار طائش.

في ذلك الوقت كنت قد أبتعدت منذ فترة طويلة عن إيمان والدي، ومع ذلك فإنني طبقت ما كنت تعلمته من آباي المنهجين، فلم أحاول قط أن أخدع أنس قبل الزواج لأنني كنت أعتقد دائماً أن ذلك عمل غير أخلاقي. وكوني أيضاً ابناً لأكاديمي لم أحاول إقناع أنس بالزواج مني قبل أن تتخرج وتحصل على الدرجة العلمية. أستمررت في العمل كمدرس غير متفرغ في الكنيسة المسيحية في عام ١٩٥٠، وفي نفس الوقت كنت قد بدأت في العمل كمحاضر في فلسفة الأخلاق بجامعة أبردين الاسكتلندية في أكتوبر من نفس العام.

## ما بعد أكسفورد Beyonf Oxford

---

خلال سنوات إقامتي في أبردين شاركت بعدة حوارات إذاعية، كما شاركت في ثلاثة أو أربعة نقاشات إذاعية كانت تُنظم من قبل البرنامج الثالث في إذاعة BBC، وقد شاركت كموضوع لتجارب نفسية متعددة. من الأمور التي جذبتنا إلى أبردين هو أننا أصبحنا أصدقاء لكل الذين قابلناهم تقريباً، وما جذبنا أيضاً لأبردين تنوع وقوة الحركة التعليمية فيها، ولكون أبردين مدينة جديدة بالنسبة لنا توفرت فرص عديدة للتنزه، ومنها السير على الشواطئ وبالخصوص في منطقة كيرنجورمس Cairrgrones.

في صيف عام ١٩٥٤، غادرت أبردين في طريقي إلى أمريكا الشمالية لأصبح بروفيسور الفلسفة بكلية ستانفورد Stanford College الشمالية والتي حصلت فيما بعد على رخصة لتصبح جامعة كييل University of Keele، وخلال السبعة عشرة عاماً التي قضيتها هناك، كانت جامعة كييل أقرب ما تكون المملكة المتحدة إلى كليات الآداب في الولايات المتحدة. سرعان ما كرست جهدي للعمل هناك، ولم أغير جامعة كييل إلا عندما بدأت تفقد ببطء تميزها.

قضيت العام الأكاديمي ١٩٧٠-١٩٧١ كأستاذ زائر في الولايات المتحدة، ولكنني استقلت في نهاية عام ١٩٧١ من جامعة كييل وانتقلت في يناير من عام ١٩٧٢ إلى جامعة كالغارى بكندا. كان هدفي الأول أن أستقر هناك ولكن بعد ثلاثة فصول فقط انتقلت إلى جامعة ردينغ University of Reading، وبقيت فيها حتى نهاية عام ١٩٨٢، وقبل أن أتقدم بطلب التقاعد المبكر وأحصل عليه من جامعة ردينغ

وقعت على عقد للتدريس فصلاً واحداً كل سنة في جامعة يورك في مدينة تورنتو الكندية، واستمر ذلك لآخر ستة أعوام من حياتي الأكاديمية. في منتصف هذه المدة استقلت من جامعة يورك لكي يتسنى لي قبول دعوة مركز الفلسفة الاجتماعية والسياسية في جامعة باولنغ غرين بولاية أوهايو الأمريكية، وذلك للعمل كباحث متميز، وقد تم تمديد الدعوة لثلاث سنوات أخرى، وبعد ذلك تقاعدت بشكل كامل، ومازلت أقيم في ريدنغ.

الخطوط العريضة لمسيرتي العلمية لا تُظهر لماذا أصبحت فيلسوفاً، وعطفاً على اهتمامي الفلسفي منذ كنت في مدرسة كنفزود كان يفترض أن أصبح فيلسوفاً محترفاً قبل وقت طويل من ذهابي إلى أكسفورد، بل حتى خلال الفصلين الذين قضيتهما في أكسفورد قبل أن ألتحق بسلاح الطيران الملكي فإن أقرب مدى وصلت إليه من الفلسفة كان خلال إجتماع النادي السقراطي. خارج نطاق أبحاثي ودراساتي، كانت إهتماماتي الرئيسية سياسية. وهذا الأمر استمر إلى ما بعد يناير ١٩٤٦، حيث صارت المواضيع التي أدرسها تشمل الفلسفة، وأول مرة شعرت فيها أن مجال عملي يمكن أن يكون في الفلسفة كان قبل أن أتقدم للاختبار النهائي في ديسمبر من عام ١٩٤٧.

في الفصلين القادمين من هذا الكتاب، أحاول أن أفصل في الأساس الذي أستندت عليه لسنوات طويلة في معارضة فكرة وجود إله، وسأبدأ أولاً بالغوص في نصف قرن من الحجج الإلحادية التي كونتها وطورتها ثم بعد ذلك أستخدمتها، أما في الفصل الثالث فسوف أتبع التحولات العديدة التي حدثت في مسيرتي الفلسفية، وبالتحديد تلك التي يمكن تبينها من خلال المناظرات المتكررة التي شاركت فيها في موضوع الإلحاد.

خلال كل ذلك آمل أن يتضح، كما ذكرت في السابق، أن اهتمامي الطويل بالدين لم يأت سوى من باب الحيطة والأخلاق أو ببساطة من باب الفضول. أقول «من باب الحيطة» لأنه إذا كان هناك إله أو آلهة لهم علاقة بأحوال البشر فإن من الطيش أن لا نحاول أن نقف في الجانب الذي يقف فيه هؤلاء الآلهة، وأقول: إن اهتمامي «من باب الأخلاق»؛ لأنني شعرت بالسعادة أن أجد ما قاله ماثيو أرنولد<sup>(١)</sup> Matthew Arnold «أن الخلود ليس لأنفسنا بل لما نفعه من أجل الخير» صحيحاً، وأقول: إن اهتماماتي كانت فضولية؛ لأن أي شخص صاحب عقلية علمية يجب أن يبحث قدر استطاعته لكي يتعرف على هذه المواضيع. ولعلّي بعد كل هذه السنوات أكثر شخص مندهش من تحولي من نفي وجود الإله إلى إثبات إكتشافه.

---

(١) ماثيو أرنولد (١٨٢٢ - ١٨٨٨) شاعر وناقد وكاتب ومصلح تربوي إنجليزي.

## الفصل الثاني

إلى أين يقود الدليل؟  
Where the Evidence Leads



## إلى أين يقود الدليل؟ Where the Evidence Leads

عندما سرحت Alice بخيالها وهي تنظر في المرآة في رواية لويس كارول Lewis Carroll الشهيرة ألتقت بالملكة التي ادّعت بأن عمرها ١٠١ سنة وخمسة أشهر ويوم واحد

قالت Alice: لا أستطيع تصديق ذلك

قالت الملكة بصوت خافت: ألا تستطيعين؟ حاولي مرة أخرى، خذي نفساً عميقاً وأغمضي عينيك.

ضحكت أليس Alice وقالت: لا فائدة من ذلك، لأن الشخص لا يمكن أن يصدق أشياء مستحيلة.

قالت الملكة: أعتقد أنك لم تتدربي على ذلك بالقدر الكافي، فعندما كنت في عمرك كنت أقوم بذلك نصف ساعة يومياً (لأنني كنت أعتقد بالكثير من المستحيلات بقدر الأشياء الست المستحيلة قبل تناول طعام الإفطار).

أحسب أن عليّ أن أتعاطف مع أليس Alice، وخاصة عندما أتذكر كيف تغير مسار حياتي ودراستي حتى بعد أن درست الفلسفة تحت إشراف غلبرت رايل. أنا واثق أن ما حصل لي لم يكن مرجحاً إن لم يكن مستحيلاً.

بالكاد يمكنني تخيل أنني عندما قمت بتأليف كتابي «اللاهوت والتكذيب» وخلال نصف القرن القادم سوف أنشر خمساً وثلاثين كتاباً في شتى مواضيع

الفلسفة، ورغم شهرتي في الكتابة في موضوع وجود الإله، فإن ذلك لم يكن على الإطلاق مجال إهتمامي الوحيد .

على مر السنين كتبت في مواضيع تتراوح ما بين فلسفة اللغة إلى المنطق، من الفلسفة الأخلاقية والاجتماعية والسياسية إلى فلسفة العلوم، ومن علم ما وراء النفس Parapsychology ومن التعليم إلى النقاش حول الجبر والاختيار وموضوع الحياة بعد الموت، وعلى الرغم من أنني أصبحت ملحداً في الخامسة عشرة من عمري وقيامي بتطوير اهتماماتي غير الفلسفية عندما كنت في مدرسة كنفزود، فإن عملية إنضاج وترسيخ آرائي الفلسفية استغرقت سنوات، وفي ذلك الوقت توصلت إلى مبادئ إرشادية لم تتحكم في طريقة كتابتي وتفكيري فحسب، بل في الحقيقة قادتني في النهاية إلى عملية التحول الجذري من الإلحاد إلى الإيمان .

## الاكتشافات المبكرة .... والمواقف المحرجة

### Early Explorations . . . And Embarrssment

بعض آرائى الفلسفية تشكلت حتى قبل أن أدخل إلى مدرسة كنفزودود . لقد كنت معتقاً الشيوعية في فترة تسجيلي في المدرسة، وقد استمررت كاشتراكي يساري نشيط حتى بداية الخمسينيات من القرن الماضي عندما استقلت من حزب العمال Labour Party، وهو الحزب الذي يمثل تاريخياً الحركة اليسارية في بريطانيا .

ما منعني من الاشتراك الواقعي في الحزب الشيوعي - كما كان حال بعض زملائي- هو سلوك الحزب الشيوعي البريطاني بعد المعاهدة الألمانية-السوفياتية عام ١٩٣٩ حيث كنت مراهقاً آنذاك . هذا الحزب الذليل والغادر بدأ بإدانة الحرب ضد ألمانيا الاشتراكية القومية (النازيين) باعتبارها حرباً «إمبريالية»، وكنتيجة لذلك لم يكن يعتقد بأن البريطانيين معينين . أستمرت هذه الإدانات حتى عام ١٩٤٠ في الوقت الذي كانت البلاد تتعرض لخطر الغزو . لكن ما سُمّي بالحرب الإمبريالية أصبح فجأة «حرباً تقدمية، حرب الشعب» (حسب وجهة النظر الشيوعية) وذلك عندما غزت ألمانيا الاتحاد السوفييتي، وفي السنوات التي تلت ذلك، أصبحت أشكك بصورة متزايدة بالنظرية والممارسة الشيوعية التي تقوم على فكرة أن التاريخ محكوم بقوانين شبيهة بقوانين العلوم الفيزيائية .

وفي هذه الفترة -وكما هو حال أقراني في مدرسة كنفزودود- تعرفت على الكتابات التفسيرية للكاتب جودود<sup>(١)</sup>، وقد كان معروفاً في ذلك الوقت في

(١) فيلسوف إنجليزي، عمل على نشر الفلسفة في المجتمع البريطاني في فترة الحرب العالمية الثانية .

الوسط البريطاني بنقاشاته الإعلامية في المواضيع الفلسفية ونمط كتاباته المميز (قام بتأليف أكثر من ٧٥ كتاب). أكتشفت من خلال قراءة أكثر كتب جوود مبيعاً أن بعضها مع الأسف فاقد للمصداقية فيما يتعلق ببحث ما وراء علم النفس، وهو ما يعرف في الوقت الحالي بالباراسيكولوجي.

أنا أفترض أن كثيراً منا عندما يتقدم في العمر، ينظر إلى الوراثة.. إلى فترة الشباب بمزيج من الحنين والخجل، أنا متأكد أن هذه المشاعر شائعة جداً، ومع ذلك ليس جميعنا لديهم سوء الحظ في توثيق ونشر بعض هذه الأمور المخجلة كما هو الحال معي.

إن إهتمامي بما وراء علم النفس (الباراسيكولوجي) قادني في عام ١٩٥٣ إلى نشر أول كتاب لي كُتب بطريق سيئة لا تطاق، وفي عام ١٩٥١ قمت بكتابة وتوزيع اثنتين من الحوارات التي تهاجم سوء الفهم المنتشر عن ظاهرة الخوارق المزعومة لما وراء علم النفس. نشر هذه الحوارات دفع أحد الناشرين للطلب مني تأليف كتاب في هذا الموضوع، والذي بدافع من الغطرسة الشبابية أسميته «النهج الجديد في البحوث النفسية» A New Approach to Psychical Research.

تناول الكتاب الحقائق المفترضة والمسائل الفلسفية المتعلقة بالباراسيكولوجي، ومما يشفع لي في ارتكاب بعض الأخطاء في أسلوب الكتابة في هذا الكتاب أن الناشر أراد أن يكون أسلوب الكتابة على شكل مقالات مبسطة. ومع ذلك كانت هناك أخطاء جوهرية، فعلى المستوى العملي أعتقدت بصحة عمل الباحث والرياضي في جامعة لندن سول Soal، وهو عمل تبين لي فيما بعد أنه فاقد للمصداقية، وعلى المستوى الفلسفي لم أكن قد استوعبت حينها أهمية الباراسيكولوجي في الحجة التي قدمها الفيلسوف الأسكتلندي ديفيد هيوم في القسم X من كتابه

«التحقيق» Inquiry، ولكن بعد عقود من ذلك الوقت قمت بتجميع كتاب من مجموعة قراءات أعتبر أنها أفضل ما كُتب قبل ذلك الوقت في هذا الموضوع، وأسّمت الكتاب «قراءات في المشكلات الفلسفية للباراسيكولوجي»<sup>(1)</sup> Philosophical Problems of Parapsychology. وفي مقدمة الكتاب لخصت الحلول التي ظهرت في تلك السنوات لهذه المسائل.

---

(1) Parapsychology

## استكشاف اهتمامات جديدة

### Exploring New Interests

---

برز لدي اهتمامان فلسفيان عبر القراءات العلمية في مرحلة شبابي. الاهتمام الأول كان يتمثل في افتراض أن علم الأحياء التطوري evolution biology قادر على ضمان إحراز تقدم، وهذا الافتراض ظهر بقوة في كتاب جوليان هكسلي Julian Huxley «مقالات عالم أحياء» Essays of a Biologist، وهو المقترح الذي عمل على تطويره بإصرار بقية حياته في كتاب «الوقت، النهر المتجدد» History Is on Time، the Refreshing River، وفي كتاب «التاريخ إلى جانبنا» History Is on Our Side.

قام جوزيف نيدهام Joseph Needham بدمج هذا الافتراض مع فلسفة التاريخ الماركسية، وهو المذهب الذي يقوم على أن قوانين الطبيعة ناتجة عن تطورات تاريخية، فالماركسيون يعتقدون أن هناك قوانين عالمية - مثل حتمية الحروب الطبقيّة- تحكم تقدم المجتمعات، وكجزء من عملية دحض هذا الفكرة قمت - عندما دعيت في منتصف ١٩٦٠ للمشاركة في سلسلة «أفكار جديدة في الأخلاق» - بتأليف كتاب «الأخلاق التطورية» Evolutionary Ethics (وكان ذلك سبباً في تأليف كتاب «التطور الداروني» عندما طُلب مني المشاركة في توثيق سلسلة الحركات والأفكار في بداية الثمانينات من القرن الماضي، وفي هذا الكتاب الأخير أردت أن أبين أن ما يستدعي إحترام الدارونية أنها تجسد مثال للحفاظ على أفكار ومعتقدات تفتقر لأساس متين مثل أن الفكرة الدارونية هي ضمان للتطور البشري).

اهتمامي الفلسفي الثاني نتج عن قراءتي للأدبيات العلمية المشهورة هو محاولة رسم استنتاجات باركلية (نسبة إلى الفيلسوف الإنجليزي باركلي Berkeley) على ضوء تطور الفيزياء في القرن العشرين. تنتمي البيركلية الجديدة إلى مدرسة فلسفية تسمى المثالية Idealism، والمثاليون يعتقدون بأن الواقعية الفيزيائية هي حقيقة عقلية صرفة، وأن ما هو موجود إنما هو العقول ومحتوياتها.

المصدر الرئيسي لأفكار هذه المدرسة هو أعمال السير جيمس جينز Sir James Jeans والسير أرثر أدنغتون Sir Arthur Eddington. لقد كان كتاب «الفلسفة والفيزيائيون» Philosophy and the Physicists لمؤلفته سوزان ستبنغ Susan Stebbing هو ما ساعدني في شق طريق للخروج من هذه الغابة (المثالية).

بعد ذلك بسنوات، حاولت في كتابي «مدخل إلى الفلسفة الغربية» أن أبين أن المثالية قاتلة للعلم، وقد أستشهدت في الكتاب بفقرة من كتاب «العقل، الشعور والعلم» Mind, Perception and Science لمؤلفه المميز عالم الأعصاب البريطاني اللورد رسل برايان Russell Brain، والذي أوضح أن أطباء الأعصاب عادة ما يكونون مثاليين يعتقدون بأن فعل الإحساس بموضوع ما هو ببساطة حدث يقع في دماغ المستقبل subject's brain، كما أستشهدت بادعاء برتراند رسل بأن «الإحساس لا يقدم خبرة مباشرة بالموضوع الفيزيائي»، قلت: لو كان ذلك صحيحاً فإنه ليس هناك شيء اسمه إحساس، ولا يخفى أن نتيجة هذا التفكير المثالي هي التقليل من قيمة الاكتشافات العلمية، إذ يعتمد العلماء - ويجب عليهم ذلك - على الملاحظة المباشرة في تبرير إكتشافاتهم، فإسقاط تلك الملاحظات المباشرة عن الاعتبار يقتضي إنتفاء قيمة مشاهداتهم. باختصار.. إن هذا الرأي يزيل أسس كل الاستدلالات العلمية، وكرد على هذا الرأي قلت: إنه لا بد في الإحساس الواعي

من تجربة حسية (مثال: صوت وصورة المطرقة أثناء عملية إدخال المسمار)، وإذا كان هناك ثمة معطى حسي صحيح فإن ذلك الشيء (المطرقة والمسمار) يجب أن يكونا جزءاً من إكتسابي لتلك الخبرة.

## رؤية جديدة في الفلسفة

### New Insights in Philosophy

---

في الفترة التي قضيتها في أكسفورد ١٩٤٦-١٩٥٠، ظهر اتجاه جديد في الفلسفة يُسمى بعض الأحيان «ثورة في الفلسفة»، وكان هذا الاتجاه في أوج ازدهاره. عندما كنت في أكسفورد قضيت سنتين في درجة البكالوريوس وسنتين أخريين في درجة الدراسات العليا وثمانية عشر شهراً كمدرس في الكنيسة المسيحية وخلال هذه الفترة تعمقت كثيراً في هذه «الفلسفة الجديدة»، والتي وصفها عدد من خصومها بأنها لغوية أو لغة دارجة.

كان أبرز الرموز الفلسفية في أكسفورد في ذلك الوقت غلبرت رايل وجون أوستن، وكما أشرت من قبل كان رايل المشرف على دراستي في الدكتوراة، أما أوستن فسنحت لي الفرصة للتعرف عليه بعد تعييني في الكنيسة المسيحية، حيث كنت قادراً على الحضور بشكل منتظم لما كان يعرف بنقاشات «صباح السبت»، والتي كانت تُعقد في مكتب أوستن في أكسفورد صباح كل سبت لمناقشة التطورات العلمية.

هذه التجربة الفلسفية الأكسفوردية في الأربعينات والخمسينات من القرن الماضي قدمت لي مجموعة رؤى ذات قيمة - والتي ما زلت أعتقد بصحتها -، ولكن من بين هذه الرؤى أعتبر أن أهمها هي الرؤية القائلة بأن علينا أن نكون على وعي دائم بأنه طالما أن الفلسفة هي بحث تصوري يجب أن تكون مهتمة بالاستخدام اللغوي الصحيح، فنحن لا يمكننا الوصول إلى التصورات إلا من خلال دراسة الاستخدام اللغوي، ومن ثم استخدام هذه الكلمات لشرح وتوضيح

التصورات. هذه الرؤية ذكرتني بالباحث الإنجليزي الذي ذكرته من قبل (وعبرت عنه بوصف أبي) والذي كان يدرس العهد القديم بطريقة مميزة من خلال تجميع وفحص أكبر قدر ممكن من النصوص التي يمكن أن يعثر عليها والتي يمكن أن تساعد في فهم النص العبري.

باعتباره تطوراً في توجهي الفلسفي في تلك الأيام فإن اتجاه «الفلسفة الجديدة» لم يكن جديداً جداً ولم يكن ضيقاً جداً كما قد يبدو في بعض الأحيان. «الثورة» كانت تتعلق بالتركيز على النحو التصوري conceptual grammar، أي استخدام التصورات باللغة الدارجة، وهي الدراسة التي تساعد في تجنب العديد من المشاكل في الفلسفة، وإحدى هذه المسائل تتعلق بما إذا كان بمقدورنا الوصول إلى المعرفة عن طريق التعرف على العالم الخارجي. تم صياغة هذه المسألة لأول مرة في القرن السابع عشر من قبل ديكارت، وتم قبولها بعد ذلك دون تساؤل من قبل فلاسفة عظماء أمثال لوك وباركلي وهيوم وكانت، ولكن إتجاه «الفلسفة الجديدة» رفض هذه المشكلة من الشك الديكارتي من خلال رفضه لنقطة البداية التي تقول أن الفرد كيان غير مادي وأنه لا يملك سوى تجربته الخاصة. هذا الاعتقاد كان يتعارض مع الافتراض المتضمن في خطاباتنا المتكررة والتي كانت تركز على أننا نحصل على المعرفة من خلال التعرف على العالم الفيزيائي وعلى بقية البشر، وكما قلت فلم يكن ذلك جديداً بشكل كامل، إذ لو كان أفلاطون<sup>(١)</sup> الذي كتب

---

(١) فيلسوف يوناني كلاسيكي، رياضياتي، كتب عدد من الحوارات الفلسفية، ويعتبر مؤسس لأكاديمية أثينا التي هي أول معهد للتعليم العالي في العالم الغربي، معلمه سقراط وتلميذه أرسطو، وضع أفلاطون الأسس الأولى للفلسفة الغربية والعلوم، نبوغ أفلاطون وأسلوبه ككاتب واضح في محاوراته السقراطية (نحو ثلاثين محاوراً) التي تتناول مواضيع فلسفية مختلفة: المعرفة، المنطق، اللغة، الرياضيات، الميتافيزياء، الأخلاق والسياسة.

«محاورة ثياتيتوس» وأرسطو<sup>(١)</sup> الذي كتب «الأخلاق إلى نيقوماخوس» في ندوة يديرها رايل وأوستن لشعرا أنهما في قمة الراحة وكأنهما في بيتهما.

---

(١) فيلسوف يوناني، تلميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر، وواحد من عظماء المفكرين، تغطي كتاباته مجالات عدة، منها الفيزياء والميتافيزيقيا والشعر والمسرح والموسيقى والمنطق والبلاغة واللغويات والسياسة والحكومة والأخلاقيات وعلم الأحياء وعلم الحيوان. وهو واحد من أهم مؤسسي الفلسفة الغربية.

## تطورات في الفلسفة Progress in Phiosophy

---

قبل مغادرتي أكسفورد، سلّمت للناشر مادة مجمعة للسلسلة الأولى لكتاب «المنطق واللغة»، وبعد ذلك بفترة قصيرة تبعتها السلسلة الثانية، وقد تم تحرير كلتا السلسلتين، وقد كتبت مقدمة قصيرة لكلتاهما، الأولى في عام ١٩٥١، والثانية عام ١٩٥٣. بعد وقت قصير من تعييني كمحاضر في جامعة أبردين وجدت نفسي أتصرف كمتحدث رسمي غير معين في أسكتلندا لفلسفة «أكسفورد اللغوية»، وعندما قام نادي الكشافة الاسكتلندي الفلسفي - وهو تجمع لجميع من يقوم بتدريس الفلسفة في أسكتلندا - بإصدار مجلة جديدة بعنوان «الفلسفة الفصلية» أحتوى عددها الأول على هجوم لاذع على المدرسة الأكسفوردية، وقد طلب مني محرر المجلة الرد على هذا الهجوم، وكان ردي هو مقال «الفلسفة واللغة»، وهو ما أصبح بعد التعديل الفصل التمهيدي لكتاب يتكون من مقالات مجمعة تحت عنوان «مقالات في التحليل التصوري» Essays in Conceptual Analysis.

تعرضت الحركة لنقد من الجانب الإنجليزي عبر مايكل دَمِت Michael Dummett الذي وصف الحركة بأنها «نتاج اللغة الدارجة»، وادعى بأن «عضوية هذه المدرسة الفكرية تعتمد على الترشيح من قبل البروفيسور فلو»<sup>(١)</sup>.

بالتأكيد كانت أعمال بعض الممارسين للفلسفة الجديدة - حتى إن كان عددهم قليلاً جداً - تافهة ومكررة ولا طائل منها، وقد كان لي رد فعل على هذا التكرار

---

(1) Michael Dummett, Truth and Other Enigmas (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1978), 431.

وعدم الجدوى من خلال ورقة بحثية كتبها وقدمتها في إحدى الأندية الثقافية وكانت بعنوان «الأمور ذات الأهمية» Matter That Matters، جادلت خلالها أنه كان من الممكن ومن المحبذ التركيز على المشاكل التي يمكن أن يجدها المهتمون بالفلسفة -حتى الأشخاص العاديين غير الناضجين فلسفياً- مهمة وممتعة، بدلاً من إضاعة الوقت والجهد في أمور وهمية.

بدأت أقتنع -وهذا ما كتبته في كتاب «مدخل إلى الفلسفة الغربية»- بأنه يمكن إحراز تقدم في الفلسفة على الرغم من غياب التوافق العام، فعدم وجود التوافق في الفلسفة ليس برهاناً مستقلاً كافياً للقول بأن هذا الموضوع لا يمكن التقدم فيه. إظهار عدم وجود معرفة فلسفية بدعوى أنه سيظل هناك من لا يقتنع هي مغالطة شائعة صدرت حتى من فلاسفة معروفين مثل برتراند رسل، أما أنا فأسميها «ولكن سوف يظل هناك دوماً من لا يقتنع على الإطلاق». إذاً هناك إتهام حاصله: إن من المستحيل في الفلسفة أن تبرهن لشخص أنك على حق وأنه على خطأ، ولكن الجزء المفقود في هذه الحجة هو التفريق بين إنتاج دليل وبين إقناع الشخص، فالشخص قد يقتنع بحجة باطلة، ويظل غير مقتنع بحجة ينبغي القبول بها.

يختلف التقدم في الفلسفة عن التقدم في العلم، ولكن ذلك لا يعني أنه مستحيل. في الفلسفة، أنت تسلط الضوء على الطبيعة الجوهرية للاستدلال الاستنباطي، أنت تميز بين الأسئلة حول الحجج الصحيحة وغير الصحيحة وبين الأسئلة المتعلقة بصدق وكذب مقدماتها أو نتائجها، أنت تبين الاستخدام الصارم لمصطلح المغالطة، أنت تحدد وتشرح مثل هذه المغالطات من قبيل «ولكن سوف يظل هناك دوماً من لا يقتنع على الإطلاق». إلى الحد الذي تتجز فيه هذه الأمور.. نجد أن هذه الأمور

يتم الوصول لها عبر التفكير المنطقي، ويمكن رؤية التقدم الحاصل حتى لو ظل الإجماع والإقناع أمر غير متحقق وغير كامل.

## إعطاء اهتمام أكثر للإلحاد

### Paying Mmore Attention to Atheism

كان النادي السقراطي الذي يرأسه في ذلك الوقت لويس فاعلاً خلال ذروة نشاط «الفلسفة الجديدة»، ووجدت المبدأ السقراطي القائل «اتبع الدليل أينما قادك»، متجسداً هناك، وبشكل متزايد أصبح هذا المبدأ هو المبدأ الموجه في تطوير وتعديل بعض رؤاي الفلسفية، وخلال هذه التجمعات في النادي السقراطي أيضاً بدأ فلاسفة اللغة -الذين كانوا يُتهمون بتسفيه الالتزام بالضوابط التي كانت معتبرة في زمان سابق- باستكشاف ما صنّفها الفيلسوف الألماني كانت على أنها أعظم ثلاثة أسئلة في الفلسفة: الإله، الحرية والخلود.

كانت مساهماتي في هذا المنتدى من خلال ورقة بحثية بعنوان «اللاهوت والتكذيب»، وكما ذكرت سابقاً فإن الأسس التي بنيت عليها أقتناعي بالإلحاد عندما كنت في الخامسة عشرة كانت ناقصة بوضوح.

لقد كانت مبنية على «عناد صغار السن»:

١- مشكلة الشر كانت بالنسبة لي دحساً حاسماً لوجود إله كامل الخير وكامل القدرة.

٢- الدفاع عن حرية الإرادة» لا يعفي الخالق من مسئولية عدم إتقان الخلق. منذ أيام المدرسة، خصصت اهتماماً إضافياً للأسباب المؤيدة والمضادة للوصول إلى النتائج الإلحادية، وتمثلت بدايتي في عملية البحث في هذا المجال في مقالة «اللاهوت والتكذيب»، وقد تم عرض مقالة «اللاهوت والتكذيب» لأول

مرة في صيف عام ١٩٥٠ في النادي السقراطي في أكسفورد، وتم بعد ذلك نشرها في مجلة لطلبة البكالوريوس، اسمها «الجامعة».

إعادة طباعة المقالة لأول مرة كانت في عام ١٩٥٥ في كتاب «مقالات جديدة في الفلسفة اللاهوتية»، وهو عبارة عن مقالات مجمعة قمت بتحريرها بمساعدة من ماكلنتير Alasdair MacIntyre، واحتوى الكتاب على مجموعة من الإسهامات القيمة في فلسفة الدين وفقاً لرؤية «الفلسفة الجديدة»، وقد وصفت مجلة Times Literary supplement هذا الكتاب بأنه إضافة جديدة بشكل جذري.

كان هدفي الأساسي من مقال «اللاهوت والتكذيب» هو بيان طبيعة ادعاءات اللاهوتيين، وتساءلت هل إن تعدد القيود الذي يحيط بالكلام اللاهوتي ينتج عنه إماتة الميت<sup>(١)</sup> - ولو بألف قيد-؟ إذا أتيت بادعاء فإن عليك أن تستثني بعض الأشياء كي يكون إدعاؤك مقبولاً. على سبيل المثال الادعاء بأن الأرض كروية سوف يستبعد إمكانية أن تكون الأرض مسطحة، ورغم أنها تبدو مسطحة إلا أن هذا التناقض الواضح يمكن تفسيره عن طريق الحجم الهائل للأرض. الجهة التي ننظر منها إلى الأرض لها دور في ذلك، ولذلك فإن إضافة قيود للإدعاء قد يجعل الادعاء متسقاً مع الظاهرة التي تبدو متناقضة معه<sup>(٢)</sup>، ولكن إذا أستمريت الظاهرة المتناقضة مع وجود هذا القيد فإن الإدعاء نفسه يصبح مشكوكاً فيه.

إذا كنا ندعي بأن الإله يحبنا فإن علينا أن نتساءل عن الظواهر التي يستبعدها هذا الادعاء، ومن الواضح أن الألم والمعاناة تمثل تحدياً لهذا الادعاء.

---

(١) كناية عن عدم تأثير إضافة القيود في حل المشكلة، إذ الميت لا يمكن إماتته.  
(٢) يريد المؤلف أن يبين أن إضافة قيد (كبيرة وهائلة) للكثرة الأرضية يرفع التناقض الظاهري المتوهم بين النظرية العلمية المثبتة لكروية الأرض وإحساسنا الوجداني بتسطح الأرض.

يعتبر الموحدون أن إضافة القيود اللازمة يمكن أن يتوافق مع وجود الإله وحبه للبشر، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: لماذا لا نفترض ببساطة أن الإله لا يحبنا؟ الموحدون كما يبدو لن يسمحوا بتسجيل أي تحفظ ضد الادعاء بأن الإله يحبنا، ولكن هذا يعني أنه لا يوجد ما يدعم هذا الادعاء، وعندها سيصبح فارغاً، ولذلك أقول: إن الفرضية الرائعة يمكن أن يُقضى عليها بواسطة القيود الكثيرة.

رغم أن قصدي من وراء طرح هذه الأسئلة يبدو جلياً إلا أنني كثيراً ما أواجه بالادعاءات بأنني كنت أشرح وجهة نظري حول معنى أو غالباً عدم معنى اللغة الدينية، وكذلك الحال مع الادعاءات السائدة بأنني منجذب ومعمد على مبدأ التحقق الذي تبنته جماعة فيينا، وهي التي تمثل مدرسة الوضعية المنطقية، والتي تتبنى الادعاء القائل بأن العبارات التي يمكن التحقق منها باستخدام مناهج العلوم هي وحدها التي لها معنى.

ولكن في الحقيقة لم أكوّن قط أطروحة شاملة عن وجود أو عدم وجود لكل اللغة الدينية. لقد كان هدفي الأساس في بحث «اللاهوت والتكذيب» وضع بعض «البهارات» على الحوار الدائر بين الوضعية المنطقية والدين المسيحي، وإقامة حوار أكثر فائدة بين الإيمان والكفر.

لم أكن أقدم مذهباً متكاملًا عن كل اللغة الدينية، وإنما كان هدفي الأساسي من مقال «اللاهوت والتكذيب» إثارة الجدل بين من يعتقد بالوضعية المنطقية وبين المسيحيين، وإقامة نقاش بين المؤمنين بإله وغير المؤمنين بإله. أنا لم أقل بأن عبارات الاعتقادات الدينية لا معنى لها. لقد كنت ببساطة أتحدى الموحدون لكي يشرحوا عباراتهم بشكل يمكن فهمه على ضوء المعطيات المتعارضة.

## التعلم من عدم الاتفاق

### Learning from Disagreement

نالت المقالة الكثير من الردود، ومن هذه الردود ما ظهر بعد عقود من نشر المقالة، وكثير منها ساعدني في تهذيب - وفي بعض الأحيان - تصحيح آرائي، لكن أكثر الردود حدة في الانتقاد ربما كان أولها، وجاء من قبل هير R.M Hare - والذي أصبح أستاذ الفلسفة الأخلاقية في أكسفورد-.

دعا هير إلى عدم تفسير الكلام الديني باعتباره جملاً، بل باعتباره تعبيرات عن التوجه العام، وهذا التوجه كما وصفه البروفيسور هير عبارة عن تفسير لخبرتنا التي لا يمكن التحقق منها أو تكذيبها، وحسب علمي لم يطور هير هذه الفكرة بشكل مكتوب، ولكن لا أعتقد أن مقولة هير سوف ترضي المؤمنين طالما أنها تنكر أي أساس عقلائي للاعتقاد.

يقول باسل ميتشل Basil Mitchell وهو الذي خلف لويس في رئاسة النادي السقراطي «إن هناك خطأ في عرضي لوجهة النظر اللاهوتية، فالأفكار اللاهوتية يجب أن تكون أفكاراً مؤكدة، ولكي تكون كذلك، لابد من أن يكون هناك ما يُعتبر منافياً ومكذباً لما يدعون حقاينته، وأشار ميتشيل إلى أن اللاهوتيين لا ينفون ذلك، فالواقع أن مشكلة الشر في النظرة اللاهوتية تظهر لأن وجود الألم يبدو أنه يحسب ضد حقيقة أن الإله يحب البشر، وكان رد اللاهوتيين بالتمسك بمقولة الإرادة الحرة، ولكن ميتشيل أكد على أن المعتقدين بالإله يقعون عادة في محذور تحويل توكيداتهم إلى صيغ فارغة من المعنى.

في كتاب ميتشيل «الإيمان والمنطق» Faith and Logic، قدم كوبي - وهو فيلسوف معروف بأعماله عن أفلاطون - معالجة أفضل بكثير لهذا الموضوع. يقول كوبي: «إن اللاهوتيين يعتقدون بغيث يتجاوز التجربة»، ولكن كوبي يدعى أنه يستطيع تتبع بصمات هذا الغيب في التجربة. يؤكد المؤمنون بالإله على أنهم عندما يعبرون عن إعتقادهم فإنهم مجبرون على استخدام لغة محكمة بالقوانين المتناقضة<sup>(1)</sup>، ولاحظ كوبي أنه يمكنك فهم العبارات اللاهوتية فقط عندما تكون منصفاً في ثلاث قضايا:

١- المؤمنون بالإله يعتقدون بأن الإله كائن متعال، وأن العبارات التي تتحدث عنه تنطبق عليه ولا تنطبق على العالم الخارجي.

٢- المؤمنون بالإله يؤمنون بأن الإله كائن متعال تستلزم عدم القدرة على إدراكه.

٣- وبما أن الإله سر، فلن نفهمه لابد من أن نتحدث عنه بطريقة ذكية، فنحن يمكننا فقط أن نتحدث عن الإله من خلال صور، والعبارات اللاهوتية عبارة عن صور بشرية للحقيقة المقدسة التي يمكن التعبير عنها بالأمثال<sup>(1)</sup>.

جاءت ردود أخرى على مقالة «اللاهوت والتكذيب»، ومن ضمنها رد ريبين هيمبك Raeburn Heimbeck وأريك مسكال Eric Mascall. في كتابه «اللاهوت والمعنى» Theology and Meaning، أتهم هيمبك وهو أستاذ الفلسفة والدراسات الدينية بجامعة واشنطن الوسطى المقالة بارتكاب ثلاثة أخطاء مهمة. الخطأ الأول أنها افترضت أن معنى أية جملة مرهون بإمكان التحقق التجريبي من مضمونها.

(1) I. M. Crombie, "The Possibility of Theological Statements," in Faith and Logic, ed. Basil Mitchell (London: Allen & Unwin), 50.

(2) Crombie, "The Possibility of Theological Statements," 73, 72.

الخطأ الثاني أنها تضمنت خطأ وهو أن الاعتراض على معتقد هو نفسه عدم التوافق معه<sup>(1)</sup>، أما الخطأ الثالث فهو أنها أفترضت أن العبارات المتعلقة بتعبير الإله عن حبه، أو عن وجود الإله عبارات لا يمكن تكذيبها من حيث المبدأ، ولكن الخطأ الرئيسي حسب وجهة نظره، أن المقالة حددت الأسس للحكم بصدق أو كذب القضايا بالشروط التي جعلها صادقة أو كاذبة<sup>(2)</sup>.

نبه ماسكال Mascall، مستعيناً بفكر فتجنشتين إلى أننا نستطيع إكتشاف إذا ما كان للعبارة معنى، فقط من خلال قدرة الناس على فهمها في السياق اللغوي والمكاني الذي تُستخدم فيه<sup>(3)</sup>.

استشهدت - بتوسع نوعاً ما - بهذه الردود لأوضح دور مقالة «اللاهوت والتكذيب» في تحفيز ظهور موجات جديدة من الأفكار التي ساعدت في تحريك المياه الراكدة للخطاب اللاهوتي، وقد أستمر هذا النقاش حتى يومنا هذا، وفي الحقيقة صدر عن مجلة ريتشموند للفلسفة عدد في عام ٢٠٠٥ احتوى على مقال يناقش فائدة حججتي التي قدمتها منذ عام ١٩٥٠.

لقد كان لهذه الردود أثر عليّ وعلى آرائي الفلسفية، وكيف لا تؤثر هذه الردود إذا كنت متسقاً مع نفسي في اتباع الدليل أينما قادني؟ في الطبعة البرونزية للمقالة أعرفت بصحة اثنين من الانتقادات الموجهة للمقالة. إنتقاد ميتشيل قادني

---

(١) يقصد هنا: هناك فرق بين القول بأن مشكلة الشر لا تتوافق مع الإيمان بقدرة الله المطلقة وحبه المطلق للبشر من ناحية، والقول بأن مشكلة الشر متعارضة تماماً وضد الاعتقاد بوجود إله. فالأول لا ينكره المؤمنون بالإله ويسعوه لرفع عدم التوافق هذا، في حين أنهم ينكرون الثاني تماماً. وبالتالي مقالة فلو القديمة لم تفرق بين هذين الأمرين.

(2) Raeburne Heimbeck, *Theology and Meaning* (London: Allen & Unwin, 1969), 123, 163.

(3) Eric L. Mascall, *The Openness of Being* (Philadelphia: Westminster, 1971), 63.

إلى التفكير في غرابة موقفي من اللاهوتيين، فقد بين ميتشيل أن اللاهوتيين لا ينفون حقيقة «أن مسألة الألم تسجل ضد الادعاء بأن الإله يحب البشر»، وهي المشكلة ذاتها في مسألة وجود الشرور في العالم، وأعتقد أنه كان على صواب في ذلك، كما أدركت قوة نقد همبك واعترفت بأنني كنت على خطأ في عدم التمييز بين «اعتباره ضد» وبين القول «بأنه لا يتسق معه». حجتي الأساسية تنصب بشكل مباشر على الأمر الثاني لا الأول.

## الإله والفلسفة

### God and Philoaphy

---

بعد إحدى عشرة سنة من نشر كتاب «مقالات جديدة»، نشرت كتاب «الإله والفلسفة»، وكانت محاولة مني لتقديم واختبار التوحيد المسيحي. لم أجد أي عرض سابق كاف ومقبول لهذه المسألة، بما فيها العرض الذي كان مقبولاً على نطاق واسع من قبل المعاصرين المعتقدين بالإله، وقد طلبت من بعض الأصدقاء المسيحيين وبعض الزملاء أن يقدموا لي اقتراحات في هذا الموضوع، ولكنني وجدت القليل من الذي يستحق الاهتمام به ضمن ما قدم أو لعدم وجود ترابط فيما بينهما. ولذلك قمت بتجميع أقوى الحجج من عدة مصادر، ودعوت الذين لم يكونوا راضين بذلك إلى تقديم ما لديهم حتى نستطيع إنتاج شيء يرضيهم ويرضي أمثالهم.

لقد تم نشر كتاب «الإله والفلسفة» لأول مرة في عام ١٩٦٦، وأعيد نشر هذا الكتاب في عام ١٩٨٤ بعنوان «الإله: دراسة نقدية» God: A Critical Enquiry، أما النسخة الأخيرة من الكتاب مع تمهيد من قبل الناشر ومقدمة غير مقنعة من قبلي فصدرت عام ٢٠٠٥. في كتاب «الإله والفلسفة»، عرضت طرحاً منهجياً للإلحاد، وبشكل عام دعوت إلى أن تكون نقطة البداية في السؤال عن مفهوم الإله في حدود تماسكه وقابليته للتطبيق ومشروعيته.

عرضت في الفصول الأولى من الكتاب لحجج اللاهوت الطبيعي<sup>(١)</sup> بالإضافة

---

(١) اللاهوت الطبيعي هي فرع من اللاهوت يعتمد على العقل والتجارب العادية. وبالتالي فهي تختلف عن الوحي الديني الذي يقوم على أساس الكتب المقدسة والتجارب الدينية من مختلف الأنواع.

إلى عرض إدعاءات الوحي المقدس، وفي الوقت نفسه حلت فكرة التفسير، وفكرة النظام، وفكرة الغاية بالاعتماد على ديفيد هيوم وآخرين ممن يشاركونه في ذلك الرأي، وقلت بأن الحجة الغائية، والحجة الكونية، والحجة الأخلاقية التي تستخدم لتأكيد وجود الإله حجج غير صحيحة، كما حاولت أن أبين أنه من المستحيل الوصول إلى نتيجة صحيحة من خبرة دينية خاصة.

لكن الإسهام الأهم في الكتاب هو الفصل الذي كان بعنوان «البداية من البداية»، والذي نبهت فيه إلى أن هناك ثلاثة مواضيع بالتحديد يجب الإجابة عليها فيما يخص مفهوم الإله: كيف يمكن تعريف مفهوم الإله؟ كيف يمكن تطبيق التعبيرات الإيجابية والسلبية فيما يخص الإله؟ كيف يمكننا أن نوفق ما بين تعريف صفات الإله مع الحقائق التي لا يمكن إنكارها؟ (كيف يمكن تفسير وجود الأمراض في العالم مع وجود إله قادر؟).

تم الرد على السؤالين الثاني والثالث من قبل المؤمنين بالإله، فقد تم الرد على السؤال الثاني من خلال نظرية التمثيل أو التشبيه، حيث تناولوا صفات الإله وحرية الإرادة لمعالجة مشكلة الشر. أما السؤال الثالث المتعلق بمسألة الشرور فتم الرد عليه بمبدأ الإرادة الحرة. ولكن السؤال الأول هو الذي لم يتم التطرق له بشكل كاف على الإطلاق.

التعريف والتحديد هي أمور يجب الاتفاق عليها وتوضيحها في موضوع الخطاب، ولكن لم يكن واضحاً كيف يمكن تعريف جوهر فرد مثل الإله الفسيفسائي (mosaic god)<sup>(1)</sup> وتمييزه عن الكون «المخلوق»؟ بأي اعتبار يمكن أن نفهم أن هذا

---

(1) كناية عن تعدد تصورات الأديان للإله الكامل.

الوجود هو واحد لا يتغير على الدوام، وهو في نفس الوقت فاعل في الزمان أو -بشكل محير أكثر- على نحو ما خارج الزمان؟ ما لم يكن لدينا مفهوم أصيل، متماسك، قابل للتطبيق (عن الإله)، لا يمكن إثارة السؤال حول وجود أو عدم وجود هذا الإله على نحو مناسب. وبعبارة أخرى: لا يمكننا البدء بنقاش الأسباب التي تجعلنا نقول: إن هناك إلهاً على نحو ما موجود قبل أن نقرر كيف يمكن تحديد الإله الذي نتحدث عنه، ولا يمكننا أن نفهم بشكل منطقي مقبول كيف يمكن أن يُعاد ويتعدد تعريف نفس الكائن بمرور الزمن، وعلى سبيل المثال كيف يمكن لكائن «مجرد عن المادة والجسد وموجود في كل مكان» أن يُعرف ويعاد تعريفه وأن يكون قابلاً كموضوع لعدة توصيفات؟

يرد المؤمنون بالإله على هذا النمط من التفكير بعدة طرق، وأبرز هؤلاء ريشارد سوينبيرن (Swinburn) (خلفني في جامعة كييل كبرفيسور في فلسفة الدين المسيحي في أكسفورد) من خلال كتاب «تماسك عقيدة الإيمان» *The Coherence of Theism*. علل سوينبرن ذلك بأن العبارة «فقط س الذين رأيناهم في وقت سابق هم ص» لا تؤدي إلى عدم تماسك الفرضية بأن هناك «س ليس ص».

ليس من حق أحد أن يحتج بأن ما أعتاد على رؤيته - ولنقل أنه س - يجب أن يكون ص، ولذلك فإن ص يجب أن تكون صفة أساسية لأي شيء يُصنف على أنه س. أما فيما يخص الهوية، فإن سوينبرن يقول إن هوية الشخص جوهرية، ولا يمكن تحليلها من خلال إستمرارية الجسد أو الذاكرة أو الشخصية.

قَبْلَ ماكي J. L. Mackie - وهو فيلسوف ملحد - بتعريف سوينبيرن للإله على أنه روحاً وأنه حاضر في كل مكان، وأنه قادر على كل شيء، وعليم بكل شيء، وببساطة

أعتبر ماكي أنه «لا مشكلة في ذلك» عندما يتعلق الأمر بالتعريف والتمييز<sup>(1)</sup>. أدرك مؤرخ الفلسفة فردريك كبلستون Frederick Copleston قوة التساؤل الذي أثرته فيما يخص تماسك مفهوم الإله، ورد بجواب مختلف. يقول فردريك «لا أعتقد أن من المبرر الطلب من العقل البشري أن يكون قادراً على تحديد إله مثل فراشة واقفة على صندوق زجاجي. الإله يصبح حقيقة واقعة للعقل البشري في حركة الإنسان نحو التعالي، حيث يظهر الإله باعتباره الهدف غير المرئي لهذه الحركة، وحيث إن المتعالي لا يمكن إدراك كنه ذاته، وإذا جاز التعبير فإنه لا بد - وفقاً لخلفيتنا التصورية أن ينشأ الشك ويظهر، ولكن داخل هذه الحركة من التعالي فإن الشك يعود للتوازن من خلال التوكيد (assertion - affirmation) المتضمن بالحركة في ذاتها، ضمن سياق هذه الحركة الشخصية للروح البشرية يصبح ذلك الإله حقيقة واقعة للشخص»<sup>(2)</sup>.

ما الذي أعتقده اليوم عن الحجج المنصوص عليها في كتاب «الإله والفلسفة»؟ في رسالة عام ٢٠٠٤ إلى مجلة «الفلسفة الآن»، أوضحت أنني الآن أعتبر أن الإله والفلسفة بقايا تاريخية. لكن، بطبيعة الحال، لا يمكن للمرء أن يتبع الدليل حيثما يؤدي دون إعطاء الآخرين فرصة إبداء وجهات نظرهم في أمور لم تناقشها بشكل كامل، وآرائي الحالية في المواضيع التي تم التطرق لها هناك، تم عرضها في القسم الثاني من هذا الكتاب، «اكتشافي للمقدس».

---

(1) J. L. Mackie, The Miracle of Theism (Oxford: Clarendon, 1982), 1.

(2) Frederick C. Copleston, Philosophers and Philosophies (London: Search Press, 1976), 76.

## فرضية الإلحاد

### The Presumption of Atheism

بعد مرور عقد من الزمن على نشر كتاب «الإله والفلسفة»، قمت بكتابة مقالة «فرضية الإلحاد» (نشرت في الولايات المتحدة تحت عنوان «الإله والحرية والخلود»)، وفي هذه المقالة جادلت بأن النقاش حول وجود الإله يجب أن يبدأ من فرضية الإلحاد، وأن عبء الإثبات يجب أن يكون على المؤمنين بالإله.

أشرت إلى أن هذا النهج الجديد يضع مسألة وجود الإله بشكل كامل في إطار منظور جديد، كما أنه يساعد في التخلص من المشاكل التصورية عن الإيمان التي قد لا يتم الاهتمام بها، مما يجبر اللاهوتيين على البدء من البداية المطلقة. استخدام المؤمنين بالإله لكلمة «الإله» يجب أن يوفر معناً يجعل من الممكن نظرياً وصف هذا الكائن. توصلت إلى نتيجة مفادها أنه مع هذا المنظور الجديد يظهر مشروع الإيمان بالإله بأكمله متزعزعاً أكثر مما كان عليه من قبل.

يمكن تبرير فرضية الإلحاد لعدم توفر المبررات الوجيهة للاعتقاد بوجود الإله، ولكن إذا لم يكن لدينا مثل هذه المبررات فإنه لا يوجد هناك سبب كاف للإيمان بوجود الإله، والموقف الوحيد المعقول هو أن تكون ملحداً سلبياً أو لأدري agnostic (قصدت بالملحد السلبي النمطي وغير الأخلاقي)، ولا بد لي من الإشارة هنا إلى ما لا تتضمنه «الفرضية». هي ليست فرضية مسبقة الحكم على نتيجة يراد أن تُثبت، وإنما هي مبدأ إجرائي لتحديد من سيقع عليه عبء الإثبات، مثل قاعدة «الأصل البراءة» - وهي القاعدة التي يستند إليها القانون العام الإنكليزي<sup>(1)</sup>.

(1) يقصد: أن كل متهم بريء حتى تثبت إدانته. وهو ما يوازي عندنا الحديث المروي: «البينة على من ادعى»

أجد أنه - في أي نظام منهجي سليم- على اللاهوتيين أن يبدأوا كما هو الحال في كل فرضية وجودية بتحديد المفهوم الخاص الذي سوف يستخدم لوصف الإله، و فقط بعد تلبية هاتين المهمتين بشكل مرضي يصبح مقبولاً البدء بتقديم البراهين المقصودة.

حضت هذه الحجة العديد من الردود. باعتباره لا أدرياً، كتب الفيلسوف الإنجليزي أنتوني كيني Anthony Kenny، قائلاً بأنه قد يكون هناك فرضية لتبرير اللادرية (agnostic)، ولكن هذا التبرير ليس تبريراً للإلحاد السلبي أو الإيجابي. لقد أكد كيني على أن إظهار أنك تعرف يتطلب جهداً أكبر من إظهار أنك لا تعرف (وهذا يشمل حتى الإدعاء بأن تصور الإله غير متماسك)، لكنه قال: إن هذا لا يخلص اللادرية agnostic من الورطة، فالمتقدم للاختبار يمكنه تبرير عدم معرفته بالإجابة على أحد الأسئلة، ولكن هذا لا يمنحه القدرة على اجتياز الاختبار<sup>(1)</sup>.

كاي نيلسون Kai Nielsen وهو زميل ملحد زاملته سابقاً، قدم نقداً يزعم فيه أن الموقف الأخلاقي المتميز هو أن تبقى غير ملتزم تماماً حتى تتوفر أسباب كافية لذلك. يذهب نيلسون للقول بأن المعتقدين بالإله والمتشككين لديهم مفهوم مشترك للعقلانية مع المعايير المطلوبة لتقييم مزايا ما يدعونه، وأضاف بأن هناك «علامة استفهام كبيرة» على «فرضية الإلحاد»<sup>(2)</sup> إذا لم تكن قادرة على إنتاج تصور عالمي ممكن القبول للعقلانية .

(1) Anthony Kenny, Faith and Reason (New York: Columbia University Press, 1983), 86.

(2) Kai Nielsen, review of The Presumption of Atheism by Antony Flew, Religious Studies Review 3 (July 1977): 147.

أكبر تحدي للحجة جاء من أمريكا، حيث قدم أستاذ المنطق الجهاتي Modal Logic ألفن بلانتيغا Alvin Plantinga فكرة مفادها أن الاعتقاد بالإله إعتقاد أساسي، وأكد على أن الإعتقاد بالإله مشابه للاعتقاد بالحقائق الرئيسية مثل وجود عقول أخرى، أو الاعتقاد الحسي (رؤية شجرة)، أو الاعتقاد بوجود ذاكرة (الإيمان بوجود ماضي). في جميع هذه الحالات، أنت تثق بقدراتك الإدراكية على الرغم من أنك لا تستطيع إثبات صدق الاعتقاد محل التساؤل. وبالمثل، فإن الناس يعتقدون ببعض القضايا (كوجود العالم مثلاً) كأصل، في حين تشتق ما يترتب عليها من القضايا الأساسية هذه.

هذه الفرضية تقول: إن المعتقدون بالإله، قد يجادلون بأنهم يأخذون وجود الإله كقضية أساسية.

يعتبر الفيلسوف التوماوي (نسبة إلى الفيلسوف توما الأكويني) رالف ماكلينري Ralph McInerny إن من الطبيعي للإنسان أن يعتقد بالإله بسبب النظام، والترتيب، وقوانين الطبيعة التي تحكم الأحداث التي تقع في الطبيعة، ولذلك كثيراً ما يقول: إن فكرة وجود الإله فطرية وهي تبدو كمسألة ضد الإلحاد. لذا فإنه في حين جادل بلانتيغا بأن الموحدين لا يتحملون عبء الإثبات، ذهب ماكلينري أبعد من ذلك بالقول أن الملحدون هم من يتحمل عبء الإثبات.

ينبغي أن أشير هنا إلى أنه على خلاف حجج المضادة للاهوت، فإن فرضية الإلحاد يمكن قبولها من قبل الموحدين عند وجود أسس قوية للاعتقاد بوجود الإله، فإذا افترضنا وجود مبررات مناسبة للاعتقاد بالإله، فالموحدون لا يرتكبون أي خطأ فلسفي في مثل هذا الاعتقاد! لأن فرضية الإلحاد في أحسن الأحوال نقطة انطلاق منهجية، وليست نتيجة وجودية.

## تغيير وجهة نظري

### Changing My Mind

---

كفيلسوف محترف، قمت بتغيير وجهة نظري أكثر من مرة في المسائل المختلف عليها، وينبغي أن لا يكون ذلك مستغرباً بالطبع، مع الأخذ بالاعتبار قناعاتي بإمكانية التطور في الفلسفة، وقناعاتي بمبدأ إتباع الدليل أينما يقودني. عندما كنت أقوم بالتدريس في جامعة كييل في عام ١٩٦١، كتبت كتاباً حول كتاب هيوم «تحقيق بشأن الفهم الإنساني». حتى ذلك الحين، كان يتم التعامل مع تحقيق هيوم (عادة يقال له «التحقيق الأول» لتمييزه عن كتابه اللاحق «تحقيق بشأن مبادئ الأخلاق») على عكس ما جال في ذهن المؤلف بوصفها مجرد مقتطفات، أما الآن فهذه المقتطفات تعد أعظم أعمال هيوم.

وبخصوص كتابي عن هيوم، كتب جلبرت رايل قائلاً «أقدر عالياً ما جاء في الكتاب، فهو مملوء معرفة وحيوية». في حين كتب جون باسمور John Passmore قائلاً «إن أي مناقشة لاحقة لعلمانية هيوم يجب أن تبدأ من فلو». رغم هذه الإشادات فإنني كنت دائماً أرغب بعمل تعديلات جوهرية في كتابي «فلسفة هيوم في الاعتقاد». مسألة واحدة على الأقل كانت تحتاج إلى تصحيحات كبيرة. الفصول الثلاثة «فكرة الاتصال الضروري» و «الحرية والضرورة» و «المعجزات و المنهجية» جميعها كان بحاجة إلى إعادة صياغة، على ضوء إدراكي المبني حديثاً بأن هيوم كان مخطئاً تماماً بالقول أننا ليس لدينا خبرة، وبالتالي ليس لدينا أفكاراً أصيلة، وليس في قدرتنا جعل بعض الأشياء تحدث ومنع البعض الآخر من الحدوث، أي الضرورة الفيزيائية والاستحالة الفيزيائية.

ونتيجة لخطأ هيوم هذا، تم تضليل أجيال من أتباع هيوم بتقديم تحليل في غاية الضعف للسببية والقانون الطبيعي، لأنه لم يكن هناك أساس إما لقبول وجود السبب والنتيجة أو قبول وجود قوانين الطبيعة. وفي الوقت نفسه، فإن هيوم ذاته في كتاب «الحرية والضرورة» Of Liberty and Necessity وكتاب «من المعجزات» Of Miracles كان يسعى لإيجاد أفكار عن أسباب تأتي بنتائج أقوى من تلك التي كان هيوم مستعداً لاعتبارها مشروعة.

في كتابه «تحقيقات جديدة»، نفى هيوم السببية وادعى أن كل ما يتضمنه العالم الخارجي هو مجرد ترابط دائم - أي: عبارة عن أحداث من هذا النوع يتبعها بانتظام أحداث من ذلك النوع -، وعندما نلاحظ هذا الترابط الدائم يتكون لدينا ميل قوي في الربط بين أفكار عن هذا وأفكار عن ذلك، فنحن نرى الماء يغلي عندما يتم تسخينه فنربط بين تسخين الماء وبين غليانه فنعتقد أن هناك علاقة واقعية بين الاثنين، في حين أننا بذلك نسقط ترابطاتنا النفسية الداخلية. بمجرد أن ينتهي هيوم من البحث يتخلص من تشكيكه في السبب والنتيجة ولا أدريته بالنسبة للعالم الخارجي كما يدعي، وفي الحقيقة فإن هيوم يتخلى عن تشكيكه بالسببية وإنكاره للعالم الخارجي حتى قبل أن ينتهي من البحث، فليس هناك على سبيل المثال في فصل «في المعجزات» في كتابه «التحقيق الأول» أثر لأطروحته عن العلاقات السببية، وما كان يقوله من أن الضرورات ليست سوى إسقاطات كاذبة على الطبيعة.

وفي كتابه «تاريخ إنكلترا»، لم يقدم هيوم أية إشارة لشكك في السببية أو في العالم الخارجي، وبهذا يذكرنا هيوم ببعض المعاصرين الذين ينكرون لمبررات إجتماعية أو فلسفية إمكانية المعرفة الموضوعية. وهم بتخليهم عن الموضوعية

الشاملة يتخلون عن الدقة في البحث العلمي، بل إنهم فوق كل ذلك يعبرون عن قناعتهم الخاصة بعدم وجود معرفة موضوعية!!!

الموضوع الآخر الذي غيرت رأبي فيه هو الإرادة الحرة وحرية الإنسان. هذا الموضوع مهم، لأن السؤال عما إذا كنا أحراراً أم لا يقع في جوهر أغلب الأديان الرئيسية، وقد أشرت من قبل إلى تعارض وجود الشر في العالم الذي خلقه إله على كل شيء قدير وبكل شيء عليم، وكان رد الموحدين على هذا التناقض المشاهد بالقول بأن الإله وهب الإنسان الإرادة الحرة، وأن كل أو معظم الشرور الصارخة في العالم ترجع بشكل رئيسي أو جزئي إلى سوء استخدام هذه الهدية الخطرة، إلا أن المحصلة النهائية ستكون بالتأكيد أن الخيرات المتحققة من هبة الحرية أعظم بكثير من سلبها.

كنت في الواقع أول من سمي هذه الحجة «دفاع الإرادة الحرة»، وبغض النظر عما يمكن تسمية هذه المناظرة «بين الإرادة الحرة وبين الجبرية»، أو بالتعبير العلماني «بين الإرادة الحرة وبين الحتمية» فإن السؤال عما إذا كنا أحراراً في أفعالنا أم لا له أهمية رئيسية.

ردي على وجهة نظر هيوم كان باتجاهين، أولاً: بعرض الرأي الذي أصبح يعرف بالتوافقية compatibilism. يزعم غير التوافقيين أنه لا يوجد توافق بين الإرادة الحرة وبين الحتمية، وأما التوافقيون فلم يكتفوا بالقول بأن من الممكن التوفيق بين الإرادة الحرة وبين القول بأن إرادة شخص ما لا تتعارض مع كون مستقبله محتوم حتى قبل أن يقوم بالعمل، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك بالقول بأن الأفعال الإرادية يمكن أن تكون حرة حتى لو كان وقوعها حتمياً من الناحية الفيزيائية، وحتى لو كان وجودها محكوماً بقوانين الطبيعة.

ورغم استمرارى بالاعتقاد بأن الناس يقومون باختيارات حرة، فإنني في الأعوام اللاحقة بدأت ألاحظ أنه لا يمكن القول بأن هذه الاختيارات الإرادية لها أسبابها المحددة فيزيائياً. بعبارة أخرى، التوافقية لا تصح، فالتوافق لا يصح في هذه الأمور. قانون الطبيعة ليس مجرد عبارة يتم التعبير بها عن حدوث شيء ما، وعندما يحدث فإن حدثاً آخر يتبعه، بل الأحرى القول أن القانون هو إدعاء بأن حدوث شيء ما يُحْتَمُّ بالضرورة حدوث الشيء الآخر، مما يجعل عدم حدوثه أمراً مستحيلاً، وليس هذا هو الحال في الإرادة الحرة. نحن بحاجة أيضاً إلى تمييزات مطابقة بين معاني «الاحتمالية».

أسباب الأفعال البشرية تختلف بشكل جوهري عن أسباب الأفعال غير البشرية، فعند توفر جميع أسباب حدوث انفجار ما فإنه يصبح من المستحيل على أية قوة في هذا العالم منع حدوث الانفجار، ولكن إذا أعطيتك أسباباً كافية لإظهار الفرح والابتهاج فإن هذا لا يعني أن إقامة الاحتفال أصبح ضرورياً. ويترتب على هذا أنه ليس كل حركة إنسانية يمكن إرجاعها بشكل كامل إلى أسباب فيزيائية. يمكن التمييز بين معنيين للفظ «السبب» من خلال استخدام مصطلح هيوم في الأسباب المادية والمعنوية، فعندما نتحدث بشكل كامل عن أحداث غير بشرية -الكسوف على سبيل المثال- فإننا نستخدم كلمة السبب بالمعنى الذي يتضمن الضرورة الفيزيائية والاستحالة الفيزيائية (أي: ما حدث كان يجب أن يحدث، وعدم حدوثه مستحيل)، ولكن هذا بالتأكيد ليس الحال عندما نتكلم عن الأسباب أو الدوافع في حالة الأفعال البشرية.

لنستخدم المثال السابق، أفترض أنني أخبرتك بأخبار مفرحة، فإذا كان رد فعلك هو الابتهاج فإن من المحتمل جداً أن تصف إخباري لك بهذه الأخبار بأنه سبب

لابتهاجك، ولكنني في الواقع لم أكن سبباً في ابتهاجك، فهو لم يكن ضرورياً وكان بالإمكان تجنبه، فقد تقرر أن لا تبتهج لأنك قد تكون حينها في المكتبة، وبعبارة أخرى: قد يكون نقلي لك أخباراً مفرحة دفعك للابتهاج، ولكنني أيضاً لم أمنعك من أن تبكي، ولنستخدم تعبير الفيلسوف الرياضي ليبنيز Gottfried Leibniz «أسباب هذه اللحظة ترجح ولا تحتم».

ربما رفض هيوم مفهوم الحتمية المادية لأنه لم يكن قادراً على التمييز بين النوعين اللذين أشرنا إليهما هنا، ومع ذلك فإن طريقة هيوم في التصنيفات تؤشر إلى الفرق الجوهرية بين العلوم الطبيعية من جهة، وبين العلوم الاجتماعية والنفسية من جهة أخرى.

إعتماداً على الفرق الجوهرية في الاستخدامين للفظ «السبب»، يصبح من الواضح - على الأقل أننا عندما نتحدث عن السلوك البشري- فإننا نحتاج إلى التمييز المطابق بين معنيين مختلفين جوهرياً للحتمية: الحتمية الناتجة عن الأسباب الفيزيائية، والحتمية الناتجة عن الأسباب المعنوية. من المؤكد أنه إذا كان هناك سلوك ما يتحقق بنظام الأسباب الفيزيائية فإن فاعل السلوك لم يكن حراً في هذا السلوك، ولم يكن بمقدوره أن يمنعه من الحدوث. من المؤكد أن الفشل في تشخيص هذه التمييزات، سوف يضل الكثير من الناس، وسوف يقودهم للاستنتاج بأن تفسير وقوع حدث ما بأسباب فيزيائية أو معنوية يؤيد مبدأ الحتمية الكونية الفيزيائية<sup>(1)</sup>، وهذا يعني أنه كان من المستحيل على أي فاعل أن يسلك خلاف السلوك الذي صدر عنه.

---

(1) يقصد بذلك حتمية جميع حوادث الكون الشاملة لأفعال الإنسان الاختيارية.

ما نحتاجه لتجنب مثل هذه الأخطاء (كما فعلت في كتاب «الحياة الاجتماعية» و«الحكم الأخلاقي») هو التحليل المنطقي لثلاثة ألفاظ: الفاعل، حرية الاختيار، والقدرة على إختيار غير ما اخترناه في الواقع. عندما نستطيع التمييز بين التحركات movings والحركات motions فإنه يمكننا أن نفسر تصور الحركة. التحرك moving هو حركة يتم القيام بها اختياريًا، أما الحركة motion فهي حركة لا يمكن تجنب القيام بها، فالقدرة على التحرك هي خاصية للبشر فحسب، أما الكيانات التي لا تمتلك الإدراك والقصد فإن ما تقوم به هو مجرد حركة . motion

الفاعلون هم المخلوقات القادرة على حرية الاختيار في أن تفعل أو لا تفعل: الاختيار بين عدة بدائل للفعل أو عدم الفعل وهي البدائل التي تتغير من وقت لآخر حسب الظروف، والفاعلون -من خلال دورهم كفاعلين- وليس بوسعهم تجنب الاختيار بين بديلين أو أكثر من البدائل المتاحة لهم في وقت الحدث.

التمييز الحاسم بين التحركات المتضمنة في الفعل، والتحركات التي تشكل السلوك الضروري، وبين السلوك الذي يستلزم السلوك الحتمي. يترتب على ذلك استحالة القول بالاحتمية الفيزيائية الحاكمة على الكون، بما في ذلك حركة جسد الإنسان، فالتحركات بالإضافة إلى الحركات هي محكومة بأسباب فيزيائية حتمية.

عطفًا على تراجعني عن القول بالتوافقية الكاملة، فإن الكثير مما كتبت عن الإرادة الحرة أو الاختيار في سياق العلماني أو الديني يحتاج إلى تعديل وتصحيح، ولكون هذا الأمر يتعلق بالسؤال الثاني ضمن أسئلة كانت الفلسفية الأساسية: «الإله والحرية والخلود» فإن تغيير قناعاتي بشكل جوهري في هذا الشأن يماثل التغيير الجوهري لوجهة نظري في السؤال الأول عن الإله.

الفصل

الثالث

إعادة النظر في الإلحاد

Atheism Calmy Considered



## إعادة النظر في الإلحاد Atheism Calmy Considered

كان جورج هيرمن روث George Herman Ruth أفضل لاعب في الدوري، وكان في بدايته أفضل ضارب، وبعد ذلك أصبح لاعب وسط يسجل ٢٩ هدفاً في المباراة الواحدة، وفي الوقت نفسه لعب في مركز الضارب في ١٧ مباراة، وكان ذلك في عام ١٩١٩. بعد ذلك باع مالك نادي بوستون هاري فريزي Harry Frazee -الذي قيل في وقتها إنه يحتاج للأموال- باع روث إلى نادي نيويورك مقابل ١٢٥,٠٠٠ دولار. قاد روث نادي نيويورك للبطولة الأمريكية في سبعة مواسم، وقاده أيضاً أربع مرات لبطولة العالم، ولم يستطع نادي نيويورك أن يحصل بعدها على البطولة إلا في عام ٢٠٠٤، أي بعد خمس وثمانين سنة.

من المثير أن عام ٢٠٠٤ كان العام الذي أعلنت فيه في نيويورك أيضاً تحولي إلى التوحيد بعد أكثر من ستة عقود من الإلحاد، حيث أعلنت أنني غيرت «فريقي» إن صح التعبير، ولكنني بدأت أيضاً أنظر إلى الأمور من زاوية أخرى، لأنني كنت لا أزال أمارس نفس «اللعبة» بنفس الحماس والمبادئ كما كنت في السابق.

## واجب تجاه الحوار

### A Duty To Dialogue

---

توجتُ رحلتي نحو التوحيد بنشر كتاب «فرضية التوحيد» The Presumption of Atheism، وفي كتاباتي اللاحقة تناولت عدة مواضيع بشكل مختلف تماماً. في الواقع إنني كتبت في مقالة نُشرت ضمن كتاب صدر في عام ١٩٨٦ تحت عنوان «الفلسفة البريطانية اليوم» British Philosophy Today بينت فيها أنني أرغب بعمل أشياء أخرى إن سمح لي الوقت بذلك.

أود على سبيل المثال أن استكشف النزاعات التاريخية الكبيرة حول هيكل الثالوث<sup>(١)</sup> Structure of the Trinity وحوّل ما يجري في القربان المقدس<sup>(٢)</sup> Eucharist. مع ذلك، وبحلول أواخر الستينات من القرن الماضي أصبح واضحاً لي أن الحاجة لجهود ماسّة في مكان آخر. كنت على قناعة بأن عليّ في بقية حياتي تركيز طاقاتي في المجالات العلمية الشاملة مثل فلسفة العلوم الاجتماعية والفلسفة الاجتماعية.

بما أنني قلت الكثير حول فلسفة الدين خلال سنوات طويلة، فأجد نفسي ملزماً من الناحية الفكرية بأن أرد على أي أنتقاد قدر الإمكان، إما بالاعتراف بأنني كنت مخطئاً أو ببيان سبب عدم إتفاقي مع منتقديّ، ولذلك أستمررت في النقاش مع المدافعين عن التوحيد الذين أستمرروا هم أيضاً في نقد وتحدي أفكارني

---

(١) العقيدة المسيحية في الثالوث.

(٢) أحد الأسرار السبعة المقدسة في الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية، وهو تذكير بالعشاء الذي تناوله يسوع بصحبة تلاميذه عشية آلامه.

حتى بعد إنتقالي إلى مواضيع فلسفية أخرى، ولم يكن هذا التحدي شيئاً جديداً بالنسبة لي.

في الواقع لقد أمضيت مسيرتي الفلسفية كلها في حوارات حماسية ونقاش عام مع مفكرين يختلفون معي في العديد من المواضيع التي تتراوح ما بين الفلسفة الاجتماعية، ومشكلة البدن-العقل، ومشكلة الإرادة الحرة-الاحتمية فيما يتعلق بوجود الإله. لقد أستغرق النقاش في هذه المواضيع أكثر من نصف قرن من حياتي الفكرية.

في عام ١٩٥٠، سمعت لتحديد ماذا يُقصد بالقول «إن الإله يحبك»؟ وفي عام ١٩٧٦ حاولت أن أوضح «هل مفهوم الإله متماسك؟»، وفي عام ١٩٨٦ كنت أحاول أن أحدد على من يقع عبء تقديم الدليل؟ وفي عام ١٩٩٨ كنت أناقش تداعيات الانفجار الكوني الكبير. خلال كل ذلك، لم يساعد إشتراك في المناظرات والنقاشات اللاهوتية على تقوية آرائي فحسب، بل أتاح لي فرصة التعرف على العديد من الزملاء والخصوم الذين يستحقون الاحترام رغم اختلافهم.

## الاحتفاظ بأسلحتي

### Sticking to My Guns

---

من بين كل المناظرات التي شاركت فيها، كانت هناك مناظرتان في عامي ١٩٧٦، ١٩٩٨ أعتبرهما الأفضل، الأولى مناظرة عام ١٩٧٦ مع توماس وارن Thomas Warren في مدينة دينتون بولاية تكساس، حيث كان الحضور ولعدة أيام يتراوح ما بين خمسة إلى سبعة الآلاف متابع، أما مناظرة عام ١٩٩٨ فكانت مع وليام لين كريغ William Lane Craig في مدينة مديسون في ولاية ويسكنسن، وكان الحضور يقدر بأربعة الآلاف. فقط في هاتين المناظرتين لعبت دور البطل في مناظرة عامة.

تُعد المناظرات في المملكة المتحدة عادة بحضور أكاديمي قليل، لذا كانت تجربتي الأولى في مواجهة جمهور كبير كمناظرة في مواجهة البروفيسور الراحل الفيلسوف المسيحي توماس وارن Thomas B. Warren، وقد عقدت المناظرة في جامعة شمال تكساس، في مدينة دينتون، على مدى أربعة ليالي متتالية، بداية من ٢٠ سبتمبر من عام ١٩٧٦، وهو التاريخ الذي تزامن مع المناظرة الرئاسية الأولى بين جيمي كارتر Jimmy Carter وجيرالد فورد Gerald Ford.

أمام جمهور متحمس، قدم البروفيسور ورن مجموعة مؤثرة من الرسوم واللوحات التوضيحية، والمثير أن جزءاً كبيراً من محاضراته ذهب للهجوم على نظرية التطور Theory of evolution، والتي كانت بالنسبة لي في ذلك الوقت مشروعاً غير مألوف، وعندما سألتني البروفيسور ورن عما إذا كنت أعتقد بأن هناك موجوداً نصف قرد ونصف إنسان كان ردي بأن ذلك يشبه السؤال عما إذا

كان شخص ما أصلاً أم لا. كان رأس المشرف على رسالتي في الدكتوراة غلبت رايل يشبه البيضة (لم يكن على رأسه أية شعرة)، وليس هناك شك بأن أي شخص لابد أن يقول إنه أصلع، ولكن ليس من السهل تعريف من هو الأصلع ومن هو غير الأصلع.

ومع ذلك، وأخذاً للآرائي الحالية بالاعتبار، ربما يكون عدد قليل من عباراتي الإخبارية<sup>(١)</sup> Declarative statements (الجملة التي ليست سؤال أو أمر أو إستفهام) في تلك المناظرة مهماً في توضيح قوة أعتقاداتي الإلحادية في هذه النقطة من قبيل:

«أنا أعرف أنه ليس هناك إله»

«منظومة الاعتقاد المتعلقة بالإله» تتضمن «نفس التناقض» الموجود في «الأزواج غير المتزوجين أو المربعات الدائرية».

«أنا أميل إلى الاعتقاد بأن الكون لا بداية له وسيظل دون نهاية، وفي الحقيقة أعتقد أنه لا جدوى من تحدي أي من هذين الاعتقادين».

«أعتقد أن الكائنات الحية تطورت على مدى فترة طويلة لا يمكن حسابها من مواد غير حية».

لقد تأثرت بالاستقبال الحافل من قبل المستضيفين، ولكن المناظرة أنتهت بتمسكي وتمسك ورن بأسلحتنا.

---

(١) العبارات الإخبارية هي العبارات التي تحتمل الصدق أو الكذب، وتأتي في مقابل العبارات الإنشائية التي تنطوي على سؤال أو أمر أو استفهام...إلخ، ولا تحتمل في ذاتها الصدق أو الكذب، إلا إذا تم تحويلها إلى عبارات إخبارية.

## إطلاق نار على زريبة

Shooting at the O.K. CORRAL<sup>(1)</sup>

---

كانت مناظرتي التالية بعد عشرة سنوات من تلك المناظرة، وكانت أيضاً في تكساس، وعقدت في دالاس في عام ١٩٨٥، وقد شعرت بأن الوضع يبدو كإطلاق النار المشهور على زريبة O.K. أشترك معي في المناظرة ثلاثة من مشاهير الملحدين: والالس ماتسون Wallace Matson وكي نلسن Kai Nielsen وبول كيرتز Paul Kurtz، وقد واجهنا مجتمعين مجموعة من كبار الفلاسفة اللاهوتيين: ألفن بلانتنغا Alvin Plantinga ووليام أليستون William P. Alston وجورج مافرودس George Mavrodes ووالف ماكنيري Ralph McInerny.

على عكس المعارك المشهورة، لم تشهد هذه المناظرة أية ألعاب نارية لأن كلا الفريقين لم يرغب بجذب الإنتباه لخصمه، وكلا الفريقين تمسك برأيه بأن مهمة تقديم الدليل تقع على عاتق الطرف الآخر. أعتبرت أن تقديم الدليل هي مسؤولية المدعي، وليس مسؤولية المنكر، أما على الطرف الموحد فإن بلانتينغا أصر على أن الإيمان بالإله أمر أساسي، وهو ما يعني أن الموحدين ليسوا ملزمين بتقديم الحجج على صحة ادعائهم، كما أنهم ليسوا ملزمين بتقديم حجج على إعتقادات أساسية مثل وجود العالم، أما في جانبنا الملحد، فإن نلسون جادل بأن فلسفة الدين مملة، في حين أعتبر ماتسون بأن الحجج التقليدية على وجود الإله معيبة، أما كيرتز فادعى أنه من غير الممكن استنتاج وجود موحى مقدس إعتقاداً على الادعاء بوجود وحي مقدس.

---

(١) قصة تصور تبادل إطلاق النار بين أحد رعاة البقر الخارجين عن القانون وبين رجال الشرطة قرب زريبة خيول في الريف الأمريكي، وتم إنتاج فيلم بنفس أسم هذه القصة.

بينما كنت في دالاس، قابلت إثنين من فلاسفة المسيحية الإنجيلية، وهما تيري ميثي Terry Miethe، وهو يعمل في مركز دراسات أكسفورد، وغاري هيبرماس Gary Habermas من كلية لينجبيرغر Lynchburg بولاية فرجينيا، واللذين أصبحا صديقايّ منذ ذلك الوقت.

في السنوات التي تلت ذلك نُشرت لي مناظرتان، الأولى عن قيامة المسيح مع هيبرماس، ومناظرة أخرى عن وجود الإله مع ميثي. من جهتي -في مناظرتي مع ميثي- أعدت تأكيد مجموعة من مواقف التي طورتها خلال سنوات عن إنسجام تصور الإله وفرضية الإلحاد، أما ميثي فقدم نسخة رائعة من الحجة الكونية المبنية على المقدمات التالية:

بعض الكائنات المتغيرة بنحو محدود، موجودة.

الوجود الحاضر لكل كائن متغير بنحو محدود، ناتج عن آخر.

لا يمكن أن يكون هناك تسلسل (تراجع) لا نهائي لأسباب الكائنات، لأن التسلسل اللانهائي للكائنات المتناهية لن يكون «سبباً» لوجود أي شيء.

إذاً، يوجد سبب أول للوجود الحاضر لهذه الكائنات.

السبب الأول يجب أن يكون لا متناهياً، ضرورياً، خالداً، وواحداً.

السبب الأول الذي لا سبب له، متطابق مع إله التقليد اليهودي-المسيحي.

هذه الحجة لا تستند إلى مبدأ العلة الكافية Sufficient reason<sup>(١)</sup> - الذي رفضته، وإنما تستند إلى مبدأ السببية الوجودية. رفضت هذه الحجة على أساس أن الأسباب الفاعلة في الكون تكون فاعلة بذاتها دون الحاجة إلى علة فاعلة أولى.

---

(١) العلة الكافية قضية أو مجموعة قضايا معروف أنها صادقة، منها يمكن اشتقاق النتيجة منطقياً

مع ذلك، قلت إنه رغم صعوبة الاعتقاد بالوجود المستمر للكون الفيزيائي - وهو ما يحتاج إلى تفسير خارجي-، فإن من السهل اقناع العامة بأن الانفجار الكبير يستلزم وجود علة أولى.

## الاستمرار بسرعة

### Holding Fast

في الوقت الذي كنت أقوم فيه بالتدريس عام ١٩٨٠، في جامعة بولنج غرين Bowling Green بولاية أوهايو كانت لي مناظرة طويلة مع ريتشارد سوينبيرن، وهو كما ذكرت سابقاً بأنه خلفني في جامعة كييل، وبعد ذلك أصبح استاذاً في أكسفورد.

أصبح سوينبيرن أشهر مدافع عن التوحيد في الدول الناطقة بالإنكليزية، وقد أشاد أحد زملائي السابقين من التيار الشكي ترنس بينلهم Terence Penelhum بكتاب سوينبيرن وهو بعنوان «إساق التوحيد» The Coherence of Theism بقوله «أنا لا أعرف أي دفاع ضد الفلسفة الشكية المعاصرة يمكن مقارنته من حيث النوعية والوضوح في الفكر». أحد التصورات التي دافع عنها سوينبيرن بقوة هو تصور روح غير مادية عالمة بكل شيء، - وهو أحد أهم التصورات التي تناولتها في كتاب «الإله والفلسفة» - وكما هو الحال في مناظرتي مع بلانتينغا فإن مناظرتي مع سوينبيرن أنهت إلى طريق مسدود حيث تمسك كلانا بموقفه، ولم أجد أي مبرر لتصوير روح غير مادية، بينما لم يجد سوينبيرن مبرراً لأي شخص في رفض تلك الفكرة. لم تنته حواراتي مع سوينبيرن إلى هذا الحد كما سيتضح لاحقاً في هذا الكتاب، بل استمرت إلى اليوم (وبالمناسبة فعندما أنتشر خبر تحولي إلى التوحيد علق بلانتينغا على ذلك بالقول «إن هذا يدل على إخلاص البروفيسور فلو، فهو بعد كل هذه السنين من معارضة فكرة الخالق، ها هو يغير موقفه استناداً إلى الدليل»).

تلت المناظرة مع سوينبرن مناظرة أخرى مع وليام لين كريغ William Lane Craig في عام ١٩٩٨ في ميدسون بولاية ويسكنسون، وقد عقدت المناظرة بمناسبة الذكرى الخمسين لمناظرة محطة الإذاعة البريطانية البي بي سي BBC الشهيرة بين برتراند رسل وفريدريك كوبلستون Frederick Copleston.

جادل كريغ بأن أصل الكون والنظام المعقد فيه يمكن تفسيره بأفضل نحو بوجود إله، وقد قمت بالرد عليه بأن معرفتنا عن الكون يجب أن تتوقف عند الانفجار الكبير، والذي ينبغي رؤيته على أنه الحقيقة النهائية Ultimate fact، أما ما يتعلق بحجة التصميم فأشرت إلى أنه حتى أعظم الكيانات تعقيداً في الكون - البشر - هي نتاج قوى فيزيائية وميكانيكية.

في هذه المناظرة كررت موقفي من أن الإله الذي هو على كل شيء قدير، يمكن أن يجعل البشر يختارون طواعية، وهذا يعني أن الدفاع التقليدي عن الإرادة الحرة لا يستطيع تجنب ما يترتب على ذلك من أن الإله حدد مصير كل الأشياء بما فيها الاختيارات الحرة.

كنت أرفض على الدوام الاعتقاد بفكرة المصير المسبق والتي تنص على أن الإله حتم الخطيئة على معظم البشر. من خصائص هذه المناظرة رفض كريغ لأفكار المصير المسبق التقليدية ودفاعه عن الإرادة الحرة الليبرالية. ذهب كريغ إلى أن الإله يتدخل مباشرة في النتائج (المُسببات) ولا يتصرف كعامل ثانوي، ولذلك فقد كان من المستحيل أن يخلق الإله عالماً مكوناً من كائنات حرة دائماً تفعل الأمر الصائب، واستشهد كريغ بنصوص من الإنجيل تؤكد على رغبة الإله في أن يعيش كل الناس بأمان.

حديثاً، وجدت أن جون ويسلي John Wesley - والذي اعتبره أحد أعظم أبناء بلدي - قاد حملة ضد فكرة المصير المسبق وتأييداً للبديل «الأرمني»<sup>(١)</sup> Arminian alternative، وخصوصاً في ورقته البحثية العظيمة «إعادة النظر بهدوء في المصير المسبق». أتفهم أن يعتبر بعض المفسرين اليوم أن كتابات القديس بول St. Paul في فكرة المصير المسبق كمرجعية لدور أفراد خاصين في أعمال الكنيسة وليس إلى خلاصهم أو هلاكهم.

---

(١) تعني عودة المسيح.

## ظهوري الأول في نيويورك

### My New York Debut

---

المناظرة العمومية الأخيرة لي كانت في ندوة في جامعة نيويورك، وتمت في مايو من عام ٢٠٠٤، وكان المشاركون الآخرون هم العالم الإسرائيلي جيرالد شرويدر Gerald Schroeder مؤلف أفضل الكتب مبيعاً في مجال العلم والدين وهو بعنوان «علم الإله» The Science of God، وكان من ضمن المشاركين أيضاً الفيلسوف الأسكتلندي جون هالدين John Haldane، والذي كان مشاركاً في مناظرة «التوحيد والإلحاد» حول وجود الإله إلى جانب صديقي جاك سمارت Jack Smart.

وكمفاجأة لجميع المهتمين، أعلنت في البداية أنني الآن أقبل بوجود الإله. ما أعتبر في وقته تبادلاً حاداً لوجهات النظر المتعارضة أثناء المناظرة أنهى إلى أن يصبح بحثاً مشتركاً في التطورات العلمية الحديثة التي يبدو أنها تشير إلى ذكاء خارق. في الفيديو الذي عُرض في الندوة، أدعى عريف الندوة أن الإله هو أعظم إكتشافات العلم الحديث، وعندما سُئلت في هذه الندوة إن كان بحثي حول أصل الحياة يشير إلى ذكاء إبداعي، أجبت بالقول: «نعم، أنا الآن أعتقد بذلك... بشكل شبه كامل بسبب إكتشافات الحمض النووي DNA. ما قدمه إكتشاف الحمض النووي أوضح التعقيد الشديد غير القابل للتصديق للترتيبات اللازمة لخلق حياة، وهو الأمر الذي يوجب أن يكون هناك ذكاء خارق يجعل هذه العناصر المختلفة تعمل معاً. إنه التعقيد الخارق لهذه العناصر والدقة الهائلة في الطرق التي تتفاعل فيما بينها، واجتماع هذين الأمرين في الوقت المناسب بالصدفة هو ببساطة أمر

مستحيل، فلا بد من أن الأمر يتعلق بتعقيد هائل أنتج ما وصلنا إليه، وهو ما بدا لي أنه نتاج ذكاء».

هذا التصريح مثل بالطبع تغيراً كبيراً بالنسبة لي، ولكنه مع ذلك كان يتسق مع المبدأ الذي تبنيته منذ بداية مسيرتي الفلسفية في إتباع الحجة حيثما قادتني. لقد تأثرت بشكل خاص بالتنفيذ المفصل الذي قام به جيرى شرودر Gerry Schroeder لما أسميته «مبرهنة القرد» monkey theorem، وهي الفكرة التي قُدمت بطرق مختلفة كرد على القائلين باحتمال حدوث الحياة بالصدفة مستخدمين تشبيه قيام مجموعة من القردة بالعبث على لوحة مفاتيح الكمبيوتر لينتج في النهاية قصيدة السونيتة لشكسبير. أشار شرودر في البداية إلى تجربة قام بها المجلس الوطني البريطاني للفنون، حيث تم وضع كمبيوتر في قفص بداخله ستة قرود، وبعد شهر من العبث به بالإضافة لاستخدامه كمرحاض أنتجت القرود خمسين صفحة مكتوبة ولكن دون كلمة واحدة! وقد علق شرودر بالقول: «إن هذه كانت هي النتيجة بالرغم من أن الكلمة باللغة الإنجليزية يمكن أن تتكون من حرف واحد فقط (I, a)، فالحرف A يمكن أن يصبح كلمة فقط عندما يكون هناك مسافة على يمينه ويساره، فإذا كان هناك ثلاثون حرفاً ورقماً على لوحة المفاتيح فإن احتمال الحصول على كلمة مكونة من حرف واحد هو  $30 \times 30 \times 30$  وحاصله 27,000. بعد ذلك قام شرودر بتطبيق قوانين الاحتمال Probability Rules على قصيدة السونيتة Sonnet لشكسبير، وتساءل شرودر: ما هو احتمال الحصول على قصيدة السونيتة لشكسبير؟ وأكمل قائلاً: «كل بيت من أبيات القصيدة مكون من نفس العدد من الحروف، والقصيدة مكونة من 14 بيت، وقد اخترت القصيدة التي تبدأ بجملة «Shall I compare thee to A summer's day»، وقمت بحساب

عدد الحروف فكان عددها ٤٨٨ حرفاً. ما هي إحصائية أن تعبت على لوحة المفاتيح لتكتب ٤٨٨ حرفاً بنفس تعاقب أحرف هذه الجملة؟ النتيجة هو ١٠ أس ٨٠. وهذا الرقم (١٠ أس ٨٠) هو ١ مع ٨٠ صفر بعده. ١٠ أس ٦٩٠ هو ١ مع ٦٩٠ صفر بعده. لا يوجد في الكون جسيمات كافية لتدوين المحاولات. عدد الجسيمات في الكون ليس حبات من الرمل، فنحن نتكلم عن بروتونات والكترونات ونيوترونات، إذا أخذت الكون بأكمله وحولته إلى شرائح كمبيوترية، يزن كل منها ١ من المليون غرام، وكانت قدرة كل شريحة على الاختيار من بين ٤٨٨ محاولة خلال جزء من المليون من الثانية لاختيار رقم عشوائي، فإن عدد المحاولات الناتجة منذ بدأ الزمان سوف تصبح ١٠ أس ٩٠، وببساطة لن تستطيع أبداً أن تنتج قصيدة السونيتة بالصدفة. هذا يتطلب أن يكون الكون أكبر بمقدار ١٠ أس ٦٠٠، في حين أن العالم يتوقع أن القرد يستطيع عمل ذلك<sup>(١)</sup>.

بعد أن أستمعت إلى محاضرة شرويدر Schroeder قلت له: إنه توصل بصورة مرضية وحاسمة إلى أن «مبرهنة القرد» مجرد كومة من القمامة، وأنه كان من المناسب اختيار قصيدة السونيتة كمثال لأن البعض يستخدم أعمال شكسبير أو مقطوعة موسيقية لهاملت كمثال، فإذا لم تكن المبرهنة قادرة على الصمود في قصيدة واحدة، فمن المؤكد أنه ببساطة من المستحيل القول بأن عملاً رائعاً مثل أصل الحياة حدث بالصدفة.

---

(1) Gerald Schroeder, "Has Science Discovered God?" <http://science.lenicam.com>.

## مبارزة مع دوكنز

### Dueling With Dawkins

بالإضافة إلى مناظراتي العامة، أشتركت في مناقشات جدلية كتابية متعددة، ومن الأمثلة البارزة على هذه المناقشات السجال الذي حصل مع العالم ريتشارد دوكنز Richard Dawkins، فرغم أنني كنت من الممتدحين لأعماله الإلحادية فإنني كنت أيضاً من الناقدين لجين الأنانية في مدرسته الفكرية. في كتابي «التطور الداروني»، أشرت إلى أن الانتخاب الطبيعي لا ينتج بنحو إيجابي، وأنه فقط يقوم بالتخلص أو يميل للتخلص من كل الأشياء غير القادرة على المنافسة. فتحقق التنوع في الكون ليس بحاجة لتتسبب أي مزية واقعية تنافسية لتفادي الإقصاء؛ فمن الكافي أن لا تكون تلك المزية عبئاً على حاملها وأن لا تضعف موقفه التنافسي.

لنقدم شرحاً مبسطاً، أفترضوا أنني أملك أجنحة لا فائدة منها تحت ملابسي، ولكن هذه الأجنحة من الضعف بحيث لا تستطيع رفعي عن الأرض، ولذلك فإن هذه الأجنحة لا تمكنني من الهروب من الحيوانات المفترسة ولا تمكنني من جمع الطعام، ولكنها مادامت لا تجعلني «أكثر» عرضة للحيوانات المفترسة فإنني سوف أحتفظ بها وأورثها إلى أحفادي.

خطأ دارون كان في المبالغة في تقدير حجته، حيث قال إن الانتخاب الطبيعي ينتج شيئاً ما، والمبالغة تأتي بسبب توظيفه لتعبير «الانتخاب الطبيعي» أو «البقاء للأصلح» بدلاً من تعبيره المفضل في نهاية مقالته «الحماية الطبيعية» Natural preservation. لقد ذهبت للإشارة إلى أن كتاب دوكنز «الجين الأناني» كان تدريباً رئيسياً على ممارسة التضليل الشعبي. كفيلسوف ملحد، أعتبرت أن

هذا النوع من العمل الشعبي مدمر في كل جوانبه بمثابة إما «كقرد عارٍ» أو «كحديقة حيوان بشرية» اللذان كتبهما ديسمود موريس Desmond Morris. قدم موريس في أعماله، كنتيجة لأبحاثه الحيوانية قدراً إضافياً من النفي المنهجي لفكرة أن المكونات المميزة لنا كنوع تبدو كظاهرة بيولوجية، ولكنه تجاهل الاختلاف الواضح بين البشر وبقية الأنواع.

من ناحية أخرى، أجتهد دوكنز في التقليل والانتقاص من ثمرة أكثر من خمسين عاماً من الأبحاث في مجال الجينات والتي توصلت إلى أن قسماً كبيراً من الصفات الظاهرة للكائنات الحية تتكيف نتيجة للتفاعل في ما بين مجموعة من الجينات، في حين أن معظم الجينات لها تأثيرات متعددة على هذه الصفات. يعتبر دوكنز أن الأمر الأساسي الذي ينتج السلوك البشري يعود إلى خصائص الجينات الموجودة لدى الأفراد. وبالتالي، بعد أن أصر على أننا جميعاً مخلوقات غير مختارة نتيجة لنوع جيناتنا، أستنتج دوكنز أن كل ما نستطيع فعله هو أن نتقاسم صفاتنا غير المحببة مع الكائنات أحادية الخلية.

الجينات بالطبع لا هي أنانية ولا هي غير أنانية أكثر مما هو حال بقية الكائنات غير الواعية في المنافسة أو الاختيار. (الانتخاب الطبيعي المتداول، ليس انتخاباً؛ بل هو بنحو ما حقيقة منطقية غير مألوفة، بمعنى أنه تحت المستوى البشري، الصراع من أجل الوجود ليس «تنافسياً» بالمعنى الحقيقي للكلمة). ولكن ذلك لم يمنع دوكنز من القول بأن كتابه «ليس كتاباً في قصص الخيال العلمي... إنه علم.... نحن آلات قادرة على البقاء... الروبوتات هي آلات مبرمجة بشكل أعمى للحفاظ على مكونات أنانية تعرف كجينات». ورغم أن دوكنز أنكر ذلك بعض المرات إلا أنه يُحذّر في كتابه من أخذ كلامه بصورة حرفية، وأضاف بشكل مثير

بأن حجة الكتاب العامة هي أننا -كحال بقية الحيوانات- مجرد آلات صُنعت بواسطة جيناتنا<sup>(1)</sup>.

لو كان ثمة صحة لهذا الكلام، فإنه لا حاجة للاستمرار في النقاش، كما فعل دوكنز بالتبشير بالقول «دعونا نتعلم الكرم والإيثار لأننا ولدنا أنانيين»، لا بلاغة بمقدورها تحريك الروبوتات، فالجينات كما نشاهد لا تجعل أعمالنا حتمية، ولا هي قادرة على حساب وفهم متطلبات التصرف بأنانية مفرطة أو برحمة مضحية.

أعتزل بيبي روث كرة القدم الأمريكية في عمر الأربعين، وها أنا الآن لي ضعف عمره؛ في الثمانين من عمري، ورغم أنني غيّرت موقفي المتعلق بوجود إله، إلا أنني آمل أن يكون دفاعي عن الإلحاد ومناظراتي مع الموحدين والآخرين قد أوضحها اهتمامي الدائم بالأسئلة اللاهوتية واستعدادي لمواصلة البحث عن إجابات متعددة. ليقُلّ المحللون والأطباء النفسيون ما يشاؤون، ولكن «الجنين» الذي في داخلي سوف يظل كما كان، يسعى دوماً إلى الحجج السليمة والاستنتاجات الصحيحة، وأتمنى أن يتم التعامل معي بنفس القدر من الشغف والمبدئية التي كنت عليها دائماً. في الجزء الثاني من الكتاب سوف أعرض لموقفي الحالي والأدلة التي قادتني للتمسك به.

---

(1) Richard Dawkins, *The Selfish Gene* (New York: Oxford University Press, 1976), x.



القسم الثاني

اكتشافي للمقدس



الفصل  
الرابع

حج العقل  
Pilgrimage of Reason



## حج العقل Pilgrimage of Reason

لنبدأ بمثال، تخيل أن هاتفاً مرتبطاً بقمر صناعي سقط على ساحل جزيرة نائية تسكنها قبيلة لم يكن لها أي إتصال مع الحضارة الحديثة. يبدأ أبناء القبيلة بالعبث بالأزرار الموجودة على سطح الهاتف وعندما سمعوا أصواتاً مختلفة عند الضغط على تسلسل معين للأرقام. في البداية سوف يفترضون أن الهاتف هو من يصدر هذه الأصوات، أما أبناء القبيلة الأذكىاء ولنقل علماء هذه القبيلة فأعادوا الضغط على نفس تسلسل الأرقام وعندما سمعوا الصوت نفسه، وحينها يكون الاستنتاج لديهم واضحاً، فهذا المركب الذي يتكون من بلورات ومعادن ومواد كيماوية يصدر صوتاً يشبه صوت الإنسان، وهذا يعني ببساطة أن هذه من خصائص الهاتف.

لكن مجلس حكماء القبيلة أجمع لمناقشة الأمر. وبعد نقاش طويل وعاصف للموضوع يتوصلون إلى نتيجة مفادها: أن الأصوات التي تصدر من الجهاز يجب أن تكون أتية من أناس مثلهم، وهؤلاء الناس أحياء ويتمتعون بالوعي ولكنهم يتكلمون لغة أخرى. بدلاً من افتراض أن الأصوات تأتي من سماعة الهاتف فإن عليهم استكشاف إمكانية أنهم ومن خلال شبكة إتصالات غامضة يستطيعون التواصل مع أناس آخرين، ويتمكنوا من الوصول إلى فهم أكبر للعالم الذي يتجاوز جزيرتهم. لكن علماء القبيلة ضحكوا أمام حكيم القبيلة قائلين: «إذا كسرنا هذه الأداة فإن الأصوات ستتوقف، وهذا يعني بوضوح أن هذه الأصوات ليست سوى أصوات تصدر من خليط من الليثيوم وشريحة طباعة أرقام وصمامات ثنائية باعثة للضوء.

في هذا المثال، نرى كيف أن النظريات المسبقة تشكل الطريقة التي نرى بها الدليل بدلاً من أن ندع الدليل يشكل نظرياتنا، وعندها يمكن أن نتجنب القفزة الكوبرنيكية (نسبة إلى كوبرينكس<sup>(١)</sup> (Nicolaus Copernicus)، من خلال ألاف من أفلاك التدوير البطلمية<sup>(٢)</sup>)، وهنا كما يبدو تكمن الخطورة والشر المستشري للإلحاد العقائدي. تأمل في كلام مثل «علينا أن لا نطلب تفسيراً للكيفية التي وُجد بها العالم، إنه موجود وكفى» أو «بما أننا لا نستطيع قبول مصدرا متعالين للحياة فإننا نختار أن نؤمن باستحالة: إنبثاق هذه الحياة فجاءة بطريق المصادفة من المادة»، أو أن «القوانين الفيزيائية هي قوانين اللاقوانين التي ظهرت من فراغ-وانتهى النقاش».

في البداية، قد تبدو هذه العبارات كحجج منطقية لها صلاحية خاصة لا حاجة لمناقشتها، ولكن بالتأكيد فإن ذلك ليس أكثر من أن تكون إشارة إلى أن هذه العبارات إما أنها عقلانية وإما أنها حجج. لكي نقدم حجة عقلانية بأن شيئاً ما كذا وكذا، فإن من الضروري تقديم الأسباب التي تدعم ذلك. ولكن لنفترض أننا نشك بأن هناك ثمة ثغرة في هذا الكلام، أو لنكن أكثر تطرفاً فنقول أن لدينا شك بأن كل ما قيل له أي قيمة أصلاً. كمحاولة لفهم ما يقصده هؤلاء علينا أن نحاول إيجاد الدليل الذي يؤكد حقيقة ما يزعمون.

لأن هذا الكلام إذا كان عقلانياً وحجة، فلا بد من تقديم الأسباب التي تؤيده من الناحية العلمية أو الفلسفية. وأيضاً لا بد من تقديم ما يمكن إعتباره ضد

---

(١) نيكولاس كوبرينكس: أول من صاغ نظرية مركزية الشمس وكون الأرض جرمًا يدور في فلكها في كتابه «في ثورات الأجواء السماوية»

(٢) المدافعون عن نظرية بطليموس بأن الأرض مركز الكون والرافضين لنموذج كوبرينكس الشمسي عن طريق استخدام تصور أفلاك التدوير للأعتراض على ملاحظة حركة الكواكب التي تتعارض مع نموذجهم.

هذا الكلام أو تقديم ما يمكن أن يقنع المعارض بالانسحاب والاعتراف بأنه كان مخطئاً. ولكن إذا لم يُقدم أي دليل أو سبب في صالحه، فإنه ليس هناك ما يدعونا للقول بأن هذا الكلام حجة عقلانية.

عندما يقول حكيم القبيلة للعلماء بأن عليهم أن يستكشفوا جميع أبعاد الدليل فإنه يريد أن يقول أن الفشل في استكشاف ما يعتبر لأول وهلة منطقياً ومقبولاً يعيق بطبيعة الحال فهماً أفضل للعالم الذي يتجاوز الجزيرة التي تسكنها هذه القبيلة. غالباً ما يبدو للناس غير الملحدون كما لو لم يكن هناك دليلاً مقبولاً يقنع الملحدون أصحاب التفكير العلمي الجزمي ليكون علة كافية للقول «قد يكون هناك إلهاً في نهاية المطاف». ولذلك فأنا أسأل زميلي السابق الملحد السؤال المركزي البسيط: «ما الذي ينبغي أن يحدث أو يجب أن يحدث لكي تعتبره على أقل تقدير سبباً للتفكير في وجود عقل خارق؟».

## وضع الأوراق على الطاولة

### Laying The Cards On The Table

---

لأترك المثال جانباً، لألقي أوراقى على الطاولة، وأعرض أفكارى والأسباب التى تدعم ذلك. أنا الآن أوّمن بأن الكون قد جاء إلى الوجود بواسطة ذكاء لا محدود. أنا أوّمن بأن قوانين الكون المعقدة تُبَيّن ما أسماه العلماء عقل الإله. أنا أوّمن بأن الحياة وإعادة الخلق أساسها مصدر إلهي.

لماذا أوّمن بذلك مع أنني دافعت عن الإلحاد لأكثر من نصف قرن؟ الجواب باختصار هو أن هذه هي صورة العالم التى نبعت من العلم الحديث. العلم سُلط الضوء على ثلاثة أبعاد للطبيعة وهي تشير إلى الإله.

الأول هو أن الطبيعة تخضع لقوانين.

الثاني هو بُعد الحياة في الكائنات الذكية المنظمة التي نتجت عن المادة.

الثالث هو الوجود الحقيقي للطبيعة.

ولكن ليس العلم فقط هو من قادني لذلك. ولكنني أستفدت من الدراسة

المستحدثة للحجج الفلسفية التقليدية.

إن تراجعى عن الإلحاد لم يكن بسبب أي ظاهرة أو حجة جديدة. فخلال

العقدين الماضيين كان مجمل الإطار الفكري لي في حالة تبدل. وكان هذا نتيجة

تقييمي المستمر لأدلة الطبيعة. وعندما وصلت في النهاية إلى الإيمان بالإله، لم

يكن ذلك تبديلاً للنموذج الإرشادي Paradigm Shift، فنموذجي الإرشادي مازال

على حاله، وهو كما قال أفلاطون في الجمهورية على لسان سقراط «يجب أن نتبع

الدليل حيثما ذهب بنا».

قد يتساءل شخص كيف أنني وأنا فيلسوف أتحدث في مواضيع عالجه العلماء .  
إن أفضل جواب على هذا السؤال هو بطرح سؤال آخر: هل نحن الآن بصد العلم  
أم بصد الفلسفة؟ عندما تدرس التفاعل المتبادل بين جسمين ماديين ولنقل على  
سبيل المثال اثنين من الجسيمات دون الذرية فإنك تتحدث في المجال العلمي،  
أما إذا كنت تسأل كيف ولماذا توجد هذه الجسيمات -أو أي جسم مادي- فأنت  
تتحدث حينها في الفلسفة . عندما تستنتج نتيجة فلسفية من معلومات علمية  
فأنت تفكر كفيلسوف .

## التفكير كفيلسوف

### Thinking As a Philosopher

دعونا نتطرق لهذه النظرة هنا. في عام ٢٠٠٤، قلت بأن أصل الحياة لا يمكن تفسيره إذا بدأنا بالمادة فقط. رد المنتقدون بروح المنتصر قائلين بأنني لم أقرأ قط مقالاً في مجلة علمية ولا تابعت التطورات العلمية الحديثة المتعلقة بالتولد التلقائي (التولد الذاتي من كائنات غير حية). هم بهذا النقد لم يفهموا الهدف الرئيسي من كلامي، فاهتمامي لم يكن منصباً على هذه الحقيقة أو تلك في الكيمياء أو في علم الجينات، بل كان إهتمامي منصباً على السؤال الرئيسي عن معنى أن يكون شيئاً ما حياً، وما علاقة ذلك بالحقائق الكيميائية والجينية ككل. أن تفكر على هذا المستوى، فأنت تفكر كفيلسوف. وحتى لا أبدو متواضعاً أكثر من اللازم يجب أن أقول أن هذا عمل الفلاسفة وليس عمل العلماء كعلماء. التخصص الدقيق للعلماء لا يعطيهم أية ميزة عند مناقشة هذا السؤال، بالضبط كما أن لاعب البيسبول ليس من شأنه أن يحدد أي نوع من معاجين الأسنان أفضل.

بالطبع للعلماء، وللفلاسفة، ولأي شخص الحرية الكاملة في أن يقول ما يريد. وبالتأكيد لن يتفق كل العلماء معي في تفسيري الخاص للحقائق التي يتوصلون إليها، ولكن إختلافهم معي يجب أن يقوم على قدمين فلسفيتين. وبعبارة أخرى، إذا انخرط العلماء في تحليل فلسفي، فلا سلطتهم ولا خبرتهم بوصفهم علماء، هي ذات صلة، ويجب أن يكون ذلك واضحاً. عندما يقدمون رأيهم في علم الاقتصاد مثل تقديم ادعاءات حول عدد الوظائف التي يوفرها العلم والتكنولوجيا، فإن عليهم أن يقدموا تحليلهم في إطار التحليل الإقتصادي، وكذلك العلماء الذين

يتحدثون كفلاسفة عليهم أن يطرحوا رأيهم في الإطار الفلسفي، وكما قال ألبرت أينشتاين Albert Einstein «رجل العلم هو فيلسوف ضعيف»<sup>(1)</sup>.

ولحسن الحظ أن الأمر ليس كذلك دائماً، فقادة العلم خلال مئات السنين الماضية وبعضهم من العلماء المعاصرين المؤثرين قدموا رؤية فلسفية تنبثق من عقل لاهوتي. وكذلك الحال معي، فأنا أقدم رؤيتي الخاصة عن العالم والتي أعتقد أنها قائمة فلسفياً على تفسير العديد من الظواهر التي واجهها العلماء والناس العاديين على حد سواء.

ثلاثة أبعاد من البحث العلمي كانت على وجه الخصوص مهمة بالنسبة لي، على ضوء الأدلة المتداولة اليوم. أول هذه الأبعاد هو السؤال الذي حير ولازال يحير الكثير من العلماء اللامعين، وهو من أين جاءت قوانين الطبيعة؟ والثاني هو السؤال الواضح للجميع: كيف جاءت الحياة من اللاحياة؟ والثالث وهو السؤال الذي يوجهه الفلاسفة لعلماء الكون: كيف جاء الكون - بكل ما يحتويه من أشياء مادية- إلى الوجود؟

---

(1) Albert Einstein, Out of My Later Years (New York: Philosophical Library, 1950), 58.

## عودة الحكمة

### A Recovery Of Wisdom

---

بناءً على موقفى الجديد من نقاش الفلسفة التقليدية حول وجود إله، فإن أكثر ما أقتننى هو حجة الفيلسوف ديفيد كونوى David Conway المؤيدة لوجود إله فى كتابه «عودة الحكمة: من هنا إلى البحث عن الحكمة» .The Recovery of Wisdom: From Here to Antiquity in Quest of Sophia كونوى فيلسوف بريطانى مميى فى جامعة ميدلسيكس Middlesex، وهو معروف بالخصوص فى مجالى الفلسفة التقليدية والحديثة معاً. الإله الذى ندافع أنا وكونوى عن وجوده هو الإله الذى تحدث عنه أرسطو، فقد كتب كونوى قائلاً:

«وخلصه القول، إن أرسطو حدد الصفات التالية للكائن الذى يفسر وجود العالم بمعناه الواسع،: الثبات، غير مادي، على كل شيء قدير، بكل شيء عليم، يتصف بالوحدانية، غير قابل التجزئة، يتصف بالخير المطلق ووجوب الوجود. هناك تشابه عجيب بين هذا الصفات وبين تلك الصفات التى ذكرت للإله فى التقليد اليهودي-المسيحي.

وهذا ما يبرر قولنا بأن أرسطو كانت لديه نفس فكرة الإله كمُسبب للوجود وهو نفسه الإله الذى يستحق العبادة فى هاتين الديانتين»<sup>(1)</sup>.

وكما يرى كونوى، فإن الأله الذى تؤمن به الأديان التوحيدية له نفس صفات الأله الذى يؤمن به أرسطو. فى كتابه، يحاول كونوى الدفاع عما أسماه التصور

---

(1) David Conway, The Rediscovery of Wisdom (London: Macmillan, 2000), 74.

التقليدي للفلسفة. وهذا التصور يرى أن تفسير وجود العالم ينبثق من أن الإله كَلِّب القدرة وكَلِّب العلم خلق هذه العالم لكي يوجد ويستمر وجود الكائنات العاقلة عليه<sup>(١)</sup>.

خلق الإله الكون من أجل أن يخلق جنس الكائنات العاقلة. يعتقد كونوي وأنا أشاركه في ذلك أنه من الممكن معرفة وجود وطبيعة هذا الإله الأرسطي عن طريق التجربة دون الحاجة إلى استدلال بشري.

لابد أن أؤكد على أن اكتشافي للألوهية مرّ عبر مستوى طبيعي صرف، دون الرجوع إلى أية ظواهر غير طبيعية (خارقة). لقد كان إكتشافي للإلوهية عبارة عن ممارسة ما يسمى باللاهوت الطبيعي<sup>(٢)</sup>، وليس له علاقة بأي نوع من أنواع الوحي الديني. وأنا لا أدعي أنه حصلت لي أية تجربة شخصية مع الإله أو أية تجربة يمكن اعتبارها إعجازية أو غير طبيعية. باختصار، أكتشافي للألوهية كان عبارة عن رحلة عقل وليست رحلة إيمان.

---

(1) Conway, The Rediscovery of Wisdom, 2-3.

(٢) التوحيد المبني على الدليل العقلي



الفصل  
الخامس

من كتب قوانين الطبيعة؟  
Who Wrote Laws of Nature



## من كتب قوانين الطبيعة؟ Who Wrote Laws of Nature

لعل أكثر الحجج الداعمة لوجود الإله شهرة وقبولاً من الناحية الحدسية ما تسمى بحجة التصميم Argument from design. وفقاً لهذه الحجة فإن التصميم الواضح في الطبيعة يدل على وجود مصمم للكون. كثيراً ما أكدت على أن الحجة الغائية تتبثق في الواقع من حجة النظام، لأن هذه الحجة مستمدة من النظام المشاهد في هذا العالم، ومن خلال التصميم نتعرف على المصمم. على الرغم من أنني كنت منتقداً للحجة الغائية فإنني منذ ذلك الوقت بدأت أقتنع بأنه إذا ما تم صياغة هذه الحجة بطريقة صحيحة فإنها تمثل حجة مقنعة لإثبات وجود إله. التطورات التي حدثت في مجالين بالخصوص جعلتني أغير وجهة نظري. الأول هو السؤال عن أصل قوانين الطبيعة والأفكار ذات الصلة بالعلماء البارزين، أما المجال الثاني فهو السؤال عن أصل الحياة والتكاثر.

ماذا أعني بقوانين الطبيعة؟ ببساطة أنا أعني بالقانون الإطار والتمائل في الطبيعة. بعض أمثلة الكتب الدراسية قد توضح ما أقصد:

ينص قانون بويل على أن حجم عينة غازية عند درجة حرارة ثابتة يتناسب عكسياً مع الضغط الواقع عليها.

ووفقاً لقانون نيوتن الأول للحركة:

يظل الجسم في حالته الساكنة (إما السكون التام أو التحرك في خط مستقيم بسرعة ثابتة) ما لم تؤثر عليه قوة خارجية تغير من هذا الحالة.

## طبّقاً لقانون الحفاظ على الطاقة:

في أي نظام معزول، الطاقة لا تفنى ولا تستحدث من العدم ولكن يمكن تحويلها من صورة لأخرى

النقطة المهمة ليست في أن هناك إطرادات في الطبيعة، ولكن المهم أن هذه الإطرادات كلها دقيقة من الناحية الرياضية، وهي كونية وشاملة و مترابطة فيما بينها. أعتبر آينشتين بأن هذه القوانين تمثل «السبب المتجسد».

السؤال الذي ينبغي أن نطرحه هو كيف جاءت هذه القوانين كحزمة واحدة. هذا هو السؤال الذي بالتأكيد طرحه العلماء من نيوتن إلى آينشتين إلى هيزنبرغ وأجابوا عليه، وجوابهم كان عقل الإله. لم يقتصر هذا النوع من التفكير على العلماء القدماء أمثال إسحاق نيوتن Newton وجيمس ماكسويل James Maxwell، بل أمتد ليشمل العديد من العلماء البارزين في العصر الحديث الذين اعتبروا أيضاً أن قوانين الطبيعة عبارة عن أفكار لعقل الإله.

ختم ستيفن هوكنج Stephen Hawking كتابه «التاريخ المختصر للزمن» A Brief History of Time وهو من أكثر الكتب مبيعاً بالفقرة التالية:

«إذا أكتشفنا نظرية كاملة فإنه ينبغي أن تكون مفهومة من قبل الجميع، وليس من قبل بعض العلماء، ولذا علينا جميعاً كفلاسفة وعلماء وأناس عاديين أن نشارك في نقاش السؤال التالي: لماذا نحن والكون موجودون؟ وإذا استطعنا الوصول إلى إجابة لهذا السؤال فإن ذلك يعد بمثابة نصر كامل للعقل البشري، وعندها سوف نتعرف على عقل الإله». وفي الصفحة التي تسبق الفقرة السابقة تسائل هوكنج «حتى لو كانت هناك فقط نظرية موحدة واحدة ممكنة فإنها سوف تكون عبارة عن

قوانين ومعادلات، ولكن ما الذي يمكّن هذه القوانين من أن تصف العالم؟<sup>(١)</sup>.

كان لدى هوكنج المزيد ليقوله في المقابلة التي تلتها<sup>(٢)</sup>:

«الانطباع الطاعى هو أن هناك نظام، وكلما ازداد إكتشافنا لهذا الكون كلما إزددنا قناعة بأن الكون محكوم بقوانين الطبيعة، ولكن يظل السؤال قائماً لماذا وُجد العالم؟ وإن أحببت، فبمقدورك أن ترى الله هو الجواب على هذا السؤال»<sup>(٣)</sup>.

---

(1) Stephen Hawking, A Brief History of Time (New York: Bantam, 1988), 175, 174.

(2) Gregory Benford, "Leaping the Abyss: Stephen Hawking on Black Holes, Unified Field Theory and Marilyn Monroe," Reason 4.02 (April 2002) : 29.

(٣) كان هذا هو موقف الفيزيائي هوكنج السابق، لكن بعدما نشر كتابه الأخير "التصميم العظيم" The Grand Design الذي حاول فيه تفسير نشأة الكون دون الحاجة لافتراض وجود إله تغير موقفه بنحو واضح. ترجم كتابه الجديد أيمن أحمد عياد، دار التنوير، بيروت، ٢٠١٣.

## من الذي كتب كل تلك الكتب؟

### Who Wrote All Those Book ?

قبل زمن طويل من هوكنج، استخدم آينشتين اللغة ذاتها، حيث كتب «أريد أن أعرف كيف خلق الإله العالم ... أريد أن أعرف أفكاره أما الباقي فمجرد تفاصيل»<sup>(1)</sup>. في كتابي «الإله والفلسفة»، كتبت بأننا لا نستفيد كثيراً من هذه الفقرات، فقد قال آينشتين أنه يؤمن بإله سبينوزا Spinoza's God<sup>(2)</sup>.

يعتبر باروخ سبينوزا Baruch Spinoza أن الإله والطبيعة مترادفان، ويمكن القول دون تردد بأن آينشتين بالنسبة لليهود والمسيحيين والمسلمين كان ملحداً، بل أنه كان «الأب الروحي لجميع الملحدين». ولكن صدر حديثاً كتاب بعنوان «آينشتين والدين» Einstein and Religion لماكس جامر Max Jammer وهو أحد أصدقاء آينشتين يقدم صورة مختلفة تماماً عن تأثير سبينوزا على قناعات آينشتين الشخصية.

في الكتاب، بين جامر أن آينشتين كان يعرف القليل عن سبينوزا، وأن آينشتين لم يقرأ لسبينوزا سوى كتاب الأخلاق Ethics، وقد رفض مرات عدة طلبات للكتابة عن فلسفة سبينوزا<sup>(3)</sup>. وفي رده على أحد الطلبات، قال آينشتين «إنه لا يملك معرفة متخصصة ليكتب مقالة علمية عن سبينوزا». رغم أن آينشتين يشترك مع سبينوزا في الإيمان بالاحتمية Determinism، إلا أن جامر يعتبر أن لا مسوغ للقول أن أفكار سبينوزا أثرت على فكر آينشتين. لاحظ جامر أيضاً أن آينشتين شعر

(1) Albert Einstein, quoted in Timothy Ferris, Coming of Age in the Milky Way (New York: Morrow, 1988), 177.

(2) Antony Flew, God and Philosophy (New York: Dell, 1966), 15.

(3) Max Jammer, Einstein and Religion (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1999), 44.

بأنه قريب من سبينوزا لأنهما يشتركان في حاجتهما إلى الإنعزال، وقدرهما بأن يُعاد قراءتهما في الأثر اليهودي وأن يتم تجاهلهما في الأثر الديني، ورغم أن آينشتين أشار إلى إيمان سبينوزا بوحدة الوجود فإنه عبر عن نفيه أن يكون مؤمناً بوحدة الوجود أو بالإلحاد<sup>(1)</sup>.

«أنا لست ملحداً، ولا يمكن أن أعتبر نفسي مؤمناً بوحدة الوجود. نحن في موقف طفل صغير يدخل مكتبة كبيرة مملوءة بكتب بلغات مختلفة، والطفل يعرف أن هناك من كتب هذه الكتب، ولكنه لا يعرف كيف. هو لا يفهم اللغة التي كتبت بها هذه الكتب. الطفل يظن بأن هذه الكتب مرتبة بطريقة معينة ولكنه لا يعرف هذه الطريقة، وهذا ما يبدو لي موقف أذكى شخص فيما يخص الإله. نحن نرى العالم منظماً بطريقة رائعة، ويتبع قوانين معينة ولكننا لا نعرف هذه القوانين. عقولنا المحدودة لا تستطيع إستيعاب القوة الغامضة التي تحرك هذه الكويكبات»<sup>(2)</sup>.

في كتاب «وهم الاله» The God Delution، شاطرنبي دوكنز في موقفى القديم بأن آينشتين كان ملحداً، وبذلك فهو يتجاهل كلام آينشتين المشار إليه أعلاه بأنه ليس ملحداً ولا مؤمناً بوحدة الوجود، وهذا محير لأن دوكنز أستشهد في إحدى المرات بجامر، ولكنه ترك عدداً كبيراً من عبارات جامر المهمة عن آينشتين في هذا الشأن.

لاحظ جامر على سبيل المثال رفض آينشتين المستمر إعتباره ملحداً، وقد أعلن في محادثة مع الأمير هيبيرتس أمير لونغشتين Hubertus of Lowenstein «ما يجعلني أشعر بالغضب أن الناس الذين يقولون بأن الإله غير موجود يستشهدون

---

(1) Jammer, Einstein and Religion, 45.

(2) Jammer, Einstein and Religion, 45 – 46.

بكلامي لتأييد آرائهم». نفى آينشتين إعتاقه الإلحاد لأنه لم يجد أن إنكاره للإله الشخصي<sup>(١)</sup> Personal God يعني أبداً إنكاراً لوجود إله. من المؤكد أن آينشتين لم يؤمن بالإله الشخصي<sup>(٢)</sup> ولكنه قال: «إنه سؤال مختلف إذا ما كان الاعتقاد بالإله الشخصي محل نقاش. دعم فرويد هذا الرأي في آخر مؤلفاته، ولن أدخل أبداً في تفاصيل هذا الموضوع، لأن هذا الاعتقاد بالنسبة لي يفتقر لأية نظرة متعالية للحياة، وأشك أن ينجح أحد في تقديم وسائل عظيمة للبشرية تلبى حاجاتهم الميتافيزيقية»<sup>(٣)</sup>.

كملخص ينتهي جامر إلى أن آينشتين كما هو الحال مع ميموندس maimonides وسبينوزا يرفض بشكل قاطع أي نوع من التجسيد في الفكر الديني. ولكن على خلاف سبينوزا الذي رأى أن النتيجة المنطقية لنفي الإله الشخصي جعل الإله في هوية مشتركة مع الطبيعة، في حين أصر آينشتين على «أن الإله يُظهر نفسه في قوانين الكون كروح أعظم من تلك التي للإنسان، وأن على المرء بما يملك من قوى هزيلة أن يشعر بالتواضع». أنفق آينشتين مع سبينوزا على إن من يعرف الطبيعة يعرف الإله، ولكن ليس لأن الطبيعة هي الإله، ولكن لأن استخدام العلم في دراسة الطبيعة سوف يقود إلى الدين<sup>(٤)</sup>.

---

(١) الإله الشخصي هو شخص كالإنسان، لكن من دون جسم، ويتفوق عليه في صفاته الكيفية والكمية.

(2) Jammer, Einstein and Religion, 48.

(3) Jammer, Einstein and Religion, 150. 218

(4) Jammer, Einstein and Religion, 148.

## عقل آينشتين المتفوق Einstein's "Superior Mind"

من الواضح أن آينشتين يعتقد بمصدر متعالى لعقلانية العالم، وهو ما يسميه «العقل الفائق»، «الروح الفائقة»، «القوى المنطقية الفائقة» و «القوة الغامضة التي تحرك الكويكبات»، وهذا كان واضحاً في عدد من عباراته: «لم أجد على الإطلاق تعبيراً أفضل من تعبير «إيماني» religious للوثوق بالطبيعة العقلانية للحقيقة والقدرة الخاصة في الوصول للعقل البشري، في حين أن العلم يفتقر لهذه الثقة. إذا كان المبشرون يريدون أن يستفيدوا من ذلك فهذا شأنهم، فليس هناك علاج لذلك»<sup>(1)</sup>.

بالتأكيد هي القناعة القريبة من الشعور الديني لعقلانية وذكاء هذا العالم التي تتجاوز العمل العلمي نوعياً، هو الاعتقاد الراسخ المرتبط بشعور عميق بأن هناك عقل متفوق يتجلى في عالم التجربة وهو ما يمثل تصوري عن الإله. أي شخص مر بتجربة مكثفة وناجحة في الحقل العلمي سوف يشعر باندفاع من التقديس العظيم للعقلانية التي تتبدى في الوجود .... عظمة السبب المتجسد في الوجود<sup>(2)</sup>.

«تديني يتضمن تقديراً متواضعاً للروح المتفوقة اللانهائية التي تظهر نفسها في أدق التفاصيل التي نستطيع إدراكها بعقول واهية وضعيفة. هذه القناعة العاطفية العميقة بوجود القوة المنطقية المتفوقة التي تتبدى في الكون الذي لا يمكن الإحاطة به هو الذي شكل فكرتي عن الإله»<sup>(3)</sup>.

(1) Albert Einstein, Lettres a Maurice Solovine reproduits en facsimile et traduits en français (Paris: Gauthier-Vilars, 1956), 102-3.

(2) Jammer, Einstein and Religion, 93.

(3) Albert Einstein, The Quotable Einstein, ed. Alice Calaprice (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2005), 195-6.

## قفزات كوانتية (جبارة) تقود نحو الإله

### Quantum Leaps Toward God

آينشتاين، وهو مكتشف النظرية النسبية ليس هو العالم العظيم الوحيد الذي ربط بين قوانين الطبيعة وعقل الإله.

رواد فيزياء الكوانتم وهم من عظماء المكتشفين في الزمن الحديث من أمثال ماكس بلانك Max Planck، ورنر هييزنبرغ Werner Heisenberg، ارون شرودنجر Erwin Schrödinger وبول ديراك<sup>(1)</sup> Paul Dirac، كل هؤلاء صدرت عنهم عبارات بخصوص الربط بين قوانين الطبيعة وعقل الإله سأورد بعضاً مما قالوه لاحقاً.

ورنر هييزنبرغ Werner Heisenberg وهو مشهور بمبدأ عدم اليقين وميكانيكا المصفوفات Uncertainty Principle and Matrix Mechanics قال: «خلال مسيرة حياتي اضطرت بشكل متكرر إلى التأمل في العلاقة بين حقلين من الحقل الفكرية: الحقل العلمي والحقل الديني، ولم أكن قادراً على الإطلاق على الشك بذلك الواقع التي يشيرون إليه»<sup>(2)</sup>. وفي موضع آخر يقول «لقد سألتني أحدهم على نحو مفاجئ: هل تؤمن بالإله الشخصي؟ .... فقلت له هل لي أن أعيد صياغة سؤالك، شخصياً أفضل صياغة السؤال على النحو التالي: هل يمكنك أو أي شخص آخر أن تصل إلى النظام المركزي للأشياء والأحداث التي لا يبدو أن وجودها محل شك بنفس القدر الذي يمكنك الوصول إلى روح soul إنسان آخر؟ وأنا أستخدم لفظة روح soul بشكل متعمد حتى لا يُساء فهمي. إذا وضعت سؤالك

(1) For the most part, these quotations are taken from Roy Abraham Varghese, *The Wonder of the World* (Fountain Hills, AZ: Tyr, 2003).

(2) Werner Heisenberg, *Across the Frontiers*, trans. Peter Heath (San Francisco: Harper & Row, 1974), 213.

على هذا النحو فإن جوابي سيكون نعم .... إذا كانت القوة المغناطيسية هي التي وجهت هذه البوصلة فمن سيكون مصدر ذلك سوى النظام المركزي؟! إذا كان مقررًا لنا أن نقرض فإن أموراً فظيعة يمكن أن تحدث للجنس البشري أكثر من مخيمات الغاز أو القنبلة الذرية»<sup>(1)</sup>.

إرون شرودنجر، وهو رائد آخر من رواد الكوانتم وهو الذي أكتشف الموجات الميكانيكية، يقول «إن الصورة العلمية للعالم من حولي ناقصة جداً. إنها تعطيني الكثير من المعلومات الواقعية وتضع كل خبراتنا في نظام رائع الإتساق، ولكن الصمت الرهيب الذي يحيط بقلوبنا هو ما يهم حقاً. إنها لا تستطيع أن تقول كلمة واحدة عن الإحساس باللون الأحمر والأزرق، عن المر والحلو، عن مشاعر البهجة والحزن. إنها لا تعرف شيئاً عن الجمال والقبح، عن الخير والشر، عن الإله والخلود». تتظاهر العلوم بقدرتها على الإجابة على الأسئلة في هذه الأبعاد، ولكن الإجابات غالباً ما تكون سخيفة جداً بحيث أنها تجعلنا نميل إلى عدم أخذها على محمل الجد. العلم متحفظ أيضاً عندما يكون السؤال عن الوحدة العظيمة التي ننتمي إلى جزء منها، والأسم المشهور في زماننا لهذه الوحدة هو «الإله». يوصف العلم في العادة على أنه إلحادي، وعندما قلناه فإن هذا لن يكون مفاجئاً. إذا كانت صورة العالم لا تحتوى حتى على الجمال والبهجة والحزن، فإذا أتفقنا على أن نقتطع منها الشخصية personality فكيف يمكن لهذه الصورة أن تحتوي على أعظم فكرة عندما تعرض نفسها لعقل الإنسان»<sup>(2)</sup>.

ماكس بلانك، كان أول من عرض لفرضية الكوانتم، وهو يعتقد بطريقة لا لبس

(1) Werner Heisenberg, Physics and Beyond (San Francisco: Harper & Row, 1971), excerpted in Timothy Ferris, ed., The World Treasury of Physics, Astronomy and Mathematics (New York: Little, Brown, 1991), 826.

(2) Erwin Schrödinger, My View of the World (Cambridge: Cambridge University Press, 1964), 93.

فيها بأن العلم يكمل الدين، وهو يؤكد على أنه «ليس هناك أي تعارض بين العلم والدين، لأن كل واحد منهما مكمل للآخر»، ويقول بأن «العلم والدين يقاتلان في المعركة ذاتها في حرب صليبية متواصلة ضد مذهب الشك<sup>(١)</sup> skepticism وضد الدغمائية<sup>(٢)</sup> dogmatism وضد الكفر والخرافات... وكنتيجة يقاتلان من أجل الإله<sup>(٣)</sup>».

بول ديراك، والذي أكمل عمل هايزنبرغ وشروودنجر بصياغة ثالثة لنظرية الكوانتم، لاحظ أن «الله هو رياضي بمرتبة عالية جداً، وهو يستخدم الرياضيات المتقدمة في بناء الكون»<sup>(٤)</sup>. وقبل أجيال من هؤلاء العلماء، أكد تشارلز داروين Darwin Charles على الفكرة ذاتها بقوله «العقل يقول لي أنه من الصعب بدرجة كبيرة بل من المستحيل أن ندرك هذا الكون الهائل والرائع، بما في ذلك الإنسان مع قابليته على النظر إلى الماضي البعيد والذهاب بذهنه إلى المستقبل البعيد، ليقول بعد ذلك بأن هذا الكون حدث بالصدفة العمياء أو الضرورة.

عندما أتأمل بذلك أجد نفسي مضطراً للميل إلى السبب الأول الذي يمتلك عقلاً ذكياً يشابهه بدرجة ما الإنسان: عندها أستحق أن أوصف بالمؤجّد»<sup>(٥)</sup>.

---

(١) الشكوكية أو مذهب الشك هو إتجاه فلسفي يقول بأن المعرفة الحقيقية في حقل معين هي معرفة غير محققة أو مؤكدة.

(٢) الدوغمائية (أو الدوغمائية) هي التعصب لفكرة معينة من قبل مجموعة دون قبول النقاش فيها أو الإتيان بأي دليل ينقضها لمناقشته أو كما هي لدى الإغريق الجمود الفكري. وهي التشدد في الاعتقاد الديني أو المبدأ الأيديولوجي، أو موضوع غير مفتوح للنقاش أو للشك. يعود أصل الكلمة إلى اليونانية δόγμα والتي تعني «الرأي» أو «المعتقد الأوحّد».

(3) Max Planck, Where Is Science Going? trans. James Murphy (New York: Norton, 1977), 168.

(4) Paul A. M. Dirac, "The Evolution of the Physicist's Picture of Nature," Scientific American 208, no. 5 (May 1963): 53.

(5) Charles Darwin, The Autobiography of Charles Darwin 1809-1882, ed. Nora Barlow (London: Collins, 1958), 92-3.

أستمر هذا القطار من الأفكار في المسير من خلال كتابات مجموعة من كبار الباحثين العلميين في وقتنا الحاضر، وهؤلاء يتراوحون ما بين علماء من أمثال بول ديفيز Paul Davies، وجون بارو John Barrow، وجون بولكنغهور John Polkinghorne، وفريمان دايسون Freeman Dyson، وفرانسيس كولينز Francis Collins، وأوين جنجريتش Owen Gingerich، وروجر بنروز Roger Penrose، إلى فلاسفة العلوم من أمثال ريتشارد سوينبيرن وجون ليزلي John Leslie.

ديفيز وبارو، على وجه الخصوص قاما بتطوير أفكار آينشتين وهايزنبرغ، وغيرهم من العلماء بخصوص العلاقة بين عقلانية العالم وعقل الإله. كلاهما حصل على جائزة تمبلتون على هذا الاكتشاف، وقد صححت أعمالهم الكثير من التصورات الخاطئة الشائعة، كما سلطت الضوء على المواضيع التي ناقشها هنا.

## قوانين من؟

### Whose Laws?

في كلمته في حفل جائزة تمبلتون، أشار بول ديفيز إلى نقطة وهي «أن العلم يمكن أن يتقدم فقط عندما يملك العلماء نظرة كونية لاهوتية». لا أحد يسأل من أين جاءت قوانين الفيزياء، ولكن حتى أكثر العلماء إحاداً يقر كحقيقة إيمانية بوجود نظام في الطبيعة قائم على القوانين، وهذا النظام في جانب منه على الأقل قابل للإدراك من قبلنا». وقد رفض ديفيز اثنتين من نقاط سوء الفهم الشائعة. يقول ديفيز بأن «الفكرة القائلة بأن نظرية كل شيء ستُظهر أن هذا العالم هو العالم المتسق الوحيد منطقياً» هي فكرة خاطئة برهانياً، لأنه لا يوجد أي دليل على أن العالم ضروري من الناحية المنطقية، وفي الحقيقة من الممكن تخيل وجود عالم بديل متسق منطقياً». ثانياً، يقول: «من الهراء بكل ما للكلمة من معنى» افتراض أن قوانين الفيزياء هي قوانيننا وليست قوانين الطبيعة. سوف لن يصدق علماء الفيزياء أن قانون نيوتن للجاذبية هو صناعة ثقافية. وهو يصر على أن قوانين الطبيعة هي «موجودة واقعياً»، وعملنا هو إكتشافها وليس صنعها.

يلفت ديفيز الانتباه إلى حقيقة أن قوانين الطبيعة التي تحكم الظواهر لم يتم استخلاصها من خلال الملاحظة المباشرة، وإنما تم استخلاصها من التجارب والحسابات الرياضية. القوانين كتبت بشفرة الكون بحيث أن على العلماء التتقيب لفك «رسالة الطبيعة، رسالة الله وليست رسالتنا». السؤال الملح كما يقول ديفيز ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

● من أين جاءت قوانين الفيزياء؟

● لماذا لدينا هذه القوانين وليس حزمة أخرى من القوانين؟

● كيف لنا أن نمتلك مجموعة من القوانين التي تحول غازات ساكنة إلى

حياة ووعي، وذكاء؟

هذه القوانين «تبدو مبدعة ومحكمة كما يقول بعض المعلقين، ومنها نشأت الحياة والوعي». ويخلص ديفيز إلى أن هذه «الطبيعة المفتعلة للوجود الفيزيائي بالنسبة لي مجرد مُعطى، وهي تشير إلى معنى أعمق للوجود». وهذه الكلمات من قبيل الغاية والتصميم - كما يقول ديفيز - تبين بنحو غير كامل ما عليه الكون، «ولكن لا بد أنها تحكي عن شيء ما، ولا شك في ذلك مطلقاً»<sup>(1)</sup>.

في كلمته في حفل تمبلتون لاحظ جون بارو، بأن التعقيد غير المتناهي والبنية الرائعة للكون محكومة بقوانين قليلة بسيطة متماثلة وواضحة. في الحقيقة، «هناك معادلات رياضية، تتمايل على الورق، تخبرنا كيف يسلك هذا الكون بأسره». على غرار ديفيز، رفض بارو فكرة أن نظام الكون تم فرضه من عقولنا. وعلاوة على ذلك، فإن «الانتخاب الطبيعي لا يتطلب فهم الجسيمات الأولية quarks والثقوب السوداء التي تعمل من أجل بقاءنا على قيد الحياة وتكاثرنا».

يلاحظ بارو أن هناك في تاريخ العلم نظريات جديدة توسع أو تعيد صياغة نظريات قديمة. على الرغم من أن نظرية نيوتن للميكانيكا والجاذبية قد تم استبدالها بنظرية آينشتاين وسيعقبها نظرية أخرى في المستقبل، لكن بعد ألف

---

(1) Paul Davies, Templeton Prize Address, May 1995, [http://aca.mq.edu.au/PaulDavies/prize\\_address.htm](http://aca.mq.edu.au/PaulDavies/prize_address.htm). See also Davies's "Where Do the Laws of Physics Come From?" (2006), <http://www.ctnsstars.org/conferences/papers/Wheredothelawsofphysicscomefrom.doc>.

سنة ما زال المهندسون حالياً يعتمدون على نظريات نيوتن. وبالمثل -كما يقول بارو- فإن التصورات الدينية عن الكون تستخدم التشبيهات والتقريب إلى الأذهان للمساعدة في فهم الأمور النهائية، «إنها ليس الحقيقة الكاملة، ولكن ذلك لا يمنع من كونها جزءاً من الحقيقة»<sup>(1)</sup>.

---

(1) John Barrow, Templeton Prize Address, March 15, 2006, [http://www.templetonprize.org/barrow\\_statement.html](http://www.templetonprize.org/barrow_statement.html).

## صانع القوانين الإلهي

### The Divine Lawmaker

قلة من الفلاسفة كتبوا عن المصدر الإلهي لقوانين الطبيعة. في كتابه «الصانع اللاهوتي: محاضرات في الاستقراء، قوانين الطبيعة، وجود الإله»، أدعى الفيلسوف الأكسفوردي جون فوستر John Foster وجود اطردادات regularities في الطبيعة، ورغم قدرتنا على وصفها، إلا أن أفضل من يفسرها هو العقل الإلهي. إذا كنت تقبل فكرة وجود قوانين، فلا بد أن يكون هناك اطراد في الكون. من هو الفاعل (أو الفاعلين) الذي قام بذلك؟ يرى فوستر أن الخيار التوحيدي هو الخيار الوحيد الجدي كمصدر، ولذلك «فإن هناك ما يبرر الاستنتاج بنحو عقلاني بأن الإله -إله الوحداية- هو الذي خلق القوانين من خلال فرضه الاطرادات على العالم بوصفها اطردادات». وحتى لو كنت تنكر وجود قوانين، فإن هناك ما يؤيد تفسير الاطرادات استناداً إلى الله<sup>(1)</sup>.

في رده على نقد دوكنز لحجته في الغائية، قدم سوينبيرن رؤية مشابهة: «ما هو قانون الطبيعة؟ (وهذه مسألة لم تواجه أي من نُقَّادي). أن تقول بأن هناك قانوناً طبيعياً هو أن تقول أن كل الأجسام تسلك بنحو معين (مثال: تتجذب إلى بعضها البعض وفقاً لمعادلة معينة)، وهذا بالنسبة لي كأنك تقول أن كل جسم في الطبيعة الضرورية يتصرف بهذه الطريقة (مثال: أن يجذب كل جسم ما في طريقه)، ولعله أكثر بساطة أن نقول أن هذا التناغم مصدره كيان واحد جعل هذه الأجسام تسلك

(1) John Foster, The Divine Lawmaker: Lectures on Induction, Laws of Nature and the Existence of God (Oxford: Clarendon, 2004), 160.

بهذه الطريقة بدلاً من افتراض أن كل الأجسام تتصرف بطريقة معينة بحكم حقيقة نهائية عمياء»<sup>(1)</sup>.

الحجة المركزية لسوينبرن هو أن الإله الشخصي مع صفاته التقليدية التي له يقدم لنا شرحاً أفضل لعمل قوانين الطبيعة. رفض ريتشارد دوكنز هذه الحجة على أساس أن الإله كحل هو معقد جداً لشرح الكون وقوانينه. هذا الكلام صدمني باعتباره شيئاً غريباً أن تقول ذلك عن تصور كائن روعي على كل شيء قدير. ما هو المعقد في فكرة الإله كامل القدرة وكامل المعرفة، وهي الفكرة التي لبساطتها تم إستيعابها من قبل أتباع الأديان الثلاثة العظيمة: اليهودية والمسيحية والإسلام؟ وقد علق بلانتيغا مؤخراً على كلام دوكنز، بالإشارة إلى أنه وفقاً لتعريف دوكنز الخاص، الإله بسيط - ليس معقد - لأنه روح، وليس جسماً مادياً، وبالتالي ليس له أجزاء.

وبالعودة إلى مثال التلفون الفضائي الذي طرحته في الفصل السابق، نجد أن قوانين الطبيعة تمثل مشكلة للملحدين لأن صوت العقلانية يُسمع من خلال آليات المادة mechanisms of matter. كتب بول ديفيز «العلم يقوم على فرضية أن الكون عقلاني ومنطقي على كافة المستويات». وديفيز هو أكثر مفسري العلم الحديث تأثيراً في العصر الراهن، كتب قائلاً «يزعم الملحدون أن قوانين الطبيعة توجد دون منطوق، وأن الكون مناف للعقل. وأنا كعالم، أجد صعوبة في قبول ذلك. يجب أن يكون هناك أساس عقلاني غير متغير يقوم عليه هذا الكون المنظم والمنطقي»<sup>(2)</sup>.

(1) Richard Swinburne, "Design Defended," Think (Spring 2004): 14.

(2) Paul Davies, "What Happened Before the Big Bang?" in God for the 21st Century, ed. Russell Stannard (Philadelphia: Templeton Foundation Press, 2000),

هؤلاء العلماء الذين يشيرون إلى عقل الإله لا يقدمون مجرد سلسلة من الحجج أو عملية استدلال منطقية. ولكنهم يقدمون رؤية للواقع تنبثق من جوهر تصورات العلم الحديث وتفرض نفسها على الذهن العقلاني. وهي الرؤية التي أجد شخصياً أنها مقنعة ولا يمكن دحضها.



الفصل  
السادس

هل عرف الكون أننا قادمون؟  
**Did the Univers Know We Were  
Coming ?**



## هل عرف الكون أننا قادمون؟ Did the Univers Know We Were Coming ?

تخيّل أنك دخلت إلى غرفة في الفندق الذي تسكن فيه في رحلتك المقبلة، ووجدت أن جهاز التسجيل الموجود بجانب السرير يعزف المعزوفة الموسيقية التي تحبها، ووجدت أن اللوحة المعلقة أعلى السرير تشبه تماماً اللوحة الموجودة أعلى المدفأة في بيتك، والغرفة ينبعث منها العطر الذي تفضله، فقمتم بهز رأسك متعجباً وألقيت حقائبك على الأرض. بعد ذلك أتجهت إلى الثلاجة الصغيرة الموجودة في الغرفة وفتحت بابها وحدقت في محتوياتها فوجدت مشروبك المفضل وقطعة الحلوى والكعكة التي تحبها، بل وجدت قئينة من نوع المياه الذي تفضله. بعدها، أدت ظهرك للثلاجة ونظرت إلى المنضدة الموجودة في الغرفة فوجدت عليها الكتاب الجديد لمؤلفك المفضل، وعندما ألقيت نظرة في الحمام حيث تصطف على الرف مواد الاعتناء بالبشرة وجدت أن جميعها من النوع الذي تستخدمه في العادة، وعندما قمت بتشغيل التلفزيون وجدت القناة التلفزيونية التي تفضلها.

مع كل شي تشاهده في الغرفة تجد أنك أقل ميلاً إلى التفكير بأن كل ما حدث كان من باب الصدفة، أليس الأمر كذلك؟ وقد تتساءل كيف استطاع مدير الفندق أن يعرف كل هذه الأمور التفصيلية عنك. وقد تتعجب من هذه الإعداد الدقيق، حتى أنك تفكر مجدداً كم سيكلفك كل ذلك من مبالغ مالية، ولكنك بالتأكيد سوف تميل إلى الاعتقاد بأن شخصاً ما كان يعرف بقدمك.

## كوننا الدقيق

### Our Finely Tuned Universe

---

سيناريو هذه العطلة خارق، وهو يوازي حجة التوافق Fine-tuning Argument. الشهرة المعاصرة لهذه الحجة سلطت الضوء على بعد جديد لقوانين الطبيعة. كتب عالم الفيزياء فريمن دايسون Ferrman Dyson قائلاً « كلما قمت بفحص هذا الكون ودرست تفاصيل تكوينه، وجدت دليلاً إضافياً على أن الكون يعرف أننا قادمون»<sup>(1)</sup>.

وبعبارة أخرى، يبدو أن قوانين الطبيعة صُنعت بطريقة تحرك العالم نحو نشأة الحياة. هذا هو المبدأ الأنثروبولوجي، الذي أصبح مشهوراً بفضل مفكرين من أمثال مارتن ريز Martin Rees، جون بارو John Barrow، وجون ليسلي John Leslie. لنأخذ أبسط قوانين الفيزياء كمثال على ذلك. لقد تم حساب أنه لو تغير جزء بسيط من الثوابت الأساسية في القوانين - وعلى سبيل المثال سرعة الضوء أو كتلة الإلكترون - فإنه لن يكون هناك كوكب قادر على توفير البيئة المناسبة لحياة الإنسان.

لقد تم تفسير هذه الدقة بطريقتين. بعض العلماء اعتبر أن هذه الدقة تدل على الصنع الإلهي، والبعض الآخر خَمَّنَ بأن كوننا هو كون من ضمن أكوان أخرى متعددة، والفرق هو أن كوننا هُيئَ لكي يوفر الشروط اللازمة لحياة الإنسان. عملياً

---

(1) Freeman J. Dyson, *Disturbing the Universe* (New York: Harper & Row, 1979), Also cited in John Barrow and Frank Tipler, *The Anthropic Cosmological Principle* (Oxford: Clarendon, 1988), 318.

لم يدع أي عالم معروف أن دقة الصنع كانت بنحو صرف نتيجة لعوامل الصدفة في هذا الكون.

في كتابه «العقول اللانهائية»، يجادل جون ليسلي -وهو من أعلام منظري المبدأ الأنثروبي- بأن إن دقة الصنع فسّرت بشكل أفضل بواسطة القول بوجود تصميم إلهي. يقول ليسلي إنه ليس متعجباً من وجود حجج محددة لصالح حالات التوافق، بل من حقيقة أن هذه الحجج موجودة على نحو وافر (= يزيد على القدر المطلوب لنشأة الحياة). «إذا كانت هناك أمور في الطبيعة تحدث بطريقة تثير الإعجاب، فإن هذه الأمور ستُرى بنحو أفضل كأدلة لصالح الاعتقاد بإله». وقدّم ليسلي أمثلة على هذه الأمور:

١- مبدأ النسبية الخاصة الذي يجعل للقوى مثل القوة الألكترومغناطيسية تأثير غير متغير بغض النظر عن الزاوية الصحيحة لتأثيرها على حركة الأجسام. هذا يجعل من شفرة الجينات تعمل، وكذلك الكواكب، وفي نفس الوقت تترابط فيما بينها عند الدوران.

٢- قوانين الكم تمنع الإلكترونات من التصاعد إلى الحالة الذرية.

٣- الطاقة الألكترومغناطيسية لها قوة واحدة تجعل أكثر من عملية تحدث في وقت واحد، وهو ما يجعل النجوم تضيئ لمليارات السنين، وهو ما يجعل تكون الكربون في النجوم ممكناً، كما يضمن عدم استبدال اللبتونات<sup>(١)</sup> بالجسيمات الذرية quarks، ويترتب عليه إستحالة تشكل الذرات. وهذا ما

---

(١) اللبتون هو جسيم أولي ومكون أساسي للمادة. أشهر اللبتونات المعروفة هو الألكترون والذي يحكم عمليات الكيمياء كلها لأنه موجود في أغلفة الذرات وترتبط به الخصائص الكيميائية كلها. وتوجد فئتين أساسيتين للبتونات: المشحونة منها (وتعرف أيضاً بلبتونات شبيهة - الألكترون)، ومحايدة (المشهوره باسم نيترينو).

يحتتم على البروتونات أن لا تتحلل سريعاً ولا تصطدم مع بعضها البعض بقوة، وهو ما قد يؤدي إلى أن تصبح الكيمياء مستحيلة. كيف يمكن لقوة واحدة أن تلبى إحتياجات كثيرة ومختلفة، في حين يبدو أننا بحاجة لقوى عديدة لكل واحدة من هذه العمليات؟<sup>(1)</sup>

---

(1) Leslie, *Infinite Minds*, 203–5.

## العبور إلى الكون المتعدد Across The Multiverse

---

نظرية الأكوان المتعددة هي في مقابل نظرية الصنع الإلهي (ومع ذلك سوف أحاول التذليل على أن وجود الأكوان المتعددة لن يلغي السؤال عن المصدر الإلهي). عالم الكونيات مارتن ريس Martin Rees هو أحد أكبر مؤيدي فكرة الأكوان المتعددة. لاحظ ريس أن «أي كون مهيبٌ للحياة - وهو ما يمكن أن نسميه الكون الحيوي Biophilic universe- يجب أن يتم تعديله على نحو معين لكي تتوفر الشروط الأساسية لحياة أي نوع نعرفه. تتأثر النجوم الموجودة منذ القدم، والذرات المستقرة مثل الكربون والكربون والسليكون يمكن أن تجتمع في مركب معقد من الجزئيات ... ألخ - كل هذه الكائنات تتأثر بشكل دقيق بالقوانين الفيزيائية، وحجم ومعدل توسع الكون ومحتوياته»<sup>(1)</sup>.

يقول ريس أنه يمكن تفسير ذلك من خلال فرضية وجود «أكوان» كثيرة، مع قوانين وثوابت فيزيائية مختلفة، وكوننا كجزء من مجموعة أكوان، حدث نتيجة لظهور تعقيد complexity ووعي consciousness. وإذا كان هذا هو الحال، فإن الدقة في الصنع لن تكون مصدر تعجب.

عرض ريس لأكثر صيغ فرضية الأكوان المتعددة تأثيراً، وهي فكرة «التمدد الأبدي»، وهي فكرة قدمها علماء الكون أندريه لنده Andrei Linde وأليكس فينكن Alex Vilenkin، ووفقاً لهذه الفكرة فإن الأكوان المتعددة نشأت عن انفجارات

---

(1) Martin J. Rees, "Numerical Coincidences and 'Tuning' in Cosmology," *Astrophysics and Space Science* 285 (2003): 376.

عظيمة لكل من هذه الأكوان مع اختلاف في البعد الزمني والمكاني من الكون الذي نعيش فيه.

تعتبر أطروحة الثقب الأسود لكل من آلان غوث Alan Guth، وديفيد هاريسون David Harrison، ولي سمولين Lee Smolin أن الأكوان نتجت عن ثقوب سوداء Black Holes على صورة مجالات مكانية غير متواصلة mutually inaccessible. وأخيراً، أفترضت كل من ليزا راندال Lisa Randall ورامان ساندرم Raman Sundrum أن هناك أكواناً في أبعاد مكانية مختلفة قد تتفاعل أو لا تتفاعل مع بعضها البعض بفعل الجاذبية. أشار ريس إلى أن هذه الأفكار للأكوان المتعددة «تخمينية بشكل كبير»، وهي تتطلب وجود نظرية تصف باتساق فيزياء الكثافات العالية ultrahigh densities وتكوين الهياكل configuration of structures وفق أبعاد إضافية وهكذا دواليك. وواحدة من هذه الأفكار فقط يمكن أن تكون صحيحة. ويضيف ريس «وفي الحقيقة يمكن ألا يكون أي منها كذلك: فهناك نظريات بديلة تقود إلى أن هناك كوناً واحداً»<sup>(1)</sup>.

---

(1) Rees, "Numerical Coincidences and 'Tuning' in Cosmology," 385.

## نظرية البندقية متعددة الاتجاهات

### A Blunderbuss Theory

رفض كل من بول ديفيز Paul Davies وريتشارد سوينبيرن Richard Swinburne فكرة الكون المتعدد. ديفيز، وهو عالم فيزيائي وعالم كونيات، كتب «من الصحيح أن كل شيء في كونٍ لامتناهي يمكن أن يحدث سوف يحدث»، ولكن هذا لا يعد تفسيراً على الإطلاق. إذا أردنا أن نفهم لماذا يُعتبر الكون صديقاً لصالح نشأة وبقاء الحياة، فإن ذلك لا يفيدنا عندما يقال أن كل الأكوان الممكنة موجودة. نظرية الأكوان المتعددة «مثل البندقية المتعددة الجوانب، فهي تفسر كل شيء ولا تفسر شيئاً»، ويعني ديفيز بذلك أنها ادعاء لا معنى له. إذا قلنا أن العالم وكل ما فيه جاء إلى حيز الوجود قبل خمس دقائق -بما في ذلك ذكرياتنا حول سنوات عديدة عشناها والأدلة على أحداث وقعت منذ آلاف السنين- فإن إدعاءنا هذا غير قابل للدحض، لأنه يفسر كل شيء ولا يفسر شيئاً في وقتٍ واحد.

التفسير العلمي الصحيح كما يقول ديفيز، عبارة عن رصاصة محددة الاتجاه. فكرة الأكوان المتعددة تستبدل كوناً واقعياً منتظماً عقلياً بمجمع لا متناهي من أكوان وتجعل عملية «التفسير» لا معنى لها. سوينبيرن كان قوياً في إزدراءه لتفسير الأكوان المتعددة: «إنه من الجنون إفتراض وجود مليارات الأكوان (المرتبطة سببياً) كمصادرة لتفسير معالم كون واحد، ولكن عندما نفترض وجود إله واحد كمصادرة، فإن هذه المصادرة سوف تؤدي المهمة»<sup>(1)</sup>.

(1) Paul Davies, "Universes Galore: Where Will It All End?" <http://aca.mq.edu.au/PaulDavies/publications/chapters/Universesgalore.pdf>.

ثلاثة أمور يمكن أن تقال عن حجة الكون الدقيق. الأول: ثمة حقيقة صلبة تؤكد بأننا نعيش في كونٍ فيه قوانين محددة وثوابت، وأن الحياة فيه لم تكن ممكنة لو كانت بعض هذه القوانين والثوابت مختلفة. الثاني: حقيقة أن وجود القوانين الحالية والثوابت هي التي تسمح ببقاء الحياة لا تجيب على السؤال عن أصل الحياة. هذا سؤال مختلف تماماً، كما سوف أحاول أن أبين، فهذه الشروط ضرورية لنشأة الحياة ولكنها ليست كافية. الثالث: حقيقة أن من الممكن منطقياً أن تكون هناك أكوان متعددة مع قوانين الطبيعة الخاصة بها، لا تعني أن هذه الأكوان موجودة. حالياً لا يوجد دليل يؤيد فكرة الأكوان المتعددة، وستظل هذه الفكرة مجرد فكرة جدلية.

وما هو مهم جداً هنا هو حقيقة أن فرضية وجود الأكوان المتعددة لا تفسر أصل وجود قوانين الطبيعة. يعتبر مارتين ريس Martin Rees أن فكرة الأكوان المتعددة التي لها قوانينها الخاصة بها تطرح سؤالاً حول القوانين الكلية التي تحكم كل الأكوان، النظرية الشاملة التي تشبه قائد فرقة العزف الموسيقية. «القوانين الكلية التي تحكم الأكوان المتعددة ربما تسمح بوجود تفاوت بين الأكوان، فبعض ما نعتبره «قوانين طبيعية» قد تكون -وفقاً لوجهة النظر هذه- قوانين محلية متناغمة مع القوانين الكلية، ولكن القوانين المحلية وفقاً لهذه النظرية ليست ثابتة»<sup>(1)</sup>.

سؤالنا عن كيفية تحكم القوانين بالأكوان المتعددة يماثل سؤالنا عن أصل قوانين الطبيعة بشكل عام. كتب بول ديفيز يقول إن «أنصار نظرية الأكوان المتعددة عادة ما يكونون غامضين حول كيفية إختيار قيم المتغيرات parameter values في هذا المجمع الكوني. إذا كان هناك «قانون للقوانين» يحدد قيم المتغيرات، فإن ذلك

---

(1) Rees, "Numerical Coincidences and 'Tuning' in Cosmology," 386.

يعني أننا نحيل كل كون إلى الكون الآخر، وعندها نكون قد نقلنا المشكلة مرتبة إلى الأعلى، لماذا؟ أولاً لأننا بحاجة لتفسير من أين جاءت هذه القوانين<sup>(1)</sup>. يقول البعض أن القوانين حدثت عرضاً كنتيجة للطريقة التي برد فيها الكون بعد الانفجار العظيم. ولكن كما أشار ديفز، فإن هذه الحوادث يمكن اعتبارها ظهور ثانوي لقوانين عميقة تحكم مجمع الأكوان». مرة أخرى، حتى تطور قوانين الطبيعة والتغيرات على الثابت تتبع قوانين معينة. «ونعود مرة أخرى إلى السؤال عن كيفية حدوث هذه القوانين العميقة. مهما أرجعنا إلى الوراثة خصائص نشأة الكون بكيفية معينة، فإن هذه النشأة لا بد أن تتبع قوانين قبلية محددة». سواء أكان هناك أكوان متعددة أو لا، فإننا لابد أن نعود إلى السؤال: من أين جاءت هذه القوانين؟ والتفسير الوحيد المقنع هنا هو العقل الإلهي.

---

(1) Davies, "Universes Galore: Where Will It All End?"



الفصل  
السابع

كيف حدثت الحياة؟  
How did Life Go Live ?



## كيف حدثت الحياة؟ How did Life Go Live?

عندما عرضت وسائل الأعلام لأول مرة خبر تحولي إلى التوحيد تم الاستشهاد بكلامي على أن أبحاث علماء الأحياء في الحمض النووي DNA أظهرت أن تركيبة الحمض النووي معقدة بطريقة يصعب معها تصديق الترتيبات اللازمة لحصول الحياة، وأنه لا بد أن يكون هناك ذكاء وراء هذه العملية. كتبت في السابق أن هناك مساحة متاحة لحجة التصميم لتفسير نشأة الحياة من المادة غير الحية، وخصوصاً إذا كانت هذه المادة تمتلك القدرة على إعادة إنتاج نفسها جينياً. وقلت أنه لا يوجد تفسير طبيعي شافي لهذه الظاهرة.

هذه التصريحات أثارت غضباً من النقاد الذين أدعوا أنني لم أكن على دراية بأحدث الاكتشافات في مجال التولد التلقائي<sup>(١)</sup> Abiogenesis. أدعى ريتشارد دوكنز أنني لجأت إلى «إله الفجوات»<sup>(٢)</sup> God of the gaps. في مقدمتي الجديدة لطبعة عام ٢٠٠٥ من كتاب «الإله والفلسفة» قلت «إنني شخصياً مسرور لأن أصدقائي من علماء الأحياء أكدوا لي أن علماء الأحياء البكتيرية قادرين في الوقت الحالي على تقديم نظريات في التطور بخصوص المادة الأولى، وأن مجموعة

(١) عملية طبيعية من الحياة الناشئة عن مواد غير حية مثل مركب عضوي بسيط.

(٢) نوع من النقاش في علوم الإلهيات والذي يتم خلاله جعل الفراغات (النقص) في المعرفة العلمية دليلاً على وجود الإله. كما يمكن أن يرمز إلى نظرة إلى الإله مشتقة من الإيمان الديني الذي يقول أن كل ما يمكن تفسيره بعلم الإنسان ليس من اختصاص الإله، هذا يعني أن دور الإله يتحدد في الفجوات في التفسيرات العلمية للطبيعة. الفكرة تتضمن دمج بين التفسيرات الدينية مع التفسيرات العلمية. يمكن القول أنه كلما تمكن العلم من إعطاء شرح أدق للعالم قل دور الإله في هذا العالم.

من هذه النظريات تتوافق مع الدلائل العلمية المؤكدة»<sup>(1)</sup>. ولكن يجب أن أنبه إلى أن الأعمال الحديثة التي رأيتها والتي تعكس وجهة نظر علماء الفيزياء في عمر الكون، تعطي وقتاً محدوداً لنظريات الأحياء البكتيرية لوقوع ما يدعون.

هناك إعتبار أكثر أهمية يتمثل في التحدي الفلسفي الذي يواجه دراسات أصل الكون، إذ أن معظم دراسات أصل الحياة التي يقوم بها علماء الفيزياء لا تأخذ في الاعتبار إلا نادراً البعد الفلسفي في النتائج.

في المقابل، فإن الفلاسفة لم يقولوا سوى القليل عن الطبيعة وأصل الحياة. السؤال الفلسفي الذي لم يتم الإجابة عليه في دراسات أصل الحياة هو هذا: كيف يمكن لكونٍ ذو مادة لا عقل لها أن تنتج كائنات لها نهايات جوهرية Intrinsic ends، ولها قدرات على التكاثر، و«مشفرة كيميائياً» coded chemistry؟ هنا نحن لا نتعاطى مع علم الأحياء Biology، وإنما نتحدث عن مشكلة مختلفة تماماً.

---

(1) Freeman J. Dyson, *Disturbing the Universe* (New York: Harper & Row, 1979), 250. Also cited in John Barrow and Frank Tipler, *The Anthropic Cosmological Principle* (Oxford: Clarendon, 1988), 318.

## الكائن العضوي الهادف

### The Purpose-Driven Organism

دعونا ننظر أولاً في طبيعة الحياة من وجهة نظر فلسفية. تمتلك المادة الحية هدفاً موروثاً أو نظاماً محدداً للغاية ليس موجوداً على الإطلاق في المادة التي جاءت منها. في واحدة من الأعمال الفلسفية القليلة التي كتبت حول الحياة، قدم ريتشارد كاميرون Richard Cameron تحليلاً مفيداً عن وجهة directedness الكائنات الحية. الكائن الحي كما يقول كاميرون غائي teleological، بمعنى أنه يملك نهايات أو أهداف أو غايات.

«علماء الأحياء المعاصرون وفلاسفة علم الأحياء، والعاملين في مجال «الحياة الاصطناعية»، كما يقول كاميرون «لم يأتوا حتى الآن ببيان مقنع لما ينبغي أن يكون حياً، وقد دافعت عن فكرة أن أرسطو يمكن أن يساعدنا في ملأ هذا الفراغ.... فأرسطو لم يدع أن الحياة والغائية متلازمان ببساطة بالصدفة، وإنما عرف الحياة باصطلاحات غائية، وأعتبر أن الغائية هي أمر أساسي لحياة الكائنات الحية»<sup>(1)</sup>.

أصل التكاثر الذاتي هو المشكلة الرئيسية الثانية. ويلاحظ الفيلسوف المتميز جون هالدين John Haldane أن نظريات أصل الحياة «لا تقدم تفسيراً كافياً، لأنها تفترض مسبقاً وجود التكاثر الذاتي في مرحلة مبكرة، ولم يتبين أن هذا التكاثر يمكن أن يتم من خلال الوسائل الطبيعية من أصل مادي»<sup>(2)</sup>.

(1) Richard Cameron, "Aristotle on the Animate: Problems and Prospects," *Bios: Epistemological and Philosophical Foundation of Life Sciences*, Rome, February 23–24, 2006.

(2) John Haldane, "Preface to the Second Edition," in *Atheism and Theism (Great Debates in Philosophy)*, J. J. C. Smart and John Haldane (Oxford: Blackwell, 2003), 224.

يلخص ديفيد كونواي هذين المأزقين الفلسفيين في رده على إدعاء هيوم بأن نظام الحفاظ على الحياة في الكون لم يصمم من قبل أي شكل من أشكال الذكاء. التحدي الأول هو في تقديم تفسير مادي «للانبثاق الأول للمادة الحية من مادة غير حية». كون المادة حية يعني أن لها نظاماً غائياً، وهو غير متحقق فيما هو قبلها. أما التحدي الثاني فهو تقديم تفسير مادي «للانبثاق الحياة من الأشكال الأولية المتقدمة، التي كانت غير قادرة على التكاثر ذاتياً، وإنتاج كائنات حية قادرة على التكاثر. من دون وجود مثل هذه القدرة، فإنه لم يكن ممكناً لهذه الأنواع المختلفة أن تنبثق من خلال طفرة عشوائية وانتقاء طبيعي.

وفقاً لذلك، فإن هذه الآلية لا يمكن الاحتجاج بها في أي تفسير لكيفية إنبثاق صور حياة تتوفر فيها هذه القدرة من أشياء تفتقر لذلك. ويخلص كونواي إلى أن الظواهر البيولوجية هذه «تزودنا بالسبب الذي يجعلنا نشك في أي تبرير ممكن لانبثاق صور الحياة من أساس مادي، وهو ما يجعلنا نلجأ مرة أخرى إلى الحجة الغائية»<sup>(1)</sup>.

---

(1) David Conway, The Rediscovery of Wisdom (London: Macmillan, 2000), 125.220

## تحدي تصويري عميق

### A Deep Conceptual Challenge

يتعلق البعد الفلسفي الثالث لأصل الحياة بأصل تشفير coding ومعالجة المعلومات الذي هو أمر أساسي لجميع أشكال الحياة. أفضل وصف لذلك، قدم من قبل عالم الرياضيات ديفيد بيرلينسكي David Berlinski، الذي يشير إلى أن هناك دراما غنية تحيط بفهمنا الحالي للخلية.

تتكرر الرسالة الوراثية في الحمض النووي في النسخ المتماثلة، ثم يتم نسخها من الحمض النووي إلى الحمض النووي الريبوزي (RNA) <sup>(1)</sup>. وبعد هذا تتم ترجمة الرسالة ونقلها من الحمض النووي الريبوزي RNA إلى الأحماض الأمينية، وأخيراً يتم تجميع الأحماض الأمينية إلى بروتينات. يتم التنسيق بين الهيكلين الأساسيين لمعالجة المعلومات والنشاط الكيميائي في الخلية عن طريق شفرة وراثية عالمية.

الطبيعة الرائعة لهذه الظاهرة تصبح واضحة عندما نسلط الضوء على كلمة «شفرة». يقول بيرلينسكي: «الشفرة في حد ذاتها مألوفة بحدٍ كافٍ، فهي عبارة عن مخطط إعتباطي arbitrary أو نظام للربط بين اثنين من الموضوعات المنفصلة. لنأخذ مثلاً مألوفاً، فشفرة مورس Morse code على سبيل المثال تنسق النقاط والشرطات مع الأحرف الأبجدية. وعندما نستخدم كلمة «إعتباطي»، فإننا نريد

---

(1) عبارة عن بوليمر حمضي نووي مؤلف من ارتباط تكافئي لمجموعة من النيكلوتيدات. تم تكوين الحمض النووي الريبوزي عن طريق عملية النسخ الوراثية اعتماداً على بنية المورثات في الدنا بوساطة أنزيمات تدعى أنزيمات بلمرة RNA ثم تجرى عليها تعديلات أخرى بوساطة أنزيمات أخرى. تعمل الرنا كقالب لترجمة الجينات إلى بروتينات، وأيضاً كناقل للحموض الأمينية إلى الريبوسومات لتشكيل البروتينات، وأيضاً هو مكون أساسي في بنية الريبوسوم.

بذلك التفريق بين الشفرة والربط الفيزيائي الصرف بين موضوعين. لنأخذ مثلاً ملموساً، فشفرة مورس Morse code على سبيل المثال تتسق النقاط والشرطات مع الأحرف الأبجدية<sup>(١)</sup>، وعندما نستخدم كلمة إعتباطي فإننا نريد بذلك التفريق بين الشفرة وبين الربط الفيزيائي بين جسمين، وعندما نقول أن الشفرة تتضمن مخططاً أو رسماً فإننا نريد أن نؤكد على مفهوم الشيفرة باللغة الرياضية، وعندما نشير إلى أن الرموز تعكس الارتباط على نحو ما فإننا نعيد تصور الشفرة إلى استخداماتها البشرية.»

هذا بدوره يقودنا إلى السؤال الكبير: «هل يمكن أن نفسر أصول نظام التشفير الكيميائي بطريقة لا تجعلنا بحاجة إلى اللجوء إلى تفسير هذه الشفرات واللغات وأنظمة التواصل، على أساس الكلمات الرائجة في عالم المادة؟»<sup>(٢)</sup> كارل وويس Carl Woese وهو أحد رواد دراسات أصل الحياة، يلفت النظر إلى الطبيعة الفلسفية الغامضة لهذه الظاهرة، فقد كتب في مجلة RNA قائلاً «الحقائق التشفيرية والميكانيكية والتطورية لهذه المسألة تصبح مسائل منفصلة. فكرة تعبير الجين gene expression، على غرار فكرة تكرار الجين gene replication القائمة على مبدأ فيزيائي لم تعد صحيحة. ليس فقط لأنه لا وجود لمبدأ فيزيائي، ولكن وجود الشفرة هو مجرد لغز. قواعد التشفير معروفة. ولكنها لا توفر أية إشارة لماذا توجد الشفرة ولماذا توجد آلية التشفير على النحو التي هي عليه. يعترف وويس بأننا لا نعرف أي شيء عن هذا النظام. «أصل الترجمة، قبل أن تصبح

(١) شفرة موريس هي شفرة حرفية من أجل إرسال المعلومات التلغرافية، باستخدام تتابعات قياسية من عناصر طويلة وقصيرة تعبر عن الحروف والأرقام والعلامات والحروف الخاصة الموجودة في الرسالة. العناصر الطويلة والقصيرة من الممكن أن يتم تكوينها عن طريق صوت، علامات أو فتح وغلق المفاتيح وهما مشهورين على أنهم نقاط وعلامات ماثلة.

(2) David Berlinski, "On the Origins of Life," Commentary (February 2006): 25, 30

ألية صحيحة لفك الشفرة، صارت الآن جزءاً من الماضي، ولا أريد أن أدخل في تخمينات عن عملية صعود نجمها، كما لا أريد أن أدخل في تخمينات حول أصل نظام الشحن tRNA أو الشفرة الجينية Q<sup>(1)</sup>.

يسلط بول ديفيز الضوء على المشكلة نفسها. ويلاحظ ديفيز أن معظم نظريات النشوء الحيوي ركزت على كيمياء الحياة Chemistry of life، ولكن «الحياة هي أكبر من مجرد مجمع للتفاعلات الكيميائية، فالخلية هي أيضاً مكان لنظام تخزين ومعالجة وتكرار المعلومات. نحن بحاجة لشرح أصل هذه المعلومات، والطريقة التي تتم بها معالجة المعلومات، وهو ما يؤكد على أن «الجين ليس سوى مجموعة من الأوامر الترميزية بالإضافة إلى أنه وصفة لتصنيع البروتينات». الأهم من ذلك، أن هذه التعليمات الوراثية ليست من نوع المعلومات التي تجدها في الديناميكا الحرارية والميكانيكا الإحصائية، وإنما تشكل معلومات دلالية semantic، information، وبعبارة أخرى، لديها معنى محدد، وهذه التعليمات يمكن أن تكون فعالة فقط في بيئة قادرة على تأويل المعنى بالشفرة الوراثية». وعندها يبرز السؤال الأصلي إلى الواجهة وهو «كيف يمكن للمعلومات ذات المعنى أو الدلالة أن تتبثق بصورة فورية من مجموعة من الجزئيات غير العاقلة الخاضعة لقوى عمياء وفاقدة الهدف، وهذا ما يمثل تحدياً فكرياً عميقاً»<sup>(2)</sup>.

---

(1) Carl Woese, "Translation: In Retrospect and Prospect," RNA (2001): 1061, 1056, 1064.

(2) Paul Davies, "The Origin of Life II: How Did It Begin?" [http://aca.mq.edu.au/PaulDavies/publications/papers/OriginsOfLife\\_II.pdf](http://aca.mq.edu.au/PaulDavies/publications/papers/OriginsOfLife_II.pdf).

## الرؤية من خلال زجاج معتم

### Through A Glass Darkly

في الحقيقة، لدى علماء الأحياء البكتيرية نظريات تطور تفسر كيف نشأت المادة الأولى، ولكنهم يتعاملون مع جوانب مختلفة من المشكلة. إنهم يتعاملون مع تفاعل المواد الكيميائية فيما بينها، في حين أن سؤالنا هو حول الكيفية التي يكون بها شيئٌ ما متحرك بشكل جوهري نحو غاية محددة، وكيف يُدار أمر المادة بآلية التشفير؟ لكن حتى على المستوى الخاص بهم، فإن علماء الأحياء البكتيرية لازالوا بعيدين جداً عن جواب محدد لهذه الأسئلة. لقد تم تسليط الضوء على هذا الموضوع بواسطة اثنين من أعلام الباحثين في أصل الحياة.

أندي نول Andy Knoll وهو أستاذ علم الأحياء في جامعة هارفارد ومؤلف كتاب «الحياة على كوكب ناشئ: أول ثلاثة مليارات سنة من الحياة» Life on a Young Planet: The First Three Billion Years of Life يقول: «إذا حاولنا تلخيص ما نعرفه عن التاريخ العميق للحياة على الأرض، عن أصل الحياة، عن مراحلها المتعددة التي أعطت فرصة لنشأة الأحياء، فإن علينا أن نعترف بأننا ننظر هنا من خلال زجاج معتم. نحن لا نعرف كيف بدأت الحياة على هذا الكوكب، ولا نعرف متى بدأت الحياة على وجه الدقة، ولا نعرف ما هي الظروف التي بدأت فيها»<sup>(1)</sup>.

كتب رئيس الجمعية الدولية لدراسة أصل الحياة أنتونيو لازانو Antonio Lazcano في أحد التقارير قائلاً «هناك خاصية للحياة تبدو مؤكدة: ما

---

(1) Andy Knoll, PBS Nova interview, May 3, 2004.

كان للحياة أن توجد لولا وجود آلية جينية - آلية تستطيع تخزين ونقل معلوماتها الذرية التي يمكن أن تتغير بمرور الوقت ... ليس واضحاً بشكل دقيق كيف نشأت الآلية الأولى للوراثة»، ويكمل قائلاً «في الحقيقة قد لا نكون قادرين على معرفة مسيرة الحياة على الإطلاق»<sup>(1)</sup>.

أما بالنسبة لأصل التكاثر، فإن جون مادوكس John Maddox، وهو المحرر الفخري لمجلة «الطبيعة» Nature كتب قائلاً «السؤال الرئيسي هو متى (ثم كيف) تطور التكاثر الجنسي؟ على الرغم من مرور عقود من التخمين لازلنا لا نعرف»<sup>(2)</sup>. وأخيراً، يشير العالم جيرالد شرويدر Gerald Schroeder إلى أن وجود الظروف التي ساعدت على وجود الحياة لا تفسر كيف خرجت الحياة إلى الوجود. لقد أستمرت الحياة على الكوكب فقط بسبب توفر الظروف المناسبة التي وجهت المادة لإنتاج كائنات هادفة end-directed وقابلة للتكاثر».

كيف نفسر أصل الحياة؟ جورج والد George Wald الحائز على جائزة نوبل في علم الوظائف قال في إحدى المرات «لقد اخترنا أن نصدق المستحيل: أن الحياة نشأت فجأة عن طريق الصدفة»، وفي السنوات اللاحقة، خلص جورج والد إلى أن العقل الأزلي الذي سماه مصفوفة الواقعية الفيزيائية matrix of physical reality التي يتكون منها الكون هي التي وهبت الحياة «كيف ذلك، وهناك احتمالات أخرى في حين أننا في كون يمتلك خصائص مميزة وغريبة هي التي وهبت الحياة؟ لا بد أن أعترف أنه بدا لي في الأونة الأخيرة أن كلا السؤالين متطابقين. هذا على فرض أن العقل، وبدلاً من أن يكون قد تطور من خلال الحياة، فإنه كان

---

(1) Antonio Lazcano, "The Origins of Life," Natural History (February 2006).

(2) John Maddox, What Remains to Be Discovered (New York: Touchstone, 1998), 252.

موجوداً على الدوام على شكل مصفوفة matrix تمثل مصدر الواقعية الفيزيائية، بحيث أن مكونات الواقعية الفيزيائية هي مكونات عقلية. العقل هو الذي يحتوي الكون الفيزيائي، وهو الذي وهب الحياة، وفي النهاية من خلاله وُجدت المخلوقات التي تعرف وتصنع: العلم والفن والتكنولوجيا»<sup>(1)</sup>.

هذه هي الخلاصة. إن التفسير المرضي الوحيد لأصل الحياة الهادفة القابلة للتكاثر كما رأينا هو العقل الذكي اللامتناهي.

---

(1) George Wald, "Life and Mind in the Universe," in *Cosmos, Bios, Theos*, ed. Henry Margenau and Roy Abraham Varghese (La Salle, IL: Open Court, 1992), 218.

الفصل  
الثامن

هل تأتي بعض الأشياء من لا شيء؟  
Did Something Come From Nothing



## هل تأتي بعض الأشياء من لا شيء؟ Did Something Come From Nothing

في أحد المشاهد الأخيرة من فيلم «صوت الموسيقى» The Sound of Music، تعترف ماريا التي لعبت دورها جولي أندرو وكابتن فون تراب الذي لعب دوره كريستوفر بلمر، يعترف كل منهما بحبه للأخر. كل منهما كان متفاجئاً بحب الأخر له، وتساءلاً كيف حدث ذلك الحب، ولكنهما على ثقة أنه جاء من مكان ما، وأخذاً يغنيان «ليس هناك شيء جاء من لا شيء، لا شيء يمكنه ذلك»<sup>(1)</sup>.

ولكن هل هذا صحيح؟ أم يمكن أن يأتي شيء من لا شيء؟ وكيف يمكن أن يؤثر هذا السؤال على فهمنا للكيفية التي جاء بها الكون للوجود؟ هذا هو موضوع البحث العلمي الملتزم في مجال الكونيات، وكذلك فيما يخص الحجة الكونية في الفلسفة. في كتاب «فرضية الإلحاد»، عرّفت الحجة الكونية على أنها الحجة التي تبدأ من فرضية وجود الكون، وأقصد بالكون القائم الذي جاء إلى الوجود بسبب كائن آخر (أو ذلك الذي يمكن أن يكون سبباً لوجود بقية الكائنات).

---

(1) "Something Good," music and lyrics by Richard Rodgers, 1965.

## الكون النهائي

### The Ultimate Universe

---

في كتاب «فرضية الإلحاد» والكتابات الإلحادية الأخرى، جادلت بأن علينا أن نأخذ الكون نفسه وأكثر قوانينه الأساسية بإعتبارها أموراً نهائية. كل نظام تفسير يجب أن يبدأ من نقطة ما، ونقطة البداية هذه لا يمكن تفسيرها من داخل النظام. لذا لا محالة، أن كل الأنظمة من هذا القبيل تشتمل على الأقل على بعض الأساسيات التي لا تُفسّر في ذاتها. وهذه النتيجة تأتي من الطبيعة الأساسية للتفسير المتعلقة بالسؤال: لماذا يوجد شيء ما على الحالة التي هو عليها.

لنفترض على سبيل المثال، أننا لاحظنا أن الطلاء الأبيض الجديد الموجود فوق الموقد أصبح لونه بنياً متسخاً، وبعد أن بحثنا عن السبب، أكتشفنا أن هذا ما يحدث عادة عند تفاعل مثل هذا النوع من الطلاء مع هذا النوع من المواقد. وتقدمنا خطوة ثانية في معرفة السبب، فعلمنا أن هذه الظاهرة يمكن تفسيرها على أساس إطرادات أوسع وأعمق لتكوين كيميائي: فحين يتفاعل الكبريت المتصاعد من لهب الموقد مع شيء ما في الطلاء فإنه يعمل على تكوين مركب كيميائي، وأن هذا هو السبب في تغير لون الطلاء. وبعد البحث أكثر أكتشفنا وجود قذارة في مطبخنا، وهي إحدى النتائج التي لا تعد ولا تحصى المترتبة على نظرية الذرية-الجزيئية atomic-molecular theory لتكون المادة. هكذا هو الحال في عملية التفسير، ففي كل مرحلة نفترض بعض الأمور كحقيقة مسلمة، وهذا هو حال الأشياء.

في مناظراتي مع المعتقدين بوجود إله، شاهدت كيف أنهم يصلون إلى هذه المرحلة التي لا مفر منها. مهما فكر الموحدون، لتفسير شيء ما، من خلال إرجاعه

إلى وجود وطبيعة الإله، فلا يمكنهم تفادي أخذ تلك الحقيقة بوصفها نهائية وجوهرية وتتجاوز التفسير. ولا يمكنني رؤية كيف يمكن أن يعرف شيء ما ضمن كوننا، أو يُحدس عقلاً، بوصفه يشير إلى واقعية ما متعالية تقبع خلف، فوق، أو تتجاوز. إذاً لماذا لا نأخذ الكون ومعظم معالمه الأساسية بوصفها هي الحقيقة النهائية.

الآن، معظم النقاشات التي عرضت لها فيما سبق لا تستند إلى التطورات الحادثة في مجال الكونيات. في الحقيقة، أن إثين من كتبي الرئيسية ضد اللاهوتية كتبتهما قبل وقت طويل من ظهور نظرية الانفجار الكبير أو قبل عرض حجة التوافق Fine-tuning argument المنبثقة من فكرة الثوابت الفيزيائية Physical constants. ولكن مع بداية الثمانينات من القرن الماضي، بدأت بإعادة النظر في كلا الفكرتين. وقد أعترفت آنذاك بأن على الملحد أن يشعروا بالإحباط من الإحصاءات الكونية الحديثة، حيث بدأ أن علماء الكونيات يقدمون الدليل العلمي على ما قاله القديس توما الأكويني من أنه يصعب على الفلسفة إثباته، يعني أن للكون بداية.

## في البداية

### In The Beginning

---

عندما تعرفت كملحد على نظرية الانفجار الكبير، بدا لي أنها سوف تحدث فارقاً كبيراً لأنها تقول بأن للكون بداية، وأول جملة في سفر التكوين تذكر أنه «في البداية خلق الإله السموات والأرض»، وكانت مرتبطة بما حدث في الكون.

طالما أن الكون يمكن أن لا يكون بلا نهاية فحسب، بل أيضاً بلا بداية، فيبقى من السهل أن ترى وجوده (ومعظم معالمه الرئيسية) كحقائق مسلمة. وإذا لم يكن هناك أي سبب يدعو للاعتقاد بأن للكون بداية، فإنه لا حاجة لافتراض وجود شيء ما خلق كل شيء كمصادرة. ولكن نظرية الانفجار الكبير غيرت كل شيء. فإذا كان للكون بداية، فإنه يصبح من المشروع تماماً، بل لا مفر من، إثارة السؤال عن الذي أنتج هذه البداية. وهذا ما يغير الوضع بشكل كامل.

وفي نفس الوقت، توقع أن الملحدون سوف يرون أن فكرة الانفجار الكبير تتطلب تفسيراً فيزيائياً، وهو ما قد لا يكون متاحاً للبشر. ولكن أعتز أيضاً بأن المعتقدين بالإله يمكن أن يرحبوا بشكل منطقي بفكرة الانفجار الكبير باعتبارها تميل لتأكيد اعتقادهم المسبق بأنه «في البدء» الكون كان قد خلق بواسطة الإله.

يبدو أن علماء الكونيات المعاصرين مرتبكين، كما هو حال الملحدون، في إمكانية أن تتضمن إكتشافاتهم نتائج لاهوتية. وكنتيجة لذلك، أبتكروا طرقاً للهروب تحافظ على الوضع الإلحادي القائم. ومن ضمن هذه الطرق فكرة الأكوان المتعددة، أي العدد الهائل من الأكوان الذي نشأ من أحداث متقلبة من الفراغ اللانهائي، أو ما يُسمى بالكون المكتفي بذاته حسب تعبير ستيفن هوكينغ.

## إلى أن تحين البداية

### Until A Beginning Comes Along

---

كما ذكرت سابقاً، لم أجد أن فكرة الأكوان المتعددة مفيدة. وقلت أيضاً بأن التعاطي مع فرضية الأكوان المتعددة كمصادرة هو بديل يائس. إذا كان وجود كون واحد يحتاج إلى تفسير، فإن وجود أكوان يحتاج إلى تفسير أكبر بكثير، وعندها يتضاعف حجم المشكلة بمقدار عدد الأكوان الكلي. هذا الوضع يبدو مثل طفل صغير لا يصدق معلمه إدعاءه بأن الكلب أكل كراسة واجبه المدرسي، فيستبدل ذلك بالإدعاء بأن مجموعة من الكلاب أكلت كراسة واجبه.

أخذ ستيفن هوكنج إتجاهاً آخر في كتابه «ملخص لتاريخ الزمان». فقد كتب هوكنج قائلاً «إنه إذا كان بإمكاننا أن نفترض وجود بداية لهذا الكون فإنه بإمكاننا كذلك أن نفترض وجود خالق لهذا الكون. ولكن إذا كان الكون في الواقع مكتفي بذاته، وليس له حدود، فإنه لن يكون له بداية ولا نهاية، فهو موجود وانتهى الأمر. إذاً هل بقي مكان للخالق؟»<sup>(1)</sup>. في عرضي للكتاب بعدما تم نشره، أشرت إلى أن الاقتراح المتضمن في نهاية السؤال لن يساعد إلا في اللجوء إلى غير الإلهي. وتناسقاً مع هذه الخاتمة، قلت: الذين ليسوا من علماء الفيزياء النظرية، سيكونون مجبرين على أن يردوا، مثل بعض الشخصيات في مسلسل برودواي (مسلسل فكاهي): «إذا لم يكن الانفجار الكبير هو البداية، فإنه سيظل كذلك على الأقل حتى تظهر بداية أخرى». بدا على هوكنج على الأقل شيء من التعاطف مع هذا

---

(1) Stephen Hawking, A Brief History of Time (New York: Bantam, 1988), 174.

الرد، حيث قال «إن تمدُّ الكون لن يمنع من وجود الخالق، ولكنه سوف يزيد فقط من الوقت اللازم لإنجاز عمله»<sup>(1)</sup>.

كتب هوكينز أيضاً قائلاً: «قد يقول قائل أن الزمان بدأ مع الانفجار الكبير، وهذا ببساطة يعني أن الزمان قبل الانفجار الكبير لا يمكن تحديده»<sup>(2)</sup>.

استنتجت من هذا النقاش أنه حتى لو اتفقنا على أن الكون بدأ مع الانفجار الكبير فإن الفيزياء يجب أن تظل لأدرية بشكل قاطع، فمن المستحيل من الناحية الفيزيائية إكتشاف من الذي سبب الانفجار الكبير. من المؤكد أن الإيحاء بأن الكون المتغير باستمرار في مقابل التصرف في الكون الثابت الخامل إلى الأبد يحدث فارقاً في المناقشة. لكن المغزى من القصة في نهاية المطاف هو أن القضايا المطروحة قضايا فلسفية وليست قضايا علمية، وهو ما يعيدنا إلى الحجة الكونية.

---

(1) Antony Flew, "Stephen Hawking and the Mind of God" (1996), [http://www.infi-dels.org/library/modern/antony\\_flew/hawking.html](http://www.infi-dels.org/library/modern/antony_flew/hawking.html).

(2) Hawking, A Brief History of Time, 9.

## شيء ما أكبر من أن يفسره العلم

### Something Too Big For Science To Explain

ديفيد هيوم هو الناقد الفلسفي الأساسي للحجة الكونية لوجود الإله. وعلى الرغم من أنني أتفقت مع حجج هيوم في كتيبي السابقة، إلا أنني بدأت في التعبير عن شكوكي حول منهجه. على سبيل المثال، كنت قد أشرت في مقال في كتاب تذكاري للفيلسوف تيرينس بينلهم Terence Penelhum أن بعض فرضيات تفكير هيوم أسفرت عن أخطاء قاتلة. وهذه الأخطاء تشمل أطروحته في أن ما نسميه «أسباباً» ليست سوى نوع من «تداعي المعاني» أو الافتقار لمثل هذا التداعي. قلت أن أصل - أو على الأقل التحقق من صحة - تصوراتنا السببية، والأسس التي يفترض أن تبنى عليها معارفنا السببية، تستند إلى وفرة وتكرار النشاط التجريبي لمخلوقات مكونة من لحم ودم، وفاعلة في عالم العقل-المستقل mind-independent world (تجربة محاولة سحب ودفع أشياء، والنجاح في سحب أو دفع بعضها وعدم النجاح مع البعض الآخر، وتجربة التساؤل ماذا سيحدث لو)، وماذا عن التجريب وبالتالي الإكتشاف من خلال التجربة «ماذا يحدث عندما». يبدو لي الأمر، أن الخبرة التجريبية تتمثل في أننا كفاعلين نتعرف، ونطبق، ونصحح فكرة السبب والمسبب، ونحدد ماذا نعني بمصطلح ضروري ومصطلح مستحيل. توصلت في النهاية إلى أن محاولة هيوم الخيالية لن توفر لنا بوصلة لتحديد معاني للسبب والمسبب وقوانين الطبيعة<sup>(1)</sup>.

(1) Antony Flew, "The Legitimation of Factual Necessity," in Faith, Scepticism and Personal Identity, ed. J. J. MacIntosh and H. A. Meynell (Alberta: University of Calgary Press, 1994), 111-17.

ولكن في كتاب ديفيد كونواي «إعادة اكتشاف الحكمة»، وطبعة عام ٢٠٠٤ من كتاب ريتشارد سوينبيرن «وجود الإله» وجدت ردوداً متفاعلة من نقد هيوم (وكانت) للحجة الكونية. تناول كونواي بشكل منهجي كل اعتراضات هيوم. على سبيل المثال، يعتقد هيوم أنه لا يوجد سبب لوجود أي سلسلة من الكائنات المادية وراء مجموع كل عضو من أعضاء هذه السلسلة. إذا كانت هناك سلسلة لا بداية لها لكائنات غير ضرورية الوجود، فإن ذلك يعد سبباً كافياً للكون ككل. رفض كونواي هذا الاعتراض على أساس أن «التفسيرات السببية لأجزاء من -من هذا القبيل- بلغة الأجزاء الأخرى، لا يمكن أن تضيف شيئاً إلى التفسير السببي للكل، إذا كانت المفردات المذكورة كأسباب هي مفردات يحتاج وجودها في ذاته إلى تفسير سببي». لنفترض أن هناك فيروس كمبيوتر قادر على تكرار نفسه في أجهزة كمبيوتر متصلة بشبكة. حقيقة أن ملايين الكمبيوترات المرتبطة بالشبكة قد أصيبت بالفيروس، لا يفسر بذاته وجود فيروس يكرر نفسه.

وفيما يتعلق بحجة هيوم ذاتها، كتب سوينبيرن:

«السلسلة اللانهائية ككل لن تقدم لنا تفسيراً على الإطلاق، لأنه لن يكون هناك أسباب من أعضاء السلسلة تقع خارج هذه السلسلة. في هذه الحالة، سيكون وجود الكون على مر الزمن اللانهائي حقيقة قاهرة متعذرة التفسير. سيكون هناك تفسيراً (بلغة القوانين) للسؤال: لماذا يستمر موجود ما بالوجود؟ ولكن ما سيتعذر تفسيره هو استمرار الكون في الوجود في الزمان اللامتناهي. وجود الكون المادي المعقد عبر زمن متناهي أو لا متناهي «أكبر بكثير» من قدرة العلم على التفسير»<sup>(1)</sup>.

---

(1) Richard Swinburne, The Existence of God (Oxford: Clarendon, 2004), 142.

## الحاجة إلى عنصر إبداعي

### The Need For A Creative Factor

إذا كان ردنا على نقد هيوم كافياً، يصبح من الممكن تطبيق الحجة الكونية في سياق علم الكونيات الحديث. يجادل سوينبيرن بأننا يمكن أن نفسر الأوضاع state of affairs فقط بلغة أوضاع أخرى. القوانين بحد ذاتها غير قادرة بشكل كافي على تفسير هذه الأوضاع، وكتب سوينبيرن يقول «إذا لم يكن لدينا قوانين في بداية الكون لأنه لم يكن هناك أوضاع قبل ذلك فإنه لا يمكننا تفسير الكون»<sup>(1)</sup>. إذا كان هناك قانون معقول لتفسير بداية الكون، فلا بد أن يقول لنا شيئاً ما مثل «الفراغ المكاني يقود بالضرورة لظهور الطاقة - المادة». وهنا «الفراغ المكاني» هو ليس عدماً بقدر ما هو «مفردة مُعرّفة»، شيء ما موجود هناك. هذا الاعتماد على القوانين للحصول على الكون الذي بدأ من «الفراغ المكاني» يطرح أيضاً سؤالاً: كيف أن الطاقة - المادة matter-energy نتجت في الزمن الصفري  $t_0$  وليس في زمن آخر.

أظهر فيلسوف فلسفة العلم جون ليزلي John Leslie أن أياً من التكهّنات الكونية المألوفة اليوم لا يمنع من احتمال وجود الخالق. وقد تكهن عدد من علماء الكون بأن الكون نشأ من «العدم». في عام ١٩٧٣، وضع إدوارد تريون Edward Tryon نظرية مفادها أن الكون كان يتذبذب في فراغ في فضاء أكبر. وجادل ليزلي بأن الطاقة الكلية للكون كانت صفراً، لأن الجاذبية التي تمسك طاقة الكون هي كمية سلبية في معادلات الفيزياء.

(1) Richard Swinburne, "The Limits of Explanation," in *Explanation and Its Limits*, ed. Dudley Knowles (Cambridge: Cambridge University Press, 1990), 178-79.

باستخدام نهج آخر، تكهن كل من جيم هارتل Jim Hartle، وستيفن هوكينغ Stephen Hawking، وأليكس فيلكن Alex Vilenkin بأن الكون الكمي-المتذبذب quantum-fluctuated جاء من العدم. «العدم» عبارة عن حالة خاصة من الرغبة الزمكانية الفوضوية مع إرتفاع خيالي في كثافة الطاقة. تكهن آخر (من هوكينغ) يقول «إن الوقت يصبح أكثر فأكثر مشابه للمكان في الأوقات الأولى من الانفجار الكبير».

يعتقد ليسلي أن هذه التكهّنات لا علاقة لها بالموضوع، ويقول «بغض النظر عن كيفية وصفك للكون باعتباره موجوداً منذ الأزل، أو باعتباره قد انتظم من خارج الزمان والمكان، أو وُجد في الفضاء من دون زمان، أو أنه بدأ بشكل كمي ضبابي حيث لم تكن هناك نقطة بداية، أو أنه نشأ عندما كانت الطاقة الكلية صفراً- فإن الناس الذين يرون أن المشكلة في حدوث وجود هائل نتج من شيء ما بدلاً من حدوثه من لا شيء، سوف يكونون أقل ميلاً إلى أن المشكلة قد حُلّت» .

إذا كانت لديك معادلة تحسب بدقة احتمال وجود شيء من الفراغ فإنه سوف يظل عليك أن تسأل لماذا تنطبق هذه المعادلة في هذه الحالة بالذات. في الحقيقة، لاحظ هوكينج أنه يجب علينا أن ندخل على المعادلات عنصر إبداعي.

في مقابلة بعد وقت قصير من نشر كتابه «موجز في تاريخ الزمان»، أقر هوكينج بأن نموذجه ليس له أي تأثير على وجود الإله. عندما نقول بأن قوانين الفيزياء هي التي حددت كيف بدأ الكون، فكأننا نقول أن الإله لم يختر «أن يسلك الكون بصورة اعتباطية لا نفهمها. ولكنها لا تقول شيئاً عن أن الإله موجود أو غير موجود- فقط تقول أنه ليس اعتباطياً»<sup>(1)</sup>.

(1) Richard Swinburne, "The Limits of Explanation," in *Explanation and Its Limits*, ed. Dudley Knowles (Cambridge: Cambridge University Press, 1990), 178-79.  
(2) John Leslie, *Infinite Minds* (Oxford: Clarendon, 2001), 194-95.

## حجة استقرائية جيدة

### A Good C-Inductive Argument

تم إعادة صياغة الحجة بلغة كونية حديثة. ولكن ليسلي وجد أن ذلك غير مرضي. لاحظ ليسلي أن بعض الناس يدعون بأن وجود الكون في أي لحظة معينة يمكن تفسيره على أساس حقيقة أنه وجد قبل ذلك الوقت وهلم جرأً إلى ما لا نهاية. وهناك علماء فيزياء يعتقدون بأن الكون وجد خلال زمن لا نهائي، إما من خلال سلسلة من الانفجارات أو كجزء من حقيقة التمدد الأبدي الذي أوجد أكوان الانفجار الكبير. في حين أن آخرين يقولون أن الكون وجد من زمن محدود بطريقة حساب معينة، ولكنه وُجد من زمن لا متناهي بطريقة حساب أخرى.

ورداً على هذه الأراء، أكد ليسلي على «أن وجود سلسلة لا متناهية من الأحداث الماضية لا يمكن أن يُعد تفسيراً ذاتياً حين يتم تفسير كل مرحلة من خلال المرحلة التي تسبقها». «إذا كانت هناك سلسلة من كتب الهندسة التي نعتقد بأن كل منها نسخ مما سبقه، فنحن بذلك نظل نحتاج إلى إجابة مقنعة عن سبب وجود هذه الكتب من الأساس، فالسلسلة بأكملها تحتاج إلى تفسير». وأضاف ليسلي قائلاً: «فكر في آلة زمن تسافر إلى الماضي حيث لا يوجد أحد صممها أو صنعها. وجود مثل هذه الأداة يمثل دوراناً للتفسير الذاتي، وحتى لو كان السفر خلال الزمان معقولاً، فإن التفسير الذاتي لن يكون معقولاً»<sup>(1)</sup>.

يلخص ريتشارد سوينبيرن Richard Swinburne عرضه للحجة الكونية بالقول: «هناك فرصة بأن، الإله إذا كان موجوداً، فإنه سيخلق تعقيداً ومحدودية الكون.»

(1) Leslie, *Infinite Minds*, 193–94.

إنه من غير المرجح أن يكون الكون قد وجد بلا سبب، ولكن من المرجح جداً أن الإله وُجد بلا سبب. ولذلك فإن حجة وجود الكون سوف تُحيل إلى وجود الإله بنوع جديد من أنواع الاستقراء». في نقاش جرى حديثاً مع سوينبيرن، لاحظت أن توصيفه للحجة الكونية صحيح من ناحية أساسية. وبعض معالم الحجة تحتاج إلى تعديل، إلا أن هذا التفسير يقود إلى وجود الكون. حجة ريتشارد سوينبيرن الكونية توفر تفسيراً واعداً، ولعله في النهاية أصح التفسيرات.

الفصل  
التاسع

إيجاد مساحة للإله  
Funding Space for God



## إيجاد مساحة للإله Finding Space for God

في المشهد الأول من مسرحية ماكبث Macbeth لشكسبير، وهي إحدى أشهر مسرحياته، يواجه ماكبث وبانكو Banquo وهما أثنان من الجنرالات في الجيش الملكي ثلاثة من الساحرات، حيث تتحدث إليهما الساحرات ثم يختفين. يقول بانكو «الأرض لها فقاعات كما أن للماء فقاعات، وهؤلاء فقاعات كذلك، أين أختفين؟». يرد ماكبث: «في الهواء، ما بدا لك أنه جسد تبخر كهواء في الريح». إنه مسرح ترفيهي وأدب جميل، وفكرة الشخص الذي يختفي «كما الهواء في الريح» نادراً ما تشكل مشكلة لمشاهدي المسرح والأدب، ولكنها في السابق، مثلت عقبة حقيقية للفلاسفة في سعيهم إلى «إتباع الدليل أينما قادهم».

## لا يوجد أحد هناك

There's No One There

---

في كتابي «الإله والفلسفة»، وفي منشورات لاحقة له، ذكرت بأن تصور الإله غير متماسك، لأنه يفترض أن الإله روح معنوية حاضرة في كل مكان وزمان، ووجهة نظري كانت مباشرة. الإنسان كما نفهمه بالمعنى المعتاد مكون من لحم ودم، ولذلك فإن قولنا أن «شخص من دون جسد يبدو بلا معنى له مثل قافية الأبيات المنسوبة إلى هفز ميرنز Hughes Mearns:

وأنا أسير فوق الدرج

قابلت شخصاً لم يكن هناك

ولم يكن هناك اليوم أيضاً

أه كم أتمنى أن يذهب بعيداً

أن تقول بأن هناك «شخص من دون جسد» مشابه جداً لقولك «هناك شخص ما ليس موجوداً هناك». إذا كنا نريد التعرف على شخص من دون جسد، فلا بد أن نمتلك وسائل مناسبة للتعرف على ما نسميه «شخص». أستمر الفلاسفة المتأخرون من أمثال بيتر ستراونسن Peter Strawson وبيدي راندل Bede Rundle في تطوير هذا النقد. وفي الآونة الأخيرة، وجدنا نسخة من هذه الحجة في أعمال جون غاسكين John Gaskin أستاذ الفلسفة والزميل في كلية الثالوث بدبلن. فقد كتب غاسكين «غياب الجسد ليس فقط مبرر واقعي للشك في أصل وجود الشخص (لا شخص هناك) !، بل هو أيضاً مبرر للشك في أن هذا الكيان غير المادي

يمكن أن يكون فاعلاً»<sup>(1)</sup>. تم الرد على هذا النقد من قبل الموحدين، وقد شهدت فترة الثمانينات والتسعينات صحوة للتوحيد في أوساط الفلاسفة التحليليين. قام العديد من هؤلاء المفكرين بدراسات مطولة عن الخصائص المرتبطة بالإله مثل مفهوم الخلود.

تم الرد على هذا النقد من قبل الموحدين. وقد شهدت الثمانينات والتسعينات نهضة إيمانية في التوحيد في أوساط الفلاسفة التحليليين. قام العديد من هؤلاء المفكرين بدراسات مطولة عن الصفات المرتبطة تقليدياً بالإله مثل الخلود.

تصدى إثنان من هؤلاء المفكرين، وهما توماس تريسي Thomas Tracy وبرايين ليفتو Brian Leftow بمنهجية لمسؤولية الدفاع عن تماسك فكرة «روح معنوية حاضرة في كل زمان ومكان». ففي حين تناول تريسي السؤال عن كيفية تعريف كائن لا مادي، حاول ليفتو أن يبين أن الإله يجب أن يكون خارج المكان والزمان وكيف يمكن أن يتصرف الكائن غير المادي في الكون.

---

(1) John Gaskin, "Gods, Ghosts and Curious Persons," unpublished paper.

## كمال الفاعلية The Perfection Of Agency

في كتابه «الإله والفعل والتجسيد» و«الإله الفاعل»، أجاب تريسي باستفاضة على سؤالي كيف يمكن أن يكون هناك شخص دون جسد وكيفية تعريف شخص كهذا. أعتبر تريسي أن الأشخاص (البشري والإلهي) الفاعلين يفعلون عن قصد. وهو يرى الإنسان كفاعل عضوي، كجسد قادر على الفعل القصدي. ولكن على الرغم من أن كل الفاعلين المتجسدين (كأشخاص البشر) يجب أن يكونوا وحدات نفسية (وليست عقول زائد أجساد)، وأنه لا يجب أن يكون كل الفاعلين غير متجسدين.

لا توجد حجة مضادة للثنائية تبين أن الجسد هو شرط ضروري لكيونة الفاعل، طالما أن الشرط الوحيد لكيونة الفاعل هو أن يكون ببساطة قادراً على الفعل القصدي. يرى تريسي أن الإله فاعل، لأن كل أفعاله قصدية. التحدث عن الإله كشخص، هو تحدث عن فاعل يقوم بأفعاله عن قصد. قدرة الإله على الفعل متميزة، والأفعال التي تُعزى إلى الإله لا يمكن من حيث المبدأ أن تُنسب للفاعلين الآخرين. على سبيل المثال، الإله عبر فعله القصدي، فهو الفاعل الذي يمنح الوجود لكل الكائنات.

لاحظ تريسي أنه يمكن تعريف الإله من خلال النمط الفريد لطريقة فعله. «إذا تصورنا الإله بإعتباره الفاعل الكامل، فإنه يمكن القول أن الإله هو فاعل موجود لذاته، وتتبدى حياته كوحدة كاملة من القصد، وهو خالق كل شيء وعلى كل شيء قدير». «أن نقول أن الله يحب، فكأننا نقول أن الله يظهر هذا الحب في أفعاله،

وهذه الأفعال تمثل هويته كفاعل. ولكن الله فاعل بحيث أن نمط حياته وقدرته تختلف بشكل جوهري عنا. «بما أن نطاق ومحتوى فعل الإله مميز، فكذا ستكون خاصية حبه وصبره وحكمته». هذا الفهم للأفعال الإلهية يساعد في إعطاء محتوى لوصفنا للإله بأنه محب أو حكيم، ومع ذلك لا بد أن نعترف بأن فهمنا محدود للغاية<sup>(1)</sup>.

---

(1) Thomas F. Tracy, *God, Action and Embodiment* (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1984), 147, 153. See also *The God Who Acts*, ed. Thomas F. Tracy (University Park: Pennsylvania State University Press, 1994).

## التجهيزات الحقيقية للعالم

### The Real Furniture Of The World

براين ليفتو، وهو استاذ بجامعة أكسفورد، يعالج هذه الأفكار في كتابه «الزمان والخلود» Time and Eternity. في نقاشي معه، أشار ليفتو إلى أن فكرة الإله الخارج عن الزمان والمكان تتوافق مع نظرية النسبية الخاصة<sup>(1)</sup> Special relativity. يقول ليفتو «هناك الكثير من الحجج التي يمكن عرضها لبيان أن الإله خارج الزمان. الشيء الذي أثار عليّ أنك إذا أخذت النسبية الخاصة بشكل جاد جداً، فستعتقد بأن كل شيء في الزمان هو أيضاً في المكان. إنه مجرد اتصال للأبعاد الأربعة. ليس هناك موحد يقول أن الإله موجود في المكان بالمعنى الحرفي. إذا لم يكن الإله في المكان، وكل من في الزمان هو في المكان، فهذا يعني أن الإله ليس في الزمان. السؤال إذاً يصبح هكذا: ما هو المعنى الذي يمكن تصوره لكائنٍ مشابهٍ للشخص خارج عن الزمان؟

يستمر لفتو بالقول «حسناً، الكثير من المحمولات الشخصية لن تنطبق. الإله لا ينسى، أنت تنسى ما هو في الماضي. الإله لا يتوقف عن فعل شيء، أنت تستطيع فقط أن تتوقف عن فعل ما هو في الماضي. ولكن هناك محمولات شخصية، لا يبدو أن مرجعيتها الأساسية: الزمان-الأشياء مثل العلم Knowing، الذي يمكن

(1) النظرية النسبية الخاصة أو نظرية اللاتغير the invariant theory، كما كان يسميها أينشتاين، وهي التسمية الأكثر دقة، هي نظرية فيزيائية للقياس في إطار مرجعي اقترحها ألبرت أينشتاين عام ١٩٠٥. كبديل عن نظرية نيوتن في الزمان والمكان لتحل بشكل خاص مشاكل النظرية القديمة فيما يتعلق بالأمواج الكهرومغناطيسية عامة، والضوء خاصة. وهي تدعى «خاصة» لأنها تعالج حالة خاصة تتعلق بحركة المراجع (المختبرات) بالنسبة لبعضها البعض بسرعة منتظمة وفي خط مستقيم.

أن يكون حالة من الميل دون مرجعية زمانية. وسأجادل بأن القصد هو أيضاً كذلك. القصد هو حالة من الميل بحيث لو كان شيئاً ما سيقع، فإنك ستفعل شيئاً ما. ولذلك أنا أميل للاعتقاد بأن هناك أسباباً للاعتقاد بأن الإله خارج الزمان. وأيضاً أميل للاعتقاد بأنه يمكننا العثور على معنى من هذا القبيل دون الغوص في مستتق الوحل.

السؤال الثاني الذي تصدى له ليفتو كان هو: كيف يمكن أن نتكلم عن روح حاضرة بكل زمن ومكان تقوم بممارسة العمل في المكان أو الكون:

«إذا كان الإله غير زمني، فإن أي شيء يفعله سوف يفعله دفعة واحدة<sup>(١)</sup>، فلا يمكنه أن يفعل شيئاً ما أولاً ثم يفعل الثاني بعد ذلك، وإنما هو فعل واحد له تأثير في أزمان مختلفة. قد يقوم الإله بفعل إرادي واحد، بأن يقول بكلمة واحدة أن الشمس سوف تشرق اليوم، وسوف تشرق غداً، إلا أن هذا الشروق يظهر اليوم ثم يظهر غداً. مع ذلك، هذا ليس هو السؤال الأساسي.

السؤال الأساسي هو كيف يمكن أن يكون هناك رابط سببي بين كائن لا زمني ولا مكاني وبين الكون الزمني - المكاني<sup>(٢)</sup>؟ قدرتك على تقديم معنى لذلك يعتمد على تصورك للسببية<sup>(٣)</sup>. إذا كنت تعتقد أن تصور السبب يستبطن بشكل أساسي مرجعية زمانية - مثال: إذا وقع حدث ما، استتبعه حدث آخر وبينهما علاقات

(١) يذكرنا هذا بقوله تعالى: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ (سورة القمر، ٥٠).

(٢) وهي معضلة تناولها فلاسفة الإسلام ببحث عميق تحت عنوان «ربط القديم بالحادث»، أنظر: «أصول الفلسفة والمنهج الواقعي» للسيد الطباطبائي، وتعليق الشيخ المطهري، المقالة الحادية عشرة، والمقالة الرابعة عشرة.

(٣) وهذا بالضبط ما قدمه صدر الدين الشيرازي، عند طرح نظريته في مناسبات احتياج المعلول إلى العلة، وبين أن مناسبات تلك الحاجة أن المعلول هو عين الربط والتعلق بالعلة، وليس شيئاً يعرض له الربط والتعلق بالعلة.

معينة- فإن هذا المعنى للسبب سوف يتم استبعاده. ولكن هناك تحليل لا يتضمن مرجعية زمانية أساسية. أنا شخصياً أميل إلى أن تصور السبب لا يحمل تحليلاً لأنه مفهوم أولي، والسببية علاقة أولية. إنها جزء من أثاث (تجهيزات) العالم . إذا لم يكن لتصور السبب تحليل، فليس ثمة شيء يمكن أن تقتلعه منه عن طريق تحليل ما يستبعد الربط السببي الأولي بين الإله اللازماني والزمان بأسره<sup>(1)</sup>.

---

(1) Brian Leftow, personal conversation with the author, Oriel College, Oxford University, October 2006

## إمكانية متماسكة A Coherent Possibility

---

على أقل تقدير، بينت دراسات تريس وليفتو أن فكرة الروح الحاضرة في كل زمان ومكان ليست غير متماسكة في جوهرها إذا نظرنا إلى هذه الروح خارج الزمان والمكان حيث تقوم بأفعالها القصدية بطريقة خاصة في المتصل الزماني-المكاني. السؤال عما إذا كانت هذه الروح موجودة، كما نرى، يقع في صلب حجج وجود الإله.

إما بالنسبة لصلاحيّة، هذه الحجج فأنا أّتفق مع استنتاج كونوي الذي قال فيه: «إذا كان منطق الفصل السابق صحيحاً، فإنه لا توجد حجة فلسفية جيدة تنفي وجود الإله لتكون تفسيراً للكون المنظم الذي يظهر لنا. وإن كان الأمر كذلك، فلا يوجد سبب يمنع الفلاسفة للعودة مرة أخرى للتصور الكلاسيكي لموضوعهم، بشرط ألا يكون هناك طريق آخر للظفر بالحكمة»<sup>(1)</sup>.

---

(1) David Conway, The Rediscovery of Wisdom (London: Macmillan, 2000), 134.



الفصل  
العاشر

المجال مشرع لإله الكامل القدرة  
**Open Tp Iminipotence**



## المجال مشرع لإله الكامل القدرة Open Tp Iminipotence

العلم كعلم لا يمكن أن يقدم حجة تؤيد وجود الإله. ولكن البراهين الثلاثة التي ذكرناها في هذا الكتاب: قوانين الطبيعة، الحياة الغائية، ووجود الكون، يمكن فقط تفسيرها على ضوء ذكاء يفسر وجوده بذاته ويفسر كذلك وجود العالم. اكتشاف الإله على هذا النحو لا يأتي من خلال معادلات وتجارب، ولكن من خلال فهم التركيب الذي من خلاله تستطيع إزاحة الغموض عن الخريطة.

الآن، قد يبدو هذا الأمر مجرداً وغامضاً. قد تسأل: كيف أتصرف كشخص عند اكتشاف الواقعية القصوى لروح حاضرة في كل زمان ومكان وقادرة على كل شيء؟ لا بد أن أعيد تكرار القول بأن رحلة إكتشافي للمقدس كانت إلى حد بعيد رحلة عقل. لقد اتبعت الحجة إلى حيث أخذتني، وهي قادتني إلى وجود إله ذاتي الوجود، غير متغير، غير مادي، على كل شيء قدير وبكل شيء عليم.

بالتأكيد، لا بد من مواجهة مشكلة الشرور والمعاناة في العالم. ولكن فلسفياً، هذا الموضوع مختلف عن موضوع وجود الإله. من وجود العالم نصل إلى الأساس لوجوده. قد يكون للطبيعة نواقصها، ولكن هذا لا علاقة له إذا ما كان لها مصدر نهائي أو لا. ولذلك فوجود الإله لا يعتمد على أن هناك تبرير أو عدم تبرير لوجود الشر.

فيما يخص مسألة الشرور، هناك تفسيران لمن يؤمن بوجود الإله. التفسير الأول هو في إله أرسطو الذي لا يتدخل في العالم. أما التفسير الثاني فيستند إلى

حجة الإرادة الحرة، وهي فكرة أن الشر ممكن دائماً ما دام الإنسان حر الإرادة. في الإطار الأرسطي، الإله بمجرد أن أتم خلق الكون، ترك الأمر لقوانين الطبيعة، وإن كان في بعض الأحيان يتدخل من بعيد في القضايا المبدئية مثل إقامة العدل. حجة الإرادة الحرة تعتمد على القبول المسبق بإطار الوحي الإلهي، وهي فكرة أن الإله قد تجلى بذاته.

## منفتح لتعلم المزيد

### Open To Learning More

---

إلى أين أنا ذاهب الآن؟ في المقام الأول، أنا منفتح للتعلم أكثر عن الواقعية الإلهية، وخصوصاً على ضوء ما نعرفه عن تاريخ الطبيعة. وثانياً أن السؤال عما إذا كان الإله قد تجلى بذاته في التاريخ البشري يظل موضوعاً مشروعاً للنقاش. لا نستطيع أن نقصر (نُحدِّد) إمكانيات الإله الذي هو على كل شيء قدير، إلا إذا كان ذلك يؤدي إلى نتيجة غير منطقية. عدا ذلك، كل شيء مفتوح لإله كلي القدرة.

الملحق الثاني في هذا الكتاب هو عرض للنقاش الذي دار حول المسألة الأخيرة مع الأسقف الإنجيلي رايت N. T. Wright، مع إشارة خاصة إلى المقولة المسيحية بأن الإله أصبح رجلاً في شخص السيد المسيح. كما قلت أكثر من مرة ليس هناك دين يتمتع بمزيج من شخصية تمتلك جاذبية مثل شخصية المسيح، ومفكر من الدرجة الأولى مثل القديس بولس. إذا كنت تريد من إله على كل شيء قدير أن يصنع ديناً، فإن ما يبدو لي هو أن هذا هو الدين المطلوب.

## على إستعداد للتواصل

### Willing To Connect

---

أريد أن أعود الآن إلى المثال الذي بدأت به هذا الجزء من الكتاب. تكلمنا عن الهاتف الذي يعمل بالاقمار الصناعية، والذي يتم اكتشافه من قبل قبيلة تعيش في جزيرة والمحاولات التي جرت لفهم طبيعة الهاتف. أنتهى المثال مع حكيم القبيلة الذي تعرض لسخرية وتجاهل من علماء القبيلة. ولكن لنفترض أن المثال أنتهى نهاية مختلفة؛ بقبول العلماء قول الحكيم بأن الهاتف مجرد وسيلة للتواصل مع أناس آخرين. وأنه بعد مزيد من البحث، توصلوا إلى نتيجة أن الهاتف مرتبط بشبكة تبت أصوات أناس واقعيين. وهم الآن (العلماء) يقبلون بفرضية وجود كائنات ذكية «هناك».

ذهب بعض علماء القبيلة إلى أبعد من ذلك، فعملوا على فك شفرة الأصوات التي تأتي من الهاتف، وتوصلوا إلى فهم النغمات والنسق الذي تتحدث به هذه الأصوات. عندها تغير عالمهم، وعرفوا أنهم ليسوا وحيدين. وفي لحظة معينة أجروا إتصالاً.

من السهل تطبيق التشبيه في هذا المثال. اكتشاف ظواهر كقوانين الطبيعة- شبكة الاتصال في المثال السابق- قاد علماء، وفلاسفة، وآخرين إلى قبول وجود عقل ذكي لا نهائي. البعض يدعي أنه قد أجرى مكالمة مع هذا العقل. أما أنا فليس بعد. ولكن من يعرف ما سيحدث لاحقاً؟ «هل بمقدورك أن تسمعني الآن؟»

الملحق الأول

الإلحاد الجديد

تقييم نقدي لدكونز، دينيت،  
ولبرت، هاريس وستينجر

روي أبراهام

Roy Abarahm



## الإلحاد الجديد

### The New Atheism

الأساس الذي يقوم عليه كتاب «الإلحاد الجديد» new atheism هو الاعتقاد بعدم وجود إله، إذ لا وجود للإله الخالد اللامتناهي مصدر كل الموجودات. هذا الاعتقاد الأساسي يحتاج إلى أساس من أجل أن تصح بقية الحجج. أريد أن أقول هنا أن الملاحدة الجدد من أمثال ريتشارد دوكنز Richard Dawkins، ودانيال دينيت Daniel Dennett، ولويس ولبرت Lewis Wolpert، وسام هاريس Sam Harris، وفيكتور شتينجر Victor Stenger، لم يفشلوا فقط في البرهنة على هذا الاعتقاد، بل أنهم أهملوا الظواهر المرتبطة بالسؤال فيما إذا كان الإله موجوداً. أرى أن هناك خمس ظواهر واضحة في تجربتنا المباشرة لا يمكن تفسيرها إلا بلغة وجود الإله. هذه الظواهر هي:

الأولى، العقلانية المتضمنة في جميع خبراتنا الحسية عن العالم الفيزيائي.

الثانية الحياة، القدرة على الفعل المستقل.

الثالثة الوعي، القدرة على أن تكون على علم.

الرابعة، الفكر التصوري Conceptual thought، القدرة على التعبير وفهم الرموز

الموجودة في اللغة. الخامسة، النفس البشرية، «مركز» الوعي والفكر والفعل.

هناك ثلاثة أشياء يجب أن تقال عن هذه الظواهر وارتباطها بوجود الإله .  
أولاً، نحن اعتدنا على سماع الحجج والبراهين لوجود الله . في رأيي، أن  
هذه الحجج مفيدة في توضيح بعض الأفكار الأساسية، ولكن لا يمكن إعتبارها  
«براهين» تحدد مشروعية صورية فيما إذا كان هناك إله . بدلاً من ذلك، فإن كل  
واحدة من الظواهر الخمسة التي نستشهد بها هنا، بطريقتها الخاصة، تفترض  
مسبقاً وجود عقل بديل نهائي . الإله هو الشرط الذي يكمن وراء كل ما هو بديهي  
في خبرتنا .

ثانياً، يجب أن يكون واضحاً من النقطة السابقة، أننا لا نتحدث عن احتمالات  
وفرضيات، وإنما نتحدث عن مواجهة مع حقائق أساسية لا يمكن إنكارها، وإلا  
وقعنا في التناقض الذاتي . وبعبارة أخرى، نحن لا نطبق مبرهنات الاحتمال على  
مجموعات معينة من البيانات، ولكننا نركز أكثر بكثير على السؤال الأساسي حول  
كيف يمكن تقييم البيانات من الأساس . وبالمثل، فإن الأمر ليس مجرد مسألة  
استنتاج وجود الإله من خلال بعض الظواهر المعقدة . بدلاً من ذلك، فإن وجود  
الإله هو فرض مسبق لكل هذه الظواهر .

ثالثاً، يشككي الملحدون القدماء والجدد من عدم وجود دليل على وجود الإله،  
وقد رد بعض الموحدين على ذلك بالقول أن فكرة الإرادة الحرة يمكن أن تصمد  
فقط إذا كان الدليل غير متعسف Noncoercive . النهج المتبع هنا هو أن لدينا كل  
الأدلة التي نحتاجها في تجربتنا المباشرة، وأن الرفض المتعمد لرؤية الواقع هو  
المسؤول عن الإلحاد بصيغته المتعددة .

عند النظر في تجربتنا المباشرة، دعونا نقوم بتجربة فكرية . فكر لدقيقة واحدة  
أن أمامك طاولة من الرخام، هل يمكن أن تتصور أنه بعد مليارات السنين أو بعد

مرور زمن لا نهائي إمكانية أن تتحول هذه الطاولة بصورة مفاجئة أو تدريجية إلى طاولة مدركة وواعية لما حولها، وواعية بهويتها بالكيفية التي نفهم بها الأمور؟ ببساطة هذا أمر لم ولن يقع، وهو ما ينطبق على جميع الجمادات غير الطاولة. بمجرد أن تدرك طبيعة المادة المكونة من كتلة وطاقة تدرك أن طبيعتها تجعل من المستحيل عليها أن تعي أو تفكر و «لا أن تقول أنا». ولكن موقف الملحد يتمثل في أنه في نقطة معينة في تاريخ هذا الكون تحول هذا المستحيل وغير المتصور إلى واقع، وانتقلت المادة غير المميزة إلى الحياة وبعد ذلك أصبحت مدركة وبعدها أصبحت متقنة ثم «صارت أنا» (الكلام بصيغة المتكلم).

لكن عندما نعود إلى مثال الطاولة، نجد ببساطة أن ذلك مثير للضحك، فالطاولة لا تمتلك خصائص الوعي، وإعطاءها وقت لانهائي لا يمكنها من إكتساب هذه الخصائص. حتى إذا قبلنا ببعض السيناريوهات غير المعقولة عن أصل الحياة، فإنه لا بد للمرء أن يتخلى عن عقله حتى يقبل بسيناريو يقول أن الطاولة يمكن أن تنتج تصورات، وعلى المستوى دون الذري Subatomic level ما ينطبق على الطاولة ينطبق على بقية الأشياء.

على مدى الثلاثمائة السنة الماضية، كشفت العلوم التجريبية بما لا يعد ولا يحصى المزيد من البيانات حول العالم الفيزيائي أكثر من أي وقت مضى، وهو ما يصعب على أجدادنا تصوره. وهذا يشمل الفهم الشامل للشبكات الوراثية والعصبية التي تكمن وراءها الحياة والوعي والفكر والذات. بل أبعد من ذلك، فهذه الظواهر الأربعة تعمل مع البنية التحتية الفيزيائية بشكل يُمكننا من الفهم بشكل أفضل من أي وقت مضى.

لا يستطيع العلم أن يخبرنا شيئاً عن أصل أو طبيعة الظواهر في ذاتها. وعلى الرغم من محاولة بعض العلماء تفسير هذه الظواهر على أنها استظهار Manifestations للمادة، فإنه لا مجال للبرهنة على أن فهمي لجملة ما هو إلا انتقال لإشارات عصبية محددة.

من المؤكد أن هناك إشارات عصبية ترافق عملية تفكيري، وقد بين علم الأعصاب الحديث كيف أن مناطق في المخ مسؤولة عن جوانب عقلية معينة. ولكن القول بأن فكرة معينة هي مجرد إنتقال لإشارات عصبية هو قول تافه بنفس درجة تفاهة فكرة أن العدل ما هي إلا حبر على ورق. ولذا فإن القول بأن الوعي والفكر هو ببساطة مجرد إنتقال مادي Physical transactions هو قول غير متماسك.

نظراً لضيق المساحة هنا، أقدم نظرة عامة مختصرة جداً للظواهر الخمس الأساسية التي تمثل أساس لتجربتنا عن العالم، والتي لا يمكن تفسيرها ضمن إطار «الإلحاد الجديد» New atheism. ويمكن الاطلاع على دراسة أكثر تفصيلاً في كتابي المقبل «الحلقة المفقودة».

## العقلانية

### Rationalism

يسأل دوكنز وآخرين: «من خلق الإله؟» من الواضح أن الموحدين والملحدين يتفقون على شيء واحد، وهو أنه إذا كان هناك شيء ما موجود فلا بد أن هناك من سبقه، وأنه دائم الوجود. ولكن كيف جاءت هذه الحقيقة الأبدية؟ الجواب هو أنها لم تأت مطلقاً، لأنها موجودة على الدوام. اختر أمر من الأمرين، إما الإله أو الكون. لا بد من شيء ما دائم الوجود.

في هذه النقطة بالذات تبرز الحاجة للعقلانية. خلافاً لاعتراضات الملحدين، فإن هناك فرقاً جوهرياً بين إدعاء الملحدين والموحدين فيما يخص الكائن الدائم الوجود. يقول الملحدون أن تفسير وجود الكون هو موجود منذ الأزل، ولكننا لا نستطيع تفسير الحالة التي جاءت بهذا الكون الدائم إلى الوجود.

هذا الكون عصي على الشرح ويجب أن يُقبل كما هو. يصر الموحدون في المقابل على أن الإله ليس عصياً على التفسير: وجود الإله عصي على فهمنا، ولكنه ليس عصي على الإله.

إن وجود الإله الأبدي لا بد أن له منطقته الخاص، لأن وجود العقلانية في الكون مشروط بأن يكون هذا الوجود قائم على أسس عقلانية مطلقة .Ultimate rationality

بعبارة أخرى، الحقائق الفردية Singular facts مثل قدرتنا على معرفة وتفسير الحقيقة، والترابط ما بين الأعمال Workings الموجودة في الطبيعة ووصفنا المجرد لهذه الأعمال Abstract descriptions (ما يسميه عالم الفيزياء يوجين فيغنر Eugene Wigner التاثير المنطقي للرياضيات Reasonable Effectiveness of Mathematics) ودور الرموز في النظام الوراثي والعصبي في المستويات الرئيسية للحياة تتمظهر باعتبارها الركائز الأساسية للطبيعة العقلانية Nature of rationality .

ما هو المنطق الداخلي الذي لا نستطيع رؤيته رغم أن الأفكار التقليدية تعطي بعض المؤشرات عن طبيعة الإله؟

على سبيل المثال، السيدة اليانور ستمب Eleonore Stump والسيدة نورمان كرتزمان Norman Kretzmann، تناقشان بالقول أنه عندما نفهم بشكل كامل خاصية البساطة المطلقة للإله فإنه يمكننا تبين كيف أن عدم وجود الإله غير ممكن. يشير ألفن بلانتينغا إلى أن الإله يُفهم على أنه الواجب الوجود في كل الأكوان الممكنة. يمكن للملحدين أن يردوا على هذا الكلام بطريقتين: أن للعالم منطق داخلي لا نستطيع رؤيته، أو أننا لا نحتاج أن نعتقد بوجود إله له منطق الخاص في الوجود. في النقطة الأولى سوف يرد الموحدون بالقول أنه لا وجود لكون أكبر من مجموع ما يتكون منه، ونحن نعلم حقيقة أنه لا يوجد شيئ في الكون له منطق داخلي لا نهاية لوجوده.

في النقطة الثانية، يشير الموحدون إلى أن وجود العقلانية -التي نحن على يقين بوجودها - تترواح ما بين قوانين الطبيعة إلى قدرتنا على التفكير العقلاني -ولا يمكن تفسيرها إذا لم يكن لها أساس مطلق Ultimate ground، وهذه العقلانية

ليست سوى العقل اللانهائي. «الكون عقلائي»، هذا ما لاحظته عالم الرياضيات المشهور كيرت جوديل<sup>(1)</sup> Kurt Gödel. علاقة العقلانية بالكون تتمثل في أن «نظام الكون هو إنعكاس لنظام العقل الخارق الذي يحكمه»<sup>(2)</sup>. لا يمكن تجنب حقيقة العقلانية في الكون من خلال لجوءنا إلى فكرة الانتخاب الطبيعي، فالانتخاب الطبيعي Natural selection يفترض وجود كيانات فيزيائية تتفاعل فيما بينها وفقاً لقوانين محددة ورموز تنظم عملية الحياة. وعندما نتكلم عن الانتخاب الطبيعي فلا بد أن نفترض وجود منطوق ما لما يحدث في الكون، بشرط أن يكون بمقدورنا فهم هذا المنطق.

وبالعودة إلى المثال السابق لطاولة الرخام، نقول أن العقلانية الحقيقية التي تقف خلف تفكيرنا والتي تواجهنا في دراستنا للكون الدقيق رياضياً لا يمكن أن تكون نشأت من الحجارة. الإله ليس حقيقة قاهرة Ultimate brute fact، بل حقيقة عقلانية مطلقة في كل جوانب الوجود.

يزعم دانيال دينيت Daniel Dennett بأن «الإله خلق نفسه من العدم، أو على أحسن الأحوال من شيء لا يمكن تمييزه عن العدم»<sup>(3)</sup>.

تم عرض هذه الفكرة بشكل أكثر وضوحاً من جانب ملحد آخر حديث هو عالم الفيزياء فيكتور شتينجر Victor Stenger، الذي قدم حله لمسألة أصل الكون وقوانين الطبيعة في كتابه «ليس من خلال التصميم: أصل الكون، هل وجد العلم الإله، الكون القابل للفهم والإله: الفرضية الفاشلة»<sup>(4)</sup>.

(1) Hao Wang, A Logical Journey: From Gödel to Philosophy (Cambridge, MA: MIT Press, 1996), 316.

(2) Palle Yourgrau, A World Without Time: The Forgotten Legacy of Gödel and Einstein (New York: Basic Books, 2005), 104–5.

(3) Daniel Dennett, Breaking the Spell (New York: Viking, 2006), 244.

(4) Not by Design: The Origin of the Universe, Has Science Found God? The Comprehensive Cosmos, and God: The Failed Hypothesis

من بين أمور أخرى، يقدم شتينجر نقداً جديداً لفكرة قوانين الطبيعة وما يترتب عليها. في كتابه «الكون القابل للإدراك» The Comprehensible Cosmos، يقول شتينجر أن القوانين لم تنزل من أعلى، ولا هي عبارة عن قيود ذاتية Built-in restrictions لسلك المادة، وإنما هي قيود بالمعنى الذي يمكن لعلماء الفيزياء أن يصيغوا معادلاتهم الرياضية عن المشاهدات الحسية.

موقف شتينجر مبني على تفسيره لفكرة أساسية في الفيزياء الحديثة وهي التناظر Symmetry. وفقاً لوجهة النظرية الفيزيائية الحديثة، فإن التناظر هو أي حالة تحول Transformation تحافظ على ثبات قوانين الفيزياء عند تطبيقها على النظام.

تم تطبيق الفكرة في البداية في المعادلات التفاضلية Differential equations للميكانيكا الكلاسيكية والكهرومغناطيسية ومن ثم تم تطبيقها بطرق جديدة على نظرية النسبية الخاصة ومشاكل ميكانيكا الكم. يقدم شتينجر لقراءه لمحة عامة لهذه الفكرة القوية، ولكن بعد ذلك ينتهي إلى نتيجتين غير متماسكتين. الأولى هي أن فكرة التماثل تستبعد فكرة قوانين الطبيعة، والثانية أنه لا شيء يمكن أن ينتج شيئاً ما لأنه لا شيء مستقر. من المدهش أن كتاباً صدر بعنوان «التناظر المخيف» Fearful Symmetry لمؤلفه أنتوني زي Anthony Zee، وهو معروف في مجال دراسات التناظر يستخدم نفس الحقائق التي يسوقها شتينجر للوصول إلى نتيجة مختلفة:

«لقد لعبت التناظرات دوراً مركزياً بشكل متزايد في فهمنا لعالم الفيزياء... علماء الفيزياء الأساسيين يقولون أن التصميم المطلق Ultimate design يواجه صعوبات مع التناظرات. الفيزياء المعاصرة لم تكن ممكنة بدون التناظرات التي

ترشدنا ..... كلما تقدمت الفيزياء إلى الأمام من خلال تجربتنا اليومية، واقتربت من المصمم المطلق Ultimate Designer ... لقد تم تدريب عقولنا بعيداً عن مراسيها المألوفة ... أفضل أن أفكر في المصمم المطلق الذي يتم تعريفه من خلال التناظر»<sup>(1)</sup>.

يجادل شتينجر أن «لا شيء» متناظر تماماً لأنه لا يوجد موقع مطلق Absolute position، أو وقت مطلق، أو سرعة مطلقة، أو تسارع مطلق في الفراغ . Acceleration in the void

ورداً على سؤال «من أين جاء التناظر؟» يقول شتينجر إنها التماثلات في الفراغ Symmetries of the void، لأن قوانين الفيزياء هي مجرد ما يتوقعونه إذا جاءت من لا شيء».

مغالطة شتينجر الأساسية مغالطة قديمة، وتتمثل في خطأ النظر إلى «لا شيء» على أنه شيء ما .

على مدى قرون من البحث في مفهوم «العدم» Concept of nothing، حرص المفكرون على التأكيد على أن مصطلح «العدم» لا يعني «شيئاً ما». العدم المطلق يعني أن لا وجود لقوانين، لا فراغ، لا طاقة، لا هيكل، لا وجود لكيانات مادية أو عقلية من أي نوع، ولا وجود لتناظرات، وليس هناك خصائص أو قابليات Potentialities. العدم المطلق لا يمكن أن ينتج شيئاً ما في وقت لا نهائي- وفي الحقيقة لا يمكن أن يوجد زمان في العدم المطلق. ولكن ماذا عن الفكرة الرئيسية لكتاب شتينجر «الفرضية الفاشلة» والتي تذهب إلى أن ظهور الكون من العدم لا يخالف قوانين الفيزياء لأن الطاقة الصافية net energy للكون صفر؟

(1) Anthony Zee, Fearful Symmetry (New York: Macmillan, 1986),280-81.

طرح هذه الفكرة لأول مرة من قبل الفيزيائي إدوارد تريون Edward Tryon، الذي بين أن الطاقة الصافية للكون هي صفر تقريباً، وبالتالي لا يوجد تناقض في القول أنها جاءت من العدم لأنها عدم. إذا أضفت طاقة الجاذبية الأرضية التي هي سالبة إلى بقية كتلة الكون وهي موجبة فإن الناتج سوف يكون صفرًا تقريباً. وعندها لا توجد حاجة لطاقة تصنع الكون، ولذلك لا حاجة لخالق.

بخصوص هذا الإدعاءات وأمثالها، أشار الفيلسوف الملحد سمارت J. J. C. Smart إلى أن فرضية وجود كون بطاقة صافية تساوي الصفر لا تجيب على السؤال لماذا لا بد أن يكون هناك شيء ما من الأساس. لاحظ سمارت أن الفرضية وصياغاتها الحديثة تفترض وجود منظومة الزمان والمكان<sup>(1)</sup>، والحقل الكمي The Quantum Field، وقوانين الطبيعة، وبالتالي فهي لا تجيب على السؤال لماذا توجد الأشياء، كما لا تجيب على سؤال عما إذا كان هناك سبب غير زمني للكون الزمكاني. الواضح من هذا التحليل، أن شتينجر ترك اثنين من الأسئلة دون إجابة، وهما: لماذا توجد بعض الأشياء وليس عدم مطلق؟ ولماذا تتوافق الأشياء الموجودة مع التناظرات أو تُكون هياكل Structures معقدة؟

عرض زي Zee حقائق التناظر نفسها التي أعتمد عليها شتينجر للوصول إلى نتيجة مفادها أن عقل المصمم المطلق هو مصدر التناظر، وأن قوانين الطبيعة في الواقع تعكس التناظر الكامن في الطبيعة، والتناظر وليس قوانين الطبيعة هو الذي يشير إلى عقلانية وذكاء الأكوان- وهي العقلانية المتجذرة في عقل الإله.

---

(1) J. J. C. Smart and John Haldane, *Atheism and Theism (Great Debates in Philosophy)* (Oxford: Blackwell, 2003), 228 ff.

## الحياة

### Life

الظاهرة الأخرى التي نريد مناقشتها هنا هي الحياة. وفقاً لرؤية توني فلو بشأن المادة في هذا الكتاب، لا حاجة لقول المزيد حول أصل الحياة. يجب لفت النظر إلى أن النقاش الحالي حول هذا السؤال لا يبدو أنه يتناول القضايا الأساسية. هناك أربعة جوانب للكائنات الحية. هذه الكائنات فاعلة Agents، وتسعى لهدف Goal seekers، وهي ذاتية التكاثر، وذات طبيعة سيميائية (وجودها يعتمد على التفاعل بين الرموز والكيمياء). كل كائن حي إما فاعل أو له قدرة على الفعل. وكل وجود هو المصدر الموحد Unified source لكل أفعاله. بما أن هؤلاء الفاعلين قادرين على البقاء والعمل بشكل مستقل، فإن أعمالهم موجهة نحو أهداف بنحو ما، وهم يستطيعون التكاثر، وبالتالي فهم كائنات هادفة Goal-seeking وذاتية التكاثر. أشار هوارد باتي Howard H. Pattee إلى أنه يوجد تفاعل بين العمليات السيميائية (الرموز، اللغات، المعلومات، التحكم) مع الأنظمة الفيزيائية (القوانين، الدينامية، الطاقة، القوى والمادة)<sup>(1)</sup>.

---

(1) Howard H. Pattee, "The Physics of Symbols: Bridging the Epistemic Cut," Biosystems 60 (2001): 5–21.

من بين الكتب التي نراجعها في هذا الموضوع، فقط ديكونز هو الذي تناول السؤال عن أصل الحياة. يقول ولبيرت Wolpert، وهو أحد البارزين في هذا الحقل «لا نقول بأن كل الأسئلة العلمية المتعلقة بالتطور قد تم حلها. على العكس من ذلك فإن أصل الحياة بحد ذاته وتطور الخلية الذرية التي نتجت منها كل الكائنات الحية لازالت غير مفهومة»<sup>(1)</sup>. في أعماله السابقة، يأخذ دينيت بعض المواقف المادية أخذ المسلمات. لسوء الحظ فإن وجهة نظر دوكنز لم تكن كافية حتى على المستوى الفيزيائي-الكيميائي، بل هي أسوء، ولكنه يتساءل<sup>(2)</sup> «كيف بدأت الحياة؟ أصل الحياة حدث كيميائي أو سلسلة من الأحداث، حيث تم توفير الشروط الضرورية للانتخاب الطبيعي .... عندما تتوفر المكونات فإن الانتخاب الطبيعي الدارويني يأتي كنتيجة. كيف حدث ذلك؟ أبتكر العلماء سحر الأرقام الكبيرة. الجميل في المبدأ الانثروبولوجي أنه يقول لنا على عكس حدسنا، يقول بأن هذا النموذج الكيميائي لا يحتاج سوى إلى توقع أن الحياة سوف تبرز على الكوكب بالمليارات لتعطينا تفسيراً كاملاً ومرضياً للحياة»<sup>(3)</sup>.

بناءً على هذا النوع من التفكير المنطقي والذي يمكن وصفه بأنه تمرين جريئ للخرافة، فإن كل شيء نرغب بوجوده ينبغي أن يوجد، فقط إذا استدعينا الأرقام الكبيرة. الحيوانات وحيدة القرن يجب أن توجد على عكس الحدس. النموذج الكيميائي هو المتطلب الوحيد الذي تحتاجه لتوقع ما يحدث على الكوكب بالمليارات.

---

(1) Lewis Wolpert, Six Impossible Things Before Breakfast (London:Faber and Faber, 2006), 212-13.

(2) Richard Dawkins, The God Delusion (London: Bantam, 2006), 137.

(3) Dawkins, The God Delusion, 137-38.

## الوعي

### Consciousness

لحسن الحظ أن الوضع ليس سيئاً في دراسات الوعي على عكس ما هو موجود في المجالين السابقين. هناك في الوقت الحالي وعي متزايد بمفهوم الوعي. نحن واعون، ونحن نعي أننا واعون. لا أحد يمكن أن ينكر ذلك دون الوقوع في التناقض الذاتي، وإن كان البعض يصر على ذلك. المشكلة تصبح غير قابلة للحل عندما ندرك طبيعة الخلايا العصبية. كبداية، الخلايا العصبية لا تشابه حياتنا الواعية. الأمر الثاني، وهو أكثر أهمية، أن خصائص الخلايا العصبية من الناحية الفيزيائية لا توفر بأي حال من الأحوال سبباً للاعتقاد بأن بإمكانها، أو أنها سوف تنتج وعياً. يرتبط الوعي ببعض مناطق الدماغ، ولكن عندما توجد أنظمة الخلايا العصبية المكونة من نيرونات في جذع الدماغ فإنها لا تنتج وعياً.

في الواقع، كما أشار العالم الفيزيائي جيرالد شرويدر Gerald Schroeder، إنه لا يوجد هناك فرق جوهري من الناحية المادية بين كومة من الرمل وعقل آينشتين. فقط الإيمان الأعمى الذي لا أساس له بالمادة، يقف وراء الإدعاء بأن جزيئات Bits المادة تستطيع إيجاد حقيقة جديدة لا تشبه المادة. رغم أن التيار العام لدراسات

الجسد-العقل اليوم يعترف بحقيقة الوعي وما يستتبعه من غموض، إلا أن دانيال دينيت Daniel Dennett أحد القلة من الفلاسفة الذين لا يزالون يتهربون مما هو واضح. يقول دينيت بأن السؤال عما إذا كان هناك بعض الأشياء واعية سؤال غير قابل للإجابة، ويؤكد على أنه يمكن للمكائن أن تكون واعية لأننا مكائن واعية.

الوظيفية<sup>(١)</sup> Functionalism هي «تفسير» دينيت للوعي. يقول دينيت إننا لا ينبغي أن نكون قلقين مما يصطلح على تسميته بالظاهرة العقلية. بدلاً من ذلك، ينبغي لنا أن نتحقق من العمليات التي تقوم بها هذه الظاهرة. الألم هو الشيء الذي يخلق رد فعل التفادي Avoidance reaction؛ والفكر هو تمرين على حل المشكلة. لا يجب أن يُنظر للوعي باعتباره حدثاً خاصاً وقع في وقت خاص، كما سبق مع بقية الظواهر العقلية. أن تكون واعياً يعني أن تقوم بهذه العمليات. ولأن هذه العمليات يمكن تكرارها من خلال أنظمة غير حية (مثال: كمبيوتر يحل مسائل) فإنه ليس هناك أي غموض بخصوص الوعي، وبالتالي ليس هناك أي سبب موجب للذهاب لما هو غير فيزيائي.

ما أغفلته وجهة نظر دينيت، هو أن كل الأفعال العقلية تقترن بحالات وعي Conscious states، وهي الحالات التي نكون فيها على وعي بما نقوم به. لا تستطيع الوظيفية بأي حال من الأحوال تفسير أو الزعم بالقدرة على تفسير الحالات التي نكون فيها مدركين وواعين، فنحن نعرف ما نفكر فيه (الكمبيوتر لا يعرف ما يقوم به). حتى الآن، لا تقول لنا الوظيفية شيئاً عما هو المدرك، من هو الواعي، ومن هو الذي يفكر. يقول دينيت بطريقة تثير التعجب إن فلسفته تقوم على فكرة

---

(١) نظرية في فلسفة الذهن تقوم فكرتها الأساسية على أن الحالات الذهنية تتقوم بدورها الوظيفي فحسب.

«الشخص الثالث المطلق»<sup>(١)</sup> Third-person absolutism، وهو ما يجعله في موقف الجزم «أنا لا أؤمن بأننا» "I do not believe in I".

ومن المثير للاهتمام، أن بعض أقوى منتقدي دينيت والوظيفية هم في ذاتهم علماء فيزياء من أمثال ديفيد بابينو David Papineau، وجون سيرل John Searle وغيرهم. جون سيرل بالخصوص حاد في نقده لهذه النظرية، حيث يقول «إذا كنت تميل إلى الوظيفية، فأعتقد أنك لست بحاجة إلى تفنيد، وإنما أنت بحاجة إلى مساعدة»<sup>(٢)</sup>. على النقيض من دينيت، دافع سام هاريس Sam Harris بقوة عن الطبيعة غير المادية للوعي بقوله «المشكلة ليست متعلقة بالمخ الذي عندما نستكشفه فإنه يُظهر المخ على أنه حامل للبعد الداخلي Interior dimension الذي يعيش فيه كل واحد منا، أي الوعي بطريقته الخاصة. حسب قول هاريس، «الوعي ظاهرة أكثر بدائية من الكائنات الحية وأمخاها، ولا يبدو أن هناك طريقاً واضحاً لاستبعاد هذه الأطروحة بطريقة تجريبية»<sup>(٣)</sup>.

يُحسب لديكونز أنه اعترف بأن حقيقة كل من الوعي واللغة تطرح مشكلة محيرة «لا أنا ولا ستيف بنكر Steve Pinker نستطيع تفسير الوعي الإنساني الشخصي Consciousness Human Subjective وهو ما يسميه الفلاسفة الوعي الشخصي Qualia. في كتابه «كيف يعمل العقل»، يعرض ستيف لمشكلة الوعي الشخصي، ويطرح السؤال: من أين جاء الوعي الشخصي، وما هو تفسيره»، وكان دوكنز نزيهاً بالقول «علي أن أكون نزيهاً وأصرح بأننا لا نعرف الجواب، وأننا لا نفهم تفسيراً لذلك»<sup>(٤)</sup>.

(١) القبول بفكرة وجود كيانات لا هي مادية ولا هي معنوية.

(2) John Searle, The Rediscovery of the Mind (Cambridge, MA: MIT Press, 1992), 9.

(3) Sam Harris, The End of Faith (New York: Norton, 2004), 208–9.

(4) Richard Dawkins and Steven Pinker, "Is Science Killing the Soul?" The Guardian-Dillon Debate, Edge 53 (April 8, 1999).

يتجنب ولبرت عمداً مسألة الوعي برمتها قائلاً «لقد تجنبنا بشكل متعمد أي نقاش حول الوعي»<sup>(1)</sup>.

---

(1) Wolpert, Six Impossible Things Before Breakfast, 78.

## الفكر

### Thought

ما وراء الوعي Beyond consciousness، هناك ظاهرة الفكر والفهم ورؤية المعنى. كل استخدام للغة يكشف ترتيباً ذكياً فطرياً للوجود. تقف وراء عمليات التواصل - واستخدام اللغة وهما أساس لعملية التفكير لدينا - قوة خارقة، قوة تعرف الاختلافات والتشابهات differences and similarities والتعميم والشمول Universalizing وهو ما يسميه الفلاسفة تصورات Concepts وكليات Universals وما شابهها. الفكر عبارة عن قوة معروفة للبشر، وهي قوة مميزة وفريدة من نوعها. كيف يمكنك منذ بداية طفولتك أن تميز دون جهد بين كلبك قيصر Caesar وبين بقية الكلاب. أنت تستطيع أن تتصور اللون الأحمر دون أن تتصور بالخصوص شيئاً لونه أحمر (بالتأكيد أن اللون الأحمر لا يوجد بذاته وإنما في الأشياء الحمراء). أنت تُجرد Abstract وتميز Distinguish وتوحد Unify دون أن يأخذ الأمر من تفكيرك لحظة واحدة. هذه القوة التي تفكر بالتصورات بطبيعتها تتعالى Transcends فوق المادة.

إذا كان هناك من يعترض على ذلك فمن باب الإتساق يجب عليه أن يتوقف عن الكلام والتفكير. في كل وقت يستخدم هؤلاء اللغة فإنهم يؤكدون على الدور

الواسع للمعنى، والتصورات، والنوايا والمنطق في حياتنا. ولذلك فإن من غير العقلاني الحديث عن قدرة مشابهة لدى المادة (ليس هناك عضو في الجسد يمارس التفكير)، ولكن بالتأكيد البيانات التي تأتي من الحواس كمواضع يتم توظيفها في عملية التفكير. بمجرد أن تتأمل في هذا الأمر لعدة دقائق سوف تعرف على الفور أن الفكرة التي تقول بأن تفكيرك بشيء ما هو مجرد عمل فيزيائي تبدو فكرة سخيفة ولا تستحق التفكير فيها.

لنقل أنك تخطط للقيام بنزهة مع عائلتك وأصدقائك، حينها سوف تفكر في الأماكن المناسبة لقضاء النزهة فيها، وتفكر في الأشخاص الذين تريد أن تدعوهم، والأغراض التي تريد أن تحضرها معك، والسيارة التي سوف تستخدمها وبقية الأمور. هل إفتراض أن التفكير بأي نحو بهذه الأمور هو عمل فيزيائي يُعد افتراضاً متماسكاً؟

النقطة المهمة هنا هي أن مخك لا يفهم، وإنما أنت الذي تفهم، فعقلك يساعدك على الفهم ولكن ليس لأن أفكارك تحدث في المخ، ولا لأنك سبب حركة الخلايا العصبية. تصرفك على أساس أن فهمك بأن التخلص من الفقر شيء جيد عبارة عن عملية كلية Holistic لها جانبان، فهي عملية غير فيزيائية في جوهرها (كمعنى)، وهي عملية فيزيائية في التنفيذ (الكلمات والخلايا العصبية). لا يمكن فصل الفعل Act إلى فيزيائي وغير فيزيائي، لأنه فعل غير قابل للقسم، فهو مركب Structure من الإثنين معاً: الفيزيائي وغير الفيزيائي، ولكن تزاوجهما كامل، بحيث أنه ليس من المنطقي السؤال عما إذا كانت الأفعال فيزيائية أو غير فيزيائية أو مزيج منهما. الأفعال كما هو الحال مع الشخص المكون من المادي والروحي.

تنشأ الكثير من التصورات الخاطئة عن طبيعة الفكر من التصورات الخاطئة حول أجهزة الكمبيوتر. ولكن دعونا نفترض أننا نتعامل مع كمبيوتر عملاق مثل كمبيوتر الجين الأزرق The Blue Gene، والذي يستطيع القيام بأكثر من مائتي تريليون عملية حسابية في الثانية الواحدة. خطأنا الأول أن نفترض أن الكمبيوتر العملاق مثل النحلة أو البكتيريا. نحن نتعامل في حالة النحلة أو البكتيريا مع فاعل هو المركز في عملية عضوية موحدة. هدف كل نشاطات هذا الفاعل الحفاظ على وجوده بالتكاثر. أما «الجين الأزرق» فهو عبارة عن قطع تقوم مجتمعة أو منفردة بعمليات مزروعة Implanted وموجهة Directed من خالق هذا التجميع.

ثانياً، الكمبيوتر عبارة عن حزمة من الأجزاء التي لا تعرف ما تفعل عندما تقوم بمعالجة ما Performs a transaction. تتم العمليات التي يقوم بها الكمبيوتر العملاق إستجابة لبيانات وأوامر هي مجرد إشارات إلكترونية صرفة ودوائر كهربائية وموصلات. يقوم الإنسان بنفس العمليات والمعالجات هذه، ولكن باستخدام آلية خاصة بالمخ، وهي تتم من خلال مركز الإدراك الذي هو على وعي بما يقوم به وهو يفهم ما تم إنجازه، وهو يؤدي كل ذلك عن قصد. ولكن لا يوجد لا فهم، ولا إدراك، ولا معنى، ولا قصد ولا شخص يقوم بذلك عندما يقوم الكمبيوتر بالأفعال نفسها، حتى لو افترضنا أن الكمبيوتر يمتلك معالجات متعددة Multiple processors تعالج البيانات بسرعات بشرية. مخرجات الكمبيوتر تعني لنا شيئاً (توقعات الطقس أو حسابك المصرفي)، ولكن من زاوية حزمة القطع التي تسمى كمبيوتر فإن الأرقام الثنائية: Binary digits الصفر والواحد تؤدي إلى نشاطات ميكانيكية. القول بأن الكمبيوتر يفهم ما يقوم به، هو مشابه للقول بأن خط الكهرباء يمكن أن

يفكر في مسألة الإرادة الحرة والحتمية، أو أن المواد الكيميائية في أنبوب الاختبار تُطبق مبدأ عدم التناقض Principle of noncontradiction في حل المسائل، أو أن مشغل الأقراص DVD Player يستمتع بالموسيقى التي يعزفها.

## النفس

### The Self

من أهم المفارقات التي وقع فيها الملحدون الجدد قولهم أن الحقيقة الفيزيائية - غير الفيزيائية Supraphysical/physical reality الأساسية التي نعرفها من خلال التجربة هي ذاتها الشخص الذي يعيش التجربة، وهي نحن. بمجرد أن ندرك حقيقة الكائن الأول First-person الذي يتكلم بصيغة «أنا»، وندرك صيغ المتكلم الأخرى، فإننا نواجه أعظم لغز ككل وهو «أنا موجود» إذاً أنا أفكر وأشعر وأعتزم وأقصد وأتفاعل. من هو «أنا»، وأين هو، وكيف أتى إلى الوجود؟ من الواضح أن ذاتك ليست شيئاً فيزيائياً، ولكنها ليس غير فيزيائية كذلك، وإنما هي بدن مادي ومحتوى روحي، فأنت لست موجوداً في خلية معينة في المخ أو جزء من أجزاء البدن. خلايا بدنك تتغير باستمرار، ومع ذلك فأنت تظل كما أنت. عندما تدرس خلاياك العصبية فستكتشف أن أيّاً منها لا يملك خاصية أن تكون «أنا». بالطبع، جسّدك جزء مكمل، ولكنه يظل بدن لأنه مركب من أعضاء فيزيائية. أن تكون إنساناً هو أن تكون جسداً وروحاً.

في المقطع الشهير في كتابه «مقال في الطبيعة البشرية»<sup>(1)</sup>، يعلن هيوم «أنه

---

(1) A Treatise of Human Nature

عندما كنت أدخل بعمق فيما أسميه «نفسى» .... لم أكن قادراً قط على أن أدرك نفسي دون إحساس، ولم أكن قادراً على مراقبة أي شئ سوى الإحساس». في هذا المقطع ينكر هيوم وجود النفس، ببساطة لأنه كما يقول «لم يجد نفسه». ولكن ما الذي يوحد Unifies خبراته المتعددة، ما الذي يجعله يعي وجود العالم الخارجي، وأن يظل كما هو خلال هذه العملية؟ يفترض هيوم أن «ذاتي» Myself هي حالة قابلة للمشاهدة Observable state مثل تفكيره ومشاعره، ولكن النفس ليست شيئاً يمكن مشاهدته. إنها حقيقة ثابتة للتجربة Experience، والتي هي فوق الواقع، وأساس لكل التجارب.

في الواقع، من بين كل الحقائق التي يمكن أن نتعرف عليها، فإن النفس هي الأكثر وضوحاً، ولا يمكن إنكارها، وفي الوقت نفسه هي الأكثر غموضاً لجميع الكيانات «الفيزيائية» Physicalism. وفي البداية، لا بد من القول بأنه لا يمكن إدعاء عدم وجود النفس من دون الوقوع في التناقض. الجواب على السؤال «كيف أعرف أنني موجود» هو برد السؤال بسؤال آخر «ومن هو السائل؟». النفس هي ما نحن عليه، وليس ما لدينا.

إنها «أنا» التي تنبثق من منظور المتكلم First-person perspective. نحن لا نستطيع أن نحلل النفس لأنها ليست حالة عقلية Mental state يمكن ملاحظتها أو وصفها. الحقيقة الأساسية القصوى التي نعيها هي النفس البشرية، وفهم النفس يلقي حتماً بآثره على بقية الأسئلة الأساسية ويعطينا إنطباعاً ما عن الحقيقة ككل. نحن ندرك أن النفس لا يمكن وصفها، ومن حيث الكيمياء أو الفيزياء: العلم لا يكتشف النفس، النفس هي التي تكتشف العلم. نحن ندرك أن الموقف من تاريخ الكون لن يكون متماسكاً إذا لم يكن الموقف Account من النفس متماسكاً.

## الأصل اللامادي

### The Origin Of The Supraphysical

كيف حدثت الحياة؟ كيف وجد الفكر والنفوس؟ يبين تاريخ العالم الظهور المفاجئ لهذه الظواهر، فالحياة ظهرت مباشرة بعد أن برد كوكب الأرض، وبرز الوعي بغموض في الانفجار الكمبري<sup>(١)</sup> Cambrian explosion، وظهرت اللغة من «الرموز النوعية»<sup>(٢)</sup> Symbolic species دون تطور مسبق. نطاق الظاهرة محل النقاش يبدأ مع الشفرة Code، ونظم معالجة الرموز، والقصد Goal-seeking، والفاعلين الواعين، هذه الأمور في الطرف الأول في مقابل الوعي الذاتي والفكر التصوري Conceptual thought والنفوس البشرية، في الطرف الآخر.

الأمر المتماثل الوحيد بالنسبة لهذه الظواهر هو أن لها أبعاداً مختلفة من الوجود، وأنها ذات طبيعة غير فيزيائية بطريقة أو بأخرى. تتكامل هذه الظواهر مع ما هو مادي ولكن بصورة «جديدة» بشكل جذري. نحن لا نتكلم هنا عن «أشباح في الآلة»<sup>(٣)</sup> Ghosts in machines، بل نتكلم عن فاعلين من أنواع مختلفة،

(١) ظهور مفاجيء جيولوجي لمستحدثات أسلاف الحيوانات المؤلفه ضمن السجل الأحفوري الأرضي.  
(٢) إشارة إلى كتاب تيرنس ديكون Terrence Deacon يجمع وجهات نظر من الأحياء العصبية ونظرية التطور والسميئيات.

(٣) مصطلح أبتكره غلبرت رايل للتعبير عن ثنائية العلاقة بين المادي والمعنوي.

بعضها واعي، والبعض الآخر واعي ويفكر. وفي كل حالة لا توجد ثنائية Dualism أو حيوية Vitalism، ولكن مجموع من التكامل Integration that is total، كلية Holism تتضمن ما هو فيزيائي وما هو معنوي.

على الرغم من أن الملحددين الجدد فشلوا في إستيعاب طبيعة مصدر الحياة والوعي والفكر والنفس فإن السؤال عن أصل غير فيزيائي يبدو واضحاً: لا بد أن الأصل غير الفيزيائي نشأ من مصدر غير فيزيائي. لا بد أن الحياة والوعي والنفس نشأوا من مصدر حي وواعي ويفكر. إذا كنتُ في مركز الوعي والفكر الذي يمكنه أن يحب ويعتزم وينفذ فإنني لا أفهم كيف أن مراكز هذه النشاطات أتت من شيء ما غير قادر على مثل هذه النشاطات.

على الرغم من أن العمليات الفيزيائية البسيطة يمكن أن تخلق ظواهر فيزيائية معقدة، فإننا لسنا بصدد العلاقة بين الظواهر البسيطة والمعقدة، ولكن نحن بصدد أصل المراكز. ببساطة، إن من غير المعقول أن أي مصفوفة مادية Material array يمكن أن تنتج فاعلين يفكرون ويفعلون. المادة لا يمكن أن تنتج إدراكات أو إحساسات. حقل القوة A force field لا يفكر أو يخطط. إذاً على المستوى المنطقي وعلى مستوى التجربة اليومية، نصبح على وعي مباشر بأن عالم الموجودات الحية والواعية والمفكرة أساسه مصدر حي هو العقل.

الملحق الثاني

الوحي الذاتي للإله  
في التاريخ البشري

**THE SELF-REVELATION  
OF GOD IN HUMAN  
HISTORY**



## نقاش حول المسيح مع رايت

### أنتوني فلو: أسئلة عن الوحي الإلهي

حتى الآن ناقشت المعلومات التي قادتني للقبول بوجود العقل الإلهي. أولئك الذين يسمعون هذه الحجج حتماً سيتسألون عن رأيي بخصوص إدعاءات الوحي الإلهي. في كل كتبي ضد الإلوهية ومناظراتي المتعددة وقفت موقفاً مؤيداً لإدعاءات الوحي الإلهي أو التدخل الإلهي. موقفي الحالي هو أكثر إنفتاحاً تجاه هذه الإدعاءات. في الواقع، أنا أعتقد أن الدين المسيحي يستحق بكل وضوح الإحترام والتقدير بغض النظر عما إذا كان موقفه من الوحي الإلهي صحيحاً.

ليس هناك أي دين يمتلك مزيجاً من شخصية لها جاذبية مثل جاذبية السيد المسيح ومفكر من الطراز الأول مثل القديس بولس St. Paul. تقريباً، كل الحجج المتعلقة بالمحتوى الديني تمت صياغتها من قبل القديس بولس، الذي كان يمتلك عقلاً فلسفياً ذكياً، وكان بمقدوره التحدث والكتابة بكل اللغات ذات العلاقة بالمحتوى الديني. إذا كنت تريد من إله المقتدر أن يصنع لك ديناً، فإن الدين المسيحي هو ذلك الدين.

ناقشت في الطبقات الأولى من كتاب «الإله والفلسفة» الإدعاءات المسيحية إلى حد ما، وذهبت إلى أن التقدم الهائل الذي أحرز في الدراسات النقدية للعهد الجديد وغيرها من المصادر لتاريخ نشأة المسيحية لا يدع لأولئك الذين يقدمون

إدعاءات واسعة وكبيرة مجالاً للاختباء. ثانياً، أنه لا يمكن معرفة المعجزات من خلال دليل تاريخي، وهذا يخل بمصداقية الإدعاء بأن قيامة المسيح يمكن معرفتها باعتبارها حقيقة تاريخية.

في مناظراتي المختلفة عن عودة المسيح، قدمت نقاطاً إضافية. النقطة الأولى، هي أن الوثائق التي تؤرخ للحدث المدعى كُتبت قبل ثلاثين أو أربعين سنة بعد ذلك الحدث. ليس هناك دلائل معاصرة، وإنما مجرد وثائق كُتبت بعد وقوع الحدث. النقطة الثانية، هي أننا لا نملك وسيلة للتحقق من أن المسيح العائد هو نفسه الذي ظهر للمجموعات التي أدعت رؤيته، لأن ما عندنا من وثائق يقول فقط أن هذا الحدث غير الإعتيادي قد وقع بالفعل. والنقطة الأخيرة هي إن الدلائل على عودة المسيح محدودة جداً. في الواقع أن وثائق العهد الجديد New Testament عن عودة المسيح كانت رسائل القديس بولس، ولم تكن نصوصاً إنجيلية Gospels، وفي هذه الوثائق هناك القليل جداً من التفاصيل الحسية على عودة المسيح.

اليوم أقول بأن التحدي المتعلق بفكرة عودة المسيح أكثر تأثيراً من أي تحدي ديني آخر. لا أزال أعتقد بأنه عندما ينظر علماء التاريخ بطريقة إحترافية إلى دلائل عودة المسيح فإنهم يحتاجون إلى أكثر بكثير مما هو متوفر، فهم يحتاجون إلى دلائل من أنواع مختلفة. أعتقد أن الإدعاء بأن الإله تجسد في المسيح هو إدعاء فريد من نوعه، ولا أعرف كيف يمكن الحكم على ذلك سوى بالإيمان أو عدم الإيمان بصحته. لا أرى أية مبادئ عامة يمكن أن ترشدنا إلى ذلك. في سياق منظوري الفكري الجديد، شاركت في نقاش عن المسيح مع الفقيه التاريخي المعروف الأسقف رايت Bishop N. T. Wright أسقف دورهام، والباحث في العهد الجديد، وفيما يلي ردوده على بعض المواضيع التي طرحتها في كتاباتي.

## رد نيكولاس توماس رايت

N. T. Wright: Response

لا أعرف من أين أبدأ، فالدلائل على وجود المسيح كثيرة جداً، بحيث أنني كعالم تاريخ أجد أن لدينا دلائل كثيرة على المسيح أكثر من أي شخص في العالم القديم. من الواضح أن هناك بعض شخصيات من العالم القديم لدينا لها تماثيل ونقوش. من ناحية أخرى، لدينا أيضاً تماثيل للآلهة والإلهات في العالم القديم جداً، ومع ذلك لا يمكنك أن تكون متأكداً من وجود هذه الشخصيات. ولكن فيما يخص المسيح فإن كل الدلائل تشير بشكل قاطع إلى وجود هذه الشخصية العظيمة في العشرينات إلى الثلاثينات من القرن الأول، والأدلة تتسق مع ما نعرفه عن اليهودية في تلك الحقبة (على الرغم من أن الكثير منه كُتب لاحقاً) بحيث أنه من الصعب على أي باحث تاريخي - لا أعلم أي باحث تاريخي - أن يشك في وجود المسيح. ربما يكون هناك شخص أو شخصين. هناك رجل أسمه ويلس Wells هو الوحيد الذي شكك في ذلك حديثاً. من وقت لآخر تجد شخص مثل اليغرو J. M. Allegro الذي كتب قبل جيل من الآن كتاباً إستناداً إلى مخطوطات البحر الميت، واستنتج أن المسيحية ليست سوى عبادة الفطير المقدس<sup>(١)</sup>.

---

(١) المقصود بالفطير المقدس ذلك الفطير الممزوج بدم بشري من دم (الجوييم) أي الغرياء، وخلطه بالدقيق الذي تعد منه فطائر عيد الفصح. وقد سرت هذه العادة المتوحشة إلى اليهود عن طريق كتبهم المقدسة.

لا يوجد عالم يهودي أو مسيحي أو لأدري Agnostic على الإطلاق أخذ هذا الكلام على محمل الجد. من الواضح جداً أن المسيح شخصية موثقة جداً في التاريخ الحقيقي، ولذلك لا بد لهذا السؤال أن يُنحى جانباً.

## ما هي الأسس للإدعاء من خلال النصوص بأن الإله تجسد في المسيح؟

إيماني بالمسيح كأبن الإله المتجسد لا يستند إلى النصوص الواردة في الإنجيل التي تزعم ذلك، بل إن إيماني بذلك أعمق من ذلك بكثير، بل يعود إلى سؤال مهم جداً حول كيف فهم يهود القرن الأول وجود الإله، وفعل الإله في العالم، وحتماً أن ذلك يعود إلى المزامير<sup>(١)</sup>، وإلى أشعيا<sup>(٢)</sup>، وإلى سفر التثنية<sup>(٣)</sup> وسفر التكوين<sup>(٤)</sup> وهلم جرا. ونستطيع أن نرى كيف أن التراث اليهودي من أيام المسيح فسر هذه النصوص. لقد تكلموا عن الإله الذي صنع الكون، وهو أيضاً إله إسرائيل<sup>(٥)</sup>، ويتكلمون عن هذا الإله على أنه مؤثر في العالم، وموجود ويفعل أمور في العالم وداخل إسرائيل، ويتحدثون عن ذلك بخمسة طرق (لا علاقة لذلك بطرق توما الأكويني الخمسة<sup>(٦)</sup>).

(١) المزامير أو مزامير داود هي تسابيح لله، وأناشيد حمد وسجود وتمجيد له، وقد جاءت المزامير في الكتاب المقدس في عدة أماكن.

(٢) يعتبر الكاتب لسفر أشعيا في العهد القديم من الكتاب المقدس.

(٣) سفر التثنية أو سفر تثنية الاشتراع (بالعبرية: דברים) أحد الأسفار المقدسة في الكتاب المقدس لدى الديانة اليهودية والعهد القديم في المسيحية؛ ولا خلاف بين مختلف طوائف الديانة اليهودية والمسيحية حول قدسيته

(٤) سفر التكوين هو أول أسفار التوراة (أسفار موسى الخمسة) وأول أسفار التناخ، وهو جزء من التوراة العبرية، كما أنه أول أسفار العهد القديم لدى المسيحيين

(٥) في التوراة وفي التراث اليهودي يعتبر اسم «إسرائيل» اسم بديل ليعقوب، وتظهر قصة تسمية يعقوب بإسرائيل في سفر التكوين

(٦) خمس حجج قدمها القديس توما الأكويني للبرهنة على وجود الله

يتحدثون عن كلمة الإله: لقد تكلم وكفى، لقد قال الإله «ليكن نور» فأصبح هناك نور. كلمة الإله حية وفاعلة، وفي سفر أشعيا لدينا صورة قوية جداً عن كلمة تنزل من الأعلى كالمطر أو كالثلوج وتُفعل أشياءً في هذا العالم. يتحدثون عن حكمة الإله، ونحن نرى ذلك في الأمثال بشكل خاص، وفي عدة روايات في الإنجيل كذلك. الحكمة تصبح نوعاً من التجسيد لذات الإله الثانية. حكمة الإله فاعلة في العالم، وتتواجد في إسرائيل، وهي تقوم بأعمال تساعد الناس أنفسهم حتى يعرفوا كيف يصبحوا حكماء.

يتحدثون عن مجد الإله الحاضر في المعبد. علينا أن لا ننسى بأن المعبد بالنسبة لليهود في القرن الأول، كان رمزاً للتجسيد وهم يؤمنون بأن خالق الكون وعد بالعودة، وأن يكون مسكنه في المعبد بالقرب من الطريق إلى القدس. قبل أن تذهب بالفعل إلى القدس وتفكر في هذا الأمر فإنك لن تدرك ذلك، وهو أمر غير عادي على الإطلاق. ويتحدثون عن قانون الإله الكامل الذي ينعش الروح (كما في المزمور ١٩). القانون مثل الحكمة، ليس مجرد قانون مكتوب. إنه قوة وجودية موجودة وحاضرة عندما أراد الإله أن يُظهر ذاته. ثم، أخيراً يتحدثون عن روح الإله، الروح التي تُسرِع إلى شمشون<sup>(١)</sup> في سفر القضاة<sup>(٢)</sup>.

روح الإله التي تمكن الأنبياء أن يصبحوا أنبياء. روح الإله التي تسكن البشر حتى يتمكنوا من القيام الاستثنائي بتمجيد الإله.

---

(١) شمشون بن منوح الدني (بالعبرية: שמשון) من شخصيات العهد القديم، هو بطل شعبي من إسرائيل القديمة اشتهر بقوته الهائلة وورد ذكره في سفر القضاة في الأصحاحات ١٣ إلى ١٦.  
(٢) هو سابع أسفار التناخ المقدس في الديانة اليهودية والعهد القديم في المسيحية؛ ولا يوجد خلاف على قدسيته لدى مختلف طوائف الديانتين باستثناء الصدوقيين إحدى الطوائف اليهودية القديمة التي رفضت جميع أسفار التناخ عدا أسفار موسى الخمسة الأولى المعروفة باسم التوراة.

هذه الطرق الخمسة عن فعل الإله في العالم هي الطرق التي كان اليهود في القرن الأول يُعبرون فيها عن إيمانهم بالواحد الذي يعرفونه على أنه هو الإله الأبدي خالق العالم حيث كان موجوداً وفاعلاً في العالم، وبشكل خاص داخل أرض إسرائيل. ونستطيع أن نرى ذلك ليس في العهد القديم فحسب، وإنما نستطيع رؤيته في الآثار التي خلفها العهد القديم في يهودية القرن الأول وفي كتابات الحاخامات<sup>(١)</sup>، وفي مخطوطات البحر الميت<sup>(٢)</sup>، وفي نصوص أخرى.

الآن، عندما نأتي إلى هذه الطرق الخمسة في الأناجيل نكتشف أن يسوع لا يتحدث فقط بل يتصرف، ولكن يتصرف كما لو أن هذه الطرق الخمسة تصبح حقيقة بطريقة جديدة من خلال ما يقوم به. ونرى ذلك بشكل خاص في مثال الزارع. الزارع يزرع الكلمة والكلمة تقوم بعملها، ولكن من الذي يقوم بعملية التعليم، إنه يسوع ذاته.

يتحدث يسوع كذلك بطرق مختلفة حول الحكمة: حكمة الإله حيث يقول: «أنا أفعل هذا، وأنا أفعل ذلك». ويمكنك تتبع تقاليد وحكم العهد القديم، ليس فقط في الأقوال الفردية ليسوع، ولكن في الطريقة التي يمارس فيها ما كان يقوم به، ونقاشاته مع الرجل الحكيم الذي بنى بيته على الحجارة والرجل الجاهل الذي بنى بيته على الرمال، وهي نموذج لتعليم الحكمة. الرجل الحكيم هو «الشخص الذي

---

(١) الرَبَّانِيّ في اليهودية، ويسمى الحبر [ والرَّاب والحاخام، هو زعيم ديني. كلمة حاخام العربية ترجع إلى الكلمة العبرية חכם أي «حكيم».

(٢) مخطوطات البحر الميت تضم ما يزيد على ٨٥٠ قطعة مخطوطة، بعضها مما سمي لاحقاً الكتاب المقدس وبعضها من كتب لم تكن تعرف أو كانت مفقودة. وقد كانت في جرار فخارية كانت مطلية بالنحاس أول من عثر عليها راعيان من بدو التعمارة المتجولين واكتشف المزيد بين عامي ١٩٤٧ و١٩٥٦ في ١١ كهفاً في وادي قمران قرب خربة قمران شمال البحر الميت. وقد أثارت المخطوطات اهتمام الباحثين والمختصين بدراسة نص العهد القديم لأنها تعود لما بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الأول منه.

يسمع هذه الكلمات من الألغام (الحكم الرمزية) ثم يفعلها. وهكذا فإن الحكمة ويسوع متلازمان معاً بشكل وثيق جداً.

ومن ثم، هناك المعبد حيث يتصرف يسوع كما لو كان هو المعبد شخصياً. عندما يقول يسوع إن «خطاياك مغفورة» فهي صدمة حقيقية، غفران الخطايا يُعلن عادة عندما تذهب إلى المعبد وتستغفر، ولكن يسوع يقول لك أنك تستطيع أن تستغفر في الشارع، عندما تكون مع يسوع وهو يحدق في مجد الإله.

عندما نعود إلى الشريعة اليهودية، نكتشف شيئاً رائعاً. أحد العلماء اليهود الكبار في يومنا هذا، يعقوب نوسنر Jacob Neusner، وهو الذي كتب العديد من الكتب الرئيسية في اليهودية، كتب كتاباً عن يسوع. في ذلك الكتاب، يقول نوسنر إنه عندما يقرأ أن يسوع قال أشياءً مثل «لقد سمعت أنه قيل كذا وكذا، ولكن أقول لكم: هذا وهذا وهذا»، أريد أن أقول ليسوع هذا: من تعتقد نفسك؟ الإله؟

لقد قدم يسوع قانوناً جديداً، وقدم تفسيراً جذرياً جديداً للقانون، ويدعي بمعنى ما بأنه تجاوز الطريقة التي كان يُفهم أو يُفسر بها القانون. وأخيراً هناك الروح، يقول يسوع «إذا كنت أنا روح الإله أتخلص من الشياطين فإن مملكة الإله نزلت علي». فما نراه ليس كثيراً، فيسوع يدور بين الناس قائلاً: «أنا هو الشخص الثاني من الثالث. إما أن تؤمنوا بذلك أو لا». وهذه في الحقيقة ليست وسيلة لقراءة الانجيل. بدلاً من ذلك، يجب أن تُقرأ كما قرأها المؤرخون في القرن الأول، بحيث يمكننا أن نرى يسوع يتصرف بحيث نقول جميعاً: الطريقة الرائعة التي يتعامل بها الإله مع البشر قد حدثت بالفعل.

إنها ليست من خلال كلمة أو حكمة أو غيرها، إنها من، وفي، ومن خلال شخص. الشيء الذي يجمع كل ذلك معاً (كتبت هذا في الفصل قبل الأخير من

كتابي يسوع ونصر الإله (Jesus and the victory of God) هو أن الكثير من اليهود في أيام يسوع كانوا يعتقدون أنه في يوم ما سوف يعود إله إسرائيل Yahweh في شخص للعيش داخل الهيكل. تجد ذلك في سفر حزقيال، وسفر أشعيا، وسفر زكريا<sup>(١)</sup>، والعديد من النصوص اللاحقة. ولذلك هم يعيشون على أمل أنه في يوم من الأيام سوف يعود الإله، لأنه إذا عاد سوف يعيد بناء الهيكل، ولكن ليس بالطريقة التي فعل بها هيردوس<sup>(٢)</sup> Herod ذلك. هناك سلسلة من التوقعات تتعلق بعودة الإله. كما نجد في الأناجيل صورة إستثنائية عن يسوع عند قيامه بالرحلة الأخيرة إلى القدس وهو يحكي قصص الملك الذي عاد.

لقد وجدت كما وجد الآخرون بأن يسوع عندما كان يحكي قصص الملك الذي عاد إلى شعبه، أو السيد الذي عاد إلى خدمه، لم يكن يتحدث عن العودة الثانية في المستقبل. لم يكن التلاميذ مهيين لذلك، كما إنهم لم يكونوا يعلمون بأنه ذاهب ليُصلب. كان يسوع يتحدث عن أهمية رحلته إلى القدس، وهو كان يدعو من لهم آذان إلى أن يسمعوا وأن يأخذوا صورة الإله Yahweh في العهد القديم إلى صهيون Zion ويضعوها في عقولهم وهم يرون النبي الصغير وهو يسافر إلى القدس راكباً حماراً. أعتقد أن يسوع راهن على حياته، على أساس الاعتقاد بأنه دُعي لتجسيد عودة الرب إلى صهيون<sup>(٣)</sup>.

(١) أسفار من العهد القديم.

(٢) هوردس أو هيرودس (العبرية: הורדוס). ٧٣ قبل الميلاد - ٤ قبل الميلاد) هو ابن الدبلوماسي انتيباتر الإدومي من زوجته النبطية، عين حاكماً على الجليل ثم أصبح ملك اليهودية. وقد بسط نفوذه على المنطقة الممتدة من هضبة الجولان شمالاً إلى البحر الميت جنوباً، وكانت أيام حكمه تمثل ازدهاراً ثقافياً واقتصادياً، وقد كان حليفاً أميناً للإمبراطورية الرومانية كان مقره في مدينة القدس، أي اورشليم، وقد اشتهر بمشاريع البناء الفاخرة التي بادرها في هذه المدينة، ومنها بناء معبد القدس الكبير المسمى هيكل سليمان.

(٣) صهيون (بالعبرية: ציון) ومعناها الحصن) هو واحد من التلّين الذين كانت تقوم عليهما مدينة اورشليم القديمة حيث أسس داود عاصمته الملكية.

كلمة تجسد Embody كلمة إنجليزية، أما المقابل اللاتيني لها فهو Incarnation، ولكنني أفضل كلمة Embody على الأقل في الأماكن التي أقوم فيها بالوعظ حيث يمكن للناس إستيعابها أكثر من اللفظ اللاتيني، ولكنها تؤدي نفس المعنى.

أنا لا أظن أن يسوع يعتقد أنه طُلب منه أن يتصرف على أساس هذا الافتراض. وأعتقد أن هذا كان مخيفاً بشكل كبير ليسوع. أعتقد أنه كان يعلم أنه قد يكون في الواقع مخطئاً. ولكن في نهاية الأمر هناك أناس يصدقون بأن شيئاً ما يمكن أن يتحول، مثل الرجل الذي يعتقد بأنه إبريق من الشاي. أعتقد أن يسوع كان يعلم أن هذه دعوته، وأنه يجب أن يتعامل على هذا الأساس، وأن عليه أن يعيش ويعمل على أساس أن يجسد عودة الرب إلى شعبه.

لهذا السبب أود أن أقول إن يسوع، بعد موته وقيامته (وهذه قصة مختلفة تماماً. سنأتي إليها قريباً) تم التعرف عليه بسرعة كبيرة جداً من قبل أتباعه على أنه المجسد لإله إسرائيل. واجهوا قيامته، ولكن بعد أن عادوا إلى عقولهم، إلى كل ما شاهدوه وسمعوه وما عرفوه عن يسوع، صفعوا وجوههم «هل كنتم تعرفون مع من كنتم كل هذا الوقت؟ لقد كنا مع شخص تجسد فيه إله إسرائيل، ثم راحوا يحكون القصص مراراً، بشيء من الرهبة والهلع والإدراك المتأخر، متفكرين في كل ما حدث طوال الوقت الفائت.

هذه فكرة استثنائية جبارة، ومع ذلك فإن هذه الفكرة تعطي معناً عميقاً ومتجذراً تاريخياً لطريقة رؤية يسوع لنفسه. والآن بالتأكيد يمكن لأي شخص أن يقول لي: قد تكون على حق، وقد يكون يسوع بالفعل نظر إلى نفسه على هذا النحو، وقد يكون تلاميذه وصلوا للتفكير بذلك أيضاً، ولكن بالتأكيد أن يسوع كان مخطئاً، إما لأننا نعلم مسبقاً بأنه إذا كان هناك إله فإنه لا يمكن أن يكون إنساناً، وإما لأننا

نعلم بشكل مسبق بأن أي شخص يتكلم عن نفسه بهذه الطريقة يجب أن يكون مجنوناً أو مختلاً عقلياً أو مخدوعاً.

لهؤلاء أريد أن أقول حسناً، أتركوا هذه المسلمات جانباً في الوقت الحالي، وحاولوا أن تستحضروا صورة يهود القرن الأول وهو يعتقدون بذلك ويتصرفون على هذا الأساس، وبعد ذلك أ طرحوا السؤال عن قيامة المسيح، وبعدها أ طرحوا جميع أسئلتكم عما نعيه بكلمة «إله»، لأن المسيحيين الأوائل قالوا بأن كلمة «الإله» لازالت غامضة وأنها تصبح واضحة فقط عندما ننظر إلى يسوع. يقول القديس يوحنا الإنجيلي<sup>(١)</sup> «لم ير أحد الإله في أي وقت، ولكن الإبن الوحيد الذي يعيش في حضن الأب جعل منه معروفاً». وفقاً للغة اليونانية، فإن المعنى الحرفي لهذا الكلام هو «قدّم لنا تفسيراً لما هو الإله، وأرانا من هو الإله على وجه الحقيقة». إنه جواب طويل لسؤال جوهرى، ولكنني لا أستطيع إختصاره أكثر من ذلك. معظم الناس حسب خبرتنا يفكرون في الإله والمسيح بهذه الطريقة، ولكن هذه الطريقة التي أفكر بها أنا وهي الطريقة التي فكر بها المسيح والمسيحيون الأوائل، وكذلك الذين كتبوا الأناجيل، ونحن نقوم بعمل جيد في أن نجعل عقولنا تلتفت حول هذا الفهم.

---

(١) أحد تلامذة السيد المسيح.

## ما هي الدلائل على قيامة يسوع؟

دعوني أختصر قدر الإمكان. لقد قرأ والدي كتابي المطول «قيامة ابن الإله» *The Resurrection of the Son of God* عندما كان في الثالثة والثمانين من عمره. أستغرقت منه قراءة الكتاب المكون من ٧٠٠ صفحة ثلاثة أيام فحسب. لقد ركز على قراءة الكتاب بشكل كامل خلال هذه الأيام، وبعدها أتصل بي تلفونياً وقال لي: لقد أنهيت من قراءة الكتاب، فتعجبت من ذلك، فقال «نعم لقد قرأته وقد بدأت أستمتع بقراءته بعد الصفحة رقم ٦٠٠». أعتقدت أن كلامه نوع من المجاملة الفاترة. لقد كان والدي يعمل في صناعة الأخشاب. قلت لوالدي «هل تعلم يا أبي أن الصفحات الخمسمائة هي جذع النظام *Root system*، وإن الشجرة إذا لم يكن لها جذع رئيسي فإنها لن تكون قادرة على الانتصاب ولن تعطي أية ثمرة. رد والدي قائلاً «لقد أدركت ذلك ولكنني أفضل دائماً الفروع العليا من الشجرة».

أعود للحديث عن جذع النظام *Root system* قليلاً. من الأمور التي استمتعت بها عند تأليف الكتاب هو العودة إلى الأسس التقليدية والبحث عن معتقدات الحياة بعد الموت لدى الشعوب. يعتقد اليونانيون والرومان والمصريون بالحياة بعد الموت، وهناك تنوع كبير في المعتقدات بهذا الشأن، ولكن فكرة القيامة ليست موجودة في العالم اليوناني الروماني.

في الواقع، يقول بليني Pliny، وإسخيلوس Aeschylus، وهوميروس Homer، وشيشرون Cicero، وجميع أطراف الكتاب الأوائل بأننا «نعرف بالتأكيد أن القيامة لم تحدث». وفي الوقت نفسه طور اليهود إعتقاداً لاهوتياً محددًا عن القيامة (المقصود قيامة المسيح)، وهو «أن شعب الإله سوف يعود جسدياً إلى الحياة بعد الموت في النهاية». عامل الوقت مهم، لأن معظم المسيحيين في العالم الغربي يستخدمون كلمة «القيامة» Resurrection بشكل غامض على أنها تعني «الحياة بعد الموت»، وهو ما لم يحدث أبداً في العالم القديم. لقد كان المصطلح يُستخدم بشكل دقيق جداً، وهو ما أسميه الحياة بعد الحياة بعد الموت. وبعبارة أخرى، فإنّ أولاً تموت وتصبح ميتاً وجسدك غير حي، وبعد ذلك تبعث بمعنى أنك تعيش حياة جسدية، وهي حياة جديدة بعد «الحياة بعد الموت».

نستطيع تتبع الطريقة التي يُتكلّم بها عن معتقد «القيامة» في الديانة اليهودية. القيامة هي سلسلة من مرحلتين: بعد وفاتك مباشرة تدخل في مرحلة إنتظار<sup>(١)</sup>، وبعد ذلك تنتقل إلى مرحلة حياة جديدة تماماً تسمى «القيامة». في الكتاب الذي استمعت بكتابته، رسمت خريطة عن المعتقدات اليهودية في موضوع الحياة بعد الموت على ضوء خريطة أكبر من المعتقدات القديمة لموضوع الحياة بعد الموت، وهناك ضمن الديانة اليهودية تباينات بهذا الخصوص.

أمن الفريسيون<sup>(٢)</sup> Pharisees بالقيامة، ويبدو أن هذا كان هو الاعتقاد الشائع

(١) مشابهة لفكرة البرزخ في الديانة الإسلامية.

(٢) الفريسيون أحد الأحزاب السياسية الدينية التي برزت خلال القرن الأول داخل المجتمع اليهودي في فلسطين؛ يعود أصل المصطلح إلى اللغة الآرامية ويشير إلى الابتعاد والاعتزال عن الخاطئين؛ كان الفريسيون يتبعون مذهباً دينياً متشدداً في الحفاظ على شريعة موسى والسنن الشفهية التي استنبطوها. كان الفريسيون على خلاف دائم مع الصدوقيين الذين أنكروا القيامة والملائكة والأرواح.

في فلسطين اليهودية أيام يسوع. أما الصدوقيين<sup>(١)</sup> Sadducees فلم يعتقدوا بالحياة بعد الموت على الإطلاق، وقد أعتقد أشخاص مثل فيلو Philo وربما إسنس Essenes بوجود حياة جسدية خالدة واحدة، بحيث أنك بعد الموت تذهب إلى حيث تذهب وتبقى هناك، بدلاً من أن تمر بتجربة «القيامة» أكثر من مرة<sup>(٢)</sup>.

أكثر ما يثير الاهتمام أنه في كل المجتمعات التي خضعت للدراسة في هذا الصدد، تجد الناس محافظين جداً في معتقدات الحياة بعد الموت. وفي مواجهة الموت، يميل الناس إلى المعتقدات والممارسات التي يعرفونها والتي أخذوها عن عوائلهم ومن عاداتهم ومن قراهم، وهكذا تتم طقوس الدفن. ولذا فإنه من اللافت للنظر حقاً أن المسيحيين الأوائل المعروفين لدينا في الفترة حتى نهاية القرن الثاني عندما بدأ الغنوصيين<sup>(٣)</sup> Gnostics باستخدام كلمة القيامة بمعنى مختلف تماماً فإن كل المسيحيين الأوائل المعروفين لدينا خلال الأجيال الأربعة أو الخمسة الأولى يعتقدون بالحياة الجسدية بعد الموت، رغم أن أغلب ما جاء في هذه القصص جاء من أيام العالم الوثني حيث كانت فكرة القيامة تعتبر هراءً مطلقاً.

هناك أسطورة حديثة هذه الأيام تقول أننا نحن فقط ممن يمتلك علماً معاصراً

---

(١) الصدوقيون هم إحدى الأحزاب الدينية السياسية التي نشأت ضمن الديانة اليهودية وذكرت في العهد الجديد؛ فمن المعروف أنه خلال القرن الأول قبل الميلاد ومن ثم خلال القرن الأول انقسم المجتمع الديني اليهودي إلى عدد من الأحزاب والجماعات السياسية داخل المؤسسة الدينية، وقد كان أكبر حزبين هما الصدوقيين والفريسيين

(٢) بمعنى عدم وجود حياة برزخية

(٣) الغنوصية (أو العارفية أو العرفانية) هي مدرسة عقائدية أو فلسفية حلولية نشأت حول القرن الأول الميلادي. خذت الغنوصية طورا جديدا لدى ظهور المسيحية لإثبات توائم المعتقدين. وكانت لا تتعارض مباشرة مع الديانات التوحيدية كالمسيحية واليهودية ولكنها تم مقاومتها وقمعها من قبل الكنيسة منذ فترة مبكرة.

لفترة ما بعد التنوير<sup>(١)</sup> أكتشف أن الأموات لا يبعثون. هؤلاء الناس يؤمنون بالمعاجز الخيالية، ولكنهم بالتأكيد مخطئون، وهناك نص جميل للويس C. S. Lewis متعلق بهذا الموضوع.

هذا النص يتكلم عن حمل العذراء بالمسيح، وكيف أن جوزيف<sup>(٢)</sup> Joseph لم يكن قلقاً بشأن حمل العذراء، ليس لأنه لم يكن يعلم مصدر هذا الحمل، وإنما كان قلقاً لأنه كان يعلم بذلك. وكذلك الحال مع قيامة المسيح، فالناس في العالم القديم كانوا يشعرون بالإضطراب من الإدعاء المسيحي، لأنهم كانوا يعتقدون أن من يموت يظل ميتاً إلى الأبد.

وكخلاصة، نستطيع تتبع صيغ مختلفة من الديانة اليهودية في فترة المسيحية الأولى فيما يخص القيامة.

أولاً: أنه بدلاً من قيامة تحصل لجميع البشر في النهاية، فإن المسيحيين الأوائل كانوا يعتقدون أن القيامة تختص في البداية برجل واحد فقط. وحسب علمي لا يوجد يهودي في القرن الأول يعتقد بأن القيامة مختصة برجل واحد يُبعث قبل كل البشر، ورغم أن هذا تطور جديد، إلا أن الجميع يعتقدون بالبعث.

ثانياً: أنهم يعتقدون أن القيامة تنطوي على تحول لجسد مادي. يبدو أن اليهود الذين يعتقدون بالقيامة قد ذهبوا في اتجاهين، فالبعض قال أن القيامة

---

(١) عصر التنوير ويسمى عصر الأنوار (بالفرنسية: Siècle des Lumières) مصطلح يشير إلى القرن الثامن عشر في الفلسفة الأوروبية والذي برز فيه مفكرون وفلاسفة الأنوار.

(٢) النبي يوسف الصديق. يحتفل بذكرى يوسف كواحد من الأجداد المقدسين في تقويم القديسين في الكنيسة الأرمنية الرسولية يوم ٢٦ يوليو. وفي الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية والكنائس الكاثوليكية الشرقية التي تتبع المذهب البيزنطي، يُعرف باسم «يوسف ذو الجمال الأسر

(البعث) هي خلق جسد جديد مشابه تماماً لما نحن عليه، في حين ذهب البعض الآخر إلى أنه سوف يكون هناك بدن نوراني، يضيئ مثل النجم. تكلم هؤلاء عن نوع جديد من المادية Physicality، نوع جديد من التجسيد Embodiedness - هذا الاعتقاد موجود في كتابات بولس - فهو جسد لكونه جماد وله حجم، ولكنه تحول بحيث لم يعد يحس بالألم أو المعاناة أو الموت، وهذا أمر جديد غير موجود في اليهودية.

ثالثاً: يعتقدون بأن المسيح نفسه بُعث من جسد ميت، وهو ما لا يعتقد به يهود المعبد الثاني Second Temple، لأن أتباع المعبد الثاني يعتقدون أن المسيح ما كان ليُقتل أبداً، وهذا أمر جديد أيضاً.

رابعاً: هم يستخدمون فكرة القيامة بطريقة جديدة تماماً. تم استخدام هذه الفكرة في اليهودية في استعارة Metaphor «العودة من السجن» كما نجدها في سفر حزقيال Ezekiel، ولكن في بدايات المسيحية تم استخدام هذه الفكرة وربطها بالتعميد<sup>(1)</sup> Baptism والقداسة Holiness ومفاهيم أخرى من العقيدة المسيحية التي لم تكن في البال في اليهودية، ولم يكن معروفاً كيفية إستخدامها لمفهوم القيامة، وهو يمثل طفرة في وجهة النظر اليهودية.

خامساً: أن المسيحيين الأوائل يعتبرون أن إله البشر قدم القيامة كنوع من

---

(1) التعميد أو المعمودية هي طقس مسيحي يمثل دخول الإنسان الحياة المسيحية. تتمثل المعمودية باغتسال المعمد بالماء بطريقة أو بأخرى. لشخص الذي يجري تعميده يصبح تابعاً ليسوع المسيح وتابعاً للكنيسة المسيحية. والعماد يمثل موت يسوع المسيح وقيامته في الحياة الجديدة. أيضاً الطفل المعمد يخلص من الخطيئة الأصلية التي هي خطيئة آدم وحواء ويدخل الحياة مرة أخرى كإنسان جديد. وبحسب الإعتقاد المسيحي، فإن أول عماد في التاريخ كان عماد المسيح على يد يوحنا المعمدان في نهر الأردن.

الهدية، والمسيحيون مدعوون للعمل مع الإله في عيد الفصح (1) Easter لتوقع ما سيفعله إله العالم الجديد (2). هذه الفكرة جديدة للغاية، ولكنها تمثل تطوراً في إطار الديانة اليهودية فقط.

سادساً: أن عقيدة القيامة تحولت من عقيدة مهمة من ضمن عقائد عديدة مهمة - كما هو الحال في اليهودية - إلى أن تصبح مركز كل شيء، وإذا ما اقتطعنا هذا الاعتقاد من معتقدات أباء القرن الثاني فإن البناء الفكري لهم يتعرض للتدمير . لا بد أن نصل إلى نتيجة مفادها أن شيئاً ما حدث جعل من الاعتقاد بالقيامة ينتقل من الإطار الخارجي إلى المركز. سابعاً وأخيراً: لا نجد في بواكير المسيحية توجهاً في الاعتقاد لما يحصل بعد الموت. أما في اليهودية، فهناك جهات نظر عدة، وهناك أيضاً عدد كبير من جهات النظر بهذا الخصوص في العالم الوثني، ولكن في بواكير المسيحية لا نجد سوى القيامة في ذاتها. تثير معتقدات معظم الناس المحافظين في موضوع الحياة بعد الموت الدهشة، ولذلك يبدو أن المسيحيين الأوائل كان لديهم سبباً منطقياً في إعادة التفكير في هذا الاعتقاد الهام والشخصي جداً. وعندما ننظر إلى الطيف الفكري لبواكير المسيحية نجد أن المسيحيين الأوائل يختلفون حول أمور كثيرة، ولكنهم يُجمعون بصورة تثير الدهشة ليس في إعتقادهم بالقيامة فحسب، بل في كيفية حصولها وكيف ستتم، وكل ذلك شرحته في كتابي بالتفصيل.

---

(1) عيد القيامة (باليونانية: Πάσχα)، ويعرف بأسماء عديدة أخرى أشهرها عيد الفصح وأحد القيامة، هو أعظم الأعياد المسيحية وأكبرها، يستذكر فيه قيامة المسيح من بين الأموات بعد ثلاثة أيام من صلبه وموته كما هو مسطور في العهد الجديد، وفيه ينتهي الصوم الكبير الذي يستمر عادة أربعين يوماً؛ كما ينتهي أسبوع الآلام، ويبدأ زمن القيامة المستمر في السنة الطقسية أربعين يوماً.

(2) هذه الفكرة شبيهة بمفهوم ليلة القدر الذي تقدر فيه أعمال البشر.

كل هذا يفرض علينا كمؤرخين أن نسأل سؤالاً بسيطاً جداً: كيف أعتقد المسيحيون الأوائل منذ أقدم الأزمان بالإجماع بفكرة القيامة (البعث). هذا السؤال التاريخي مثير للإهتمام بحد ذاته. بالتأكيد، سوف يرد المسيحيون الأوائل بالقول «لقد كان لدينا هذا الاعتقاد لأننا نؤمن بيسوع». إذا كانت فكرة أن يسوع بُعث من جسد ميت ظهرت بعد عشرين أو ثلاثين سنة من بداية المسيحية كما يقول بعض الباحثين المشككين فإنك سوف تعثر على الكثير من الشواهد التي تبين أنه لم يكن هناك مكان لفكرة القيامة في بواكير المسيحية. لذلك فإن إتساع نطاق وإجماع المسيحيين الأوائل على الاعتقاد بالبعث يجبرنا على القول بأن شيئاً ما حدث قبل ذلك بوقت طويل مما شكل وصبغ التحرك المسيحي ككل.

عند هذه النقطة لا بد من القول «حسناً وماذا عن القصص الإنجيلية؟ ماذا عن الرواية الثامنة والعشرون في إنجيل متى<sup>(١)</sup> Matthew، وماذا عن الرواية السادسة عشر في إنجيل مرقس<sup>(٢)</sup> Mark؟ وماذا عن القصة الأطول منها في الرواية الرابعة والعشرون من إنجيل لوقا<sup>(٣)</sup> Luke؟ وماذا عن الروايتين الأطول الواحدة والعشرون والثانية والعشرون في إنجيل يوحنا<sup>(٤)</sup> John؟ وبطبيعة الحال، ومثل باقي علماء

(١) إنجيل البشير متى (حرفياً «نسبت إلى الرسول متى»). هذا الإنجيل هو أحد الأناجيل الأربعة التي هي ضمن العهد الجديد الكتاب الذي يعتمده المسيحيين في حياتهم. الأناجيل الأربعة التي هي ضمن العهد الجديد من الكتاب المقدس والتي تم طباعتها بصورة تقليدية ابتداءً من متى ويليها وبحسب الترتيب مرقس ولوقا ومن ثم يوحنا. إنجيل متى يسمى تقليدياً بإنجيل متى البشير أو المبشر.

(٢) إنجيل البشير مرقس تقليدياً هو الإنجيل الثاني في تسلسل الأناجيل الأربعة في العهد الجديد من الكتاب المقدس للمسيحيين، ويسمى إنجيل مرقس البشير أو المبشر. يشرح ويحكي هذا الإنجيل عن حياة المسيح ابتداءً بيوحنا المعمدان إلى صعود المسيح إلى السماء بعد قيامته من بين الأموات، لكن إنجيل مرقس يركز بالخصوص على الأسبوع الأخير من حياة المسيح.

(٣) إنجيل البشير لوقا يسرد إنجيل لوقا حياة السيد المسيح، مماته وقيامته. وان كاتب هذا الإنجيل وأعمال الرسل هو ليس واحد، لكن بحسب التقليد تُنسب كتابة أعمال الرسل إلى لوقا.

(٤) إنجيل البشير يوحنا هو رابع إنجيل من الأناجيل التشريعية في العهد الجديد من الكتاب المقدس للمسيحيين، وتقليدياً يسمى بإنجيل يوحنا البشير أو المبشر. القديس يوحنا هو كاتب هذا الإنجيل في الإيمان المسيحي وهذا الإنجيل مقدمته تشهد بلاهوت يسوع المسيح كلمة الله.

الإنجيل أعتقد أن هذه الفقرات كتبت بعد فترة طويلة من موت المسيح. وأنا في الحقيقة لا أعرف متى كُتبت الأناجيل، ولا أحد يعرف متى كُتبت، بالرغم من أن العلماء يقولون لنا إنهم يعرفون.

ربما تكون هذه الأناجيل كُتبت في الخمسينات أو الستينات من القرن الأول، وبعضهم يقول أنها كتبت قبل ذلك، كما يمكن أن تكون قد كُتبت في الثمانينات أو التسعينات، ولكن فيما يخص حجتي، فهذا الأمر لا يعني شيئاً على الإطلاق. النقطة هي أن القصص الإنجيلية المتعلقة بالبعث لها صفات خاصة ومشاركة بين الأناجيل الأربعة، والذي يتبين تاريخياً أنه رغم أنها كُتبت في مرحلة متأخرة فإنه يتضح أنها لم تتعرض للتحريف إلى درجة كبيرة، لقد تم تحريرها قليلاً، ولكنها لم تتعرض للتحريف، وهذا مهم جداً.

الخاصية الأولى، هي صورة يسوع في روايات البعث. لقد قيل مراراً وتكراراً بأن:

(١) إنجيل مرقس كُتب أولاً، وأنه بالكاد كان فيه إشارة إلى البعث.

(٢) إنجيل متى الذي جاء بعد إنجيل مرقس، لم يحتوي كذلك على الكثير مما يخص البعث.

(٣) مع نهاية القرن، ظهر كل من إنجيل لوقا وإنجيل يوحنا، وعند ذلك فقط وجدنا قصص أكل يسوع للسّمك المشوي وطبخه للفطور على الشاطئ وطلبه من توما Thomas أن يمسه وأمثال ذلك. ووفقاً لهذه النظرية فإن المسيحيين في نهاية القرن الأول بدأوا يعتقدون بأن يسوع في الحقيقة ليس إنساناً، أي إنه ليس رجلاً حقيقياً، ولذلك قام لوقا ويوحنا بتأليف القصص في هذه

المرحلة للقول بأن يسوع كان إنساناً، وأن يسوع الذي رُفِع كان له كيان بدني وما إلى ذلك.

المشكلة في هذه الروايات أنها كانت شعبية. وجهة النظر الأخرى تقول، أنه إذا كنت يهودياً في القرن الأول وأردت أن تحيك قصة عن المسيح الذي بُعث من جسد ميت فإن المصدر الإنجيلي الطبيعي سيكون الرواية الثانية عشرة من إنجيل دانيال<sup>(١)</sup> التي تُعد واحدة من أكبر النصوص التي تتحدث عن البعث بالنسبة لليهودية المعبد الثاني. تقول الرواية الثانية عشرة بأن الصالحين سوف يلمعون مثل النجوم في مملكة الأب. في الواقع، إن يسوع أستشهد بهذه العبارة في الفقرة الأولى من الرواية الثالثة عشر من إنجيل مرقس. مما يزيد الأمر روعة أن يسوع لم يكن ليظهر كنجم يلمع في أي من روايات البعث لو كانوا قد حبكوا هذه القصص.

من خلال وجهتي النظر هاتين، تبدو صورة يسوع غريبة جداً، فهي صورة ليست كما نتوقع، وهي صورة مخالفة لما هو موجود في الروايات اليهودية في ذلك الوقت، وهي متسقة مع ما ورد في أناجيل متى ولوقا ويوحنا، ولذلك يبدو أن شيئاً غريباً ما قد حدث.

كأن الإنجيليين Evangelists كانوا يريدون أن يقولوا لنا «نعلم أنكم ستجدون صعوبة في التصديق، ولكن هذا ما حدث». لا يمكن للناس أن يصدقوا مثل هذه الأمور. أي شخص يكتب قصصاً خيالية عن عيد الفصح كان ينبغي أن يجعل يسوع أكثر وضوحاً.

---

(١) دانيال هو أحد الأنبياء الأربعة الكبار في التراث اليهودي المسيحي، والشخصية المركزية في سفر دانيال.

دعوني أقول شيئاً هنا :

إذا أخذت روايات البعث في أناجيل لوقا ومرقس ومتى ويوحنا في النص اليوناني ووضعتها جنباً إلى جنب فستجد أنها مختلفة (حتى عندما يتحدثون عن قصة النساء اللاتي يذهبن إلى القبر). إنهم يستخدمون كلمات مختلفة مرة بعد أخرى. من الواضح أنهم كانوا ينسخون من بعضهم البعض. الشيء الثاني، أن هناك غياباً شبه كامل لروايات البعث في العهد القديم. في قصة الصلب Crucifixion يبدو واضحاً أن قصة موت يسوع قيلت مراراً وتكراراً من قبل الطائفة المسيحية، وقد نسج عليها في الرواية الثانية والعشرين من المزمور Psalm، والرواية الثالثة والخمسين من مزمور أشعيا Isaiah ومزمور زكريا Zechariah وبقية التلميحات في روايات البعث وأيضاً في رواية الدفن. ولكن عندما تنتقل إلى الصفحة التي تليها إلى رواية البعث لا تجد ذلك في أناجيل لوقا ومرقس ومتى ويوحنا. وبالمثل، فإن يوحنا يقول عندما ذهب التلاميذ إلى القبر لم يكونوا يعرفون الكتاب المقدس الذي يقول أن يسوع سوف يُبعث من جسد ميت، ولكن يوحنا لم يستشهد بذلك. وفي الطريق إلى Emmaus يشرح يسوع الكتاب المقدس، ولكن مرة أخرى لا يقول لنا لوقا أي شيء عما قاله يسوع.

هذا أمر غريب جداً. فإما أن نقول أن الكنيسة الأولى هي التي كتبت رواية البعث على غرار ما ورد في العهد القديم وأن متى ويوحنا ولوقا ومرقس قد استندوا إلى هذه الروايات، أو أن نقول أن هذه القصص تعود إلى حقبة قديمة جداً في النقل الشفهي التي تسبق الإنعكاس اللاهوتي Theological Reflection. في تقديري أن الاحتمال الثاني هو الأرجح بدرجة كبيرة.

الميزة الثالثة الرائعة لهذه الروايات، هو موقع المرأة فيها. في العصور القديمة والعصر اليهودي والوثني، لم تكن تُقبل شهادة المرأة في المحكمة. ينقل بولس Paul عن الإنطباع السائد عن المسيح في ذلك الوقت قائلاً «هذه قصة قيلت لي. لقد صُلب من أجل تخليصنا من الذنوب، ووفقاً للكتاب المقدس فإنه رُفِع في اليوم الثالث ثم رآه رجال سيفاس Cephas عن طريق جيمس، ومن قبل بعض تلامذته، ورآه أيضاً خمسمائة شخص في إحدى المرات، وأخيراً رأيته أنا». ولكن نرفع رؤوسنا ونسأل بولس ولكن أين النساء؟ والجواب أنه في بداية الخمسينات لم يكن يُسمح للنساء بالخروج لأنهم كانوا يعلمون أنهم سيكونون في ورطة، ونحن نرى هذه الورطة عندما نقرأ سيلسوس Celsus وهو يصب جام غضبه على البعث بقوله «هذا الاعتقاد مبني على شهادة نساء مجنونات».

من المدهش أننا نجد في أناجيل متى ومرقس ولوقل ويوحنا ذكر لمريم المجدلية<sup>(١)</sup> Mary Magdalene أو مرايم (جمع مريم) أخريات ونساء غيرهن. ومن بين كل الناس أختيرت مريم المجدلية كشاهدة رئيسية، ولذلك نجدها في الأناجيل الأربعة، ونحن كمؤرخين ملزمين بالقول أن هذه القصص لو كانت وُضعت بعد خمس سنوات ناهيك عن ثلاثين أو أربعين أو خمسين سنة لما وجدنا مريم المجدلية تلعب هذه الدور. من وجهة نظر المدافعين عن المسيحية الذين يريدون إقناع الجمهور المشكك بأن المسيح قد بُعث من جسد ميت فإن إدخال مريم المجدلية هنا مثل من يطلق النار على قدميه. لا يمكن للمسيحيين الأوائل ان يفعلوا ذلك مطلقاً. القصص -التي تتحدث عن عثور النسوة على القبر- لا بد من التعامل معها على أنها صحيحة تاريخياً.

(١) مريم المجدلية من أهم الشخصيات المسيحية المذكورة في العهد الجديد وتعتبر من أهم النساء من تلاميذ المسيح والشاهدة على قيامته وأول الذهابين لقبره حسب مذكره الانجيل.

الصفة الرابعة والأخيرة لهذه المواقف، وهنا أتحدث كوني مبشراً مارس التبشير في كل عيد فصح لمدة خمس وثلاثون سنة. المبشرون وفقاً للعادة الغربية يقومون بالتبشير عن قيامة المسيح، والتبشير عن المستقبل، وعن بعثنا نحن وعن ذهابنا للجنة. ولكن في أناجيل لوقا ومرقس ويوحنا ومتى لا نجد ذكراً لقصص البعث. على العكس من ذلك فإن بولس كان في كل مرة يتحدث فيها عن البعث يتحدث فيها عن مستقبلنا. العبرانيين Hebrews (اليهود أو بني إسرائيل) يوجهون لنا الكلام عن قيامة المسيح وعن بعثنا نحن، وفي كتاب الوحي نجد ربطاً بين بعثنا وبعث يسوع. يتفق كل من جستن الشهيد<sup>(١)</sup> Justin Martyr، وأغناطيوس الأنطاكي<sup>(٢)</sup> Ignatius of Antioch، وإيريناوس<sup>(٣)</sup> Irenaeus بالقول: «نتحدث عن بعث المسيح لينعكس ذلك علينا». ولكن متى ويوحنا ولوقا ومرقس لا يقولون «أن يسوع سوف يُبعث، وبالتالي فإننا سوف نبعث في اليوم التالي». هم يقولون، وهذا مثير لتعجب الناس «إن يسوع سوف يُبعث، وأنه هو حقاً المسيح». مخلوق الإله الجديد ظهر، ومهمتنا هي عبادته لأنه يجسد إله إسرائيل خالق الكون». وبعبارة أخرى، تريد القصص التي نجدها في الإنجيل أن تقول ببساطة لم تقال من قبل «إن يسوع قد بُعث، وأنا سوف نُبعث»، وهو ما نجده واضحاً عند بولس بدءاً من أواخر الأربعينات.

(١) القديس جستن كان من المبشرين الأوائل وهو أقدم الشارحين للوجس في القرن الثاني. استشهد مع تلامذته واعتبر قديساً للكنيسة الكاثوليكية.

(٢) أغناطيوس الملقب بالنوراني أو الأنطاكي والذي يدعى أيضاً ثيوفوروس (باليونانية: Θεοφόρος أي حامل الإله)، وهو قديس وأحد آباء الكنيسة كان على الأرجح أحد تلامذة الرسولين بطرس ويوحنا. هو ثالث أساقفة أو بطاركة أنطاكية بعد بطرس وإفوديوس الذي توفي حوالي سنة ٦٨.

(٣) القديس إيرينيئوس (القرن الثاني الميلادي - نحو عام ٢٠٢ م) هو أسقف مدينة لوغدونوم في بلاد الغال، ثم أصبح معلماً وجزءاً من الإمبراطورية الرومانية (الآن هي مدينة ليون، بفرنسا). وكان القديس إيرينيئوس أحد أشهر آباء الكنسية الأوائل ومن أهم المدافعين عن العقيدة المسيحية، وكانت كتاباته تقويمية خلال فترة بداية انتشار ونمو علم اللاهوت المسيحي.

من كل ما سبق نصل إلى عدة استنتاجات. حتى نتمكن من تفسير صعود نجم المسيحية في بدايتها، وحتى نستطيع تفسير وجهات النظر الأربع في موضوع البعث علينا أن نقول أن الكنيسة في وقت مبكر جداً كانت بالفعل تعتقد أن يسوع بُعث جسدياً من جسد ميت، وليس لدينا دلائل على أن المسيحيين الأوائل كانوا يعتقدون على خلاف ذلك. ولكن هل نستطيع كمؤرخين أن نفسر ذلك؟ كثيراً ما يقول الناس «إنه بالتأكيد ابن الإله، وكان باستطاعته أن يفعل أي شيء. ولكن هل هذا يستند إلى العقل؟ ولكنني لا أريد أن أفعل ذلك، وإنما أريد أن أكون مخلصاً للنصوص التي لا تقول ذلك. علينا أن نسأل: كيف يمكن تفسير هذه الظاهرة الاستثنائية في المقام الأول، والقول بأن هناك قصصاً تؤكد حصولها.

لقد اكتشفت خلال نظري في التفسيرات التاريخية أن هناك شيئين قد حصلوا:

(١) كان هناك قبر فارغ وكان معروفاً أنه القبر الصحيح.

(٢) وكان هناك ظهور Appearances ليسوع الذي رُفع.

من المؤكد أن هذين الشيئين حصلوا. لأنه إذا كان هناك قبر ولم يكن هناك شبيهه فإن كل شخص في العالم القديم كان سيصل إلى نتيجة مفادها أن الجسد قد أُختطف. كان من المعتاد سرقة القبور، وخاصة إذا كان الموتى من الأغنياء أو المشهورين، فقد يكون هناك جواهر أو شيء يستحق السرقة، ولكن الناس سوف يقولون ما قالته مريم «لقد أخذوا الجسد، لا أعرف ماذا حدث له»، ولم يكن ليتكلموا أبداً عن البعث إذا كان القبر فارغاً.

وبالمثل لا يمكننا تفسير البيانات التاريخية التي رأيناها بالقول أن تلامذته كانت لهم خبرة من نوع ما جعلتهم يلتقون بيسوع. هؤلاء يعلمون أن يسوع قد قُتل، ولكنهم

جميعاً يعرفون عن الهلوسة والرؤى والأشباح. الأدب القديم - اليهودي والوثني - مليئٌ بمثل هذه الأمور، وهي تعود إلى زمن هوميروس Homer، ونجدها في شعر فيرجيل<sup>(١)</sup> Virgil، فهي موجودة في كل مكان.

حاول البعض حديثاً من باب الجدال أن يقول أن البعث لا يمكن أن يكون قد حصل «عندما يموت الذين تحبهم فأنت تتصورهم معك في الغرفة، يضحكون معك وربما يتحدثون إليك، وفجأة يختفون مرة أخرى، ولعل هذا ما حدث مع التلامذة». وفي الواقع أنني قرأت بعض من هذا سابقاً. هذه الظاهرة موثقة كجزء من حالة الحزن، ويمكنك أن تفسرها كما يحلو لك، ولكن المسيحيين الأوائل كانوا يعرفون عن هذه الظاهرة كما نعرف. هم يعرفون جيداً أن هناك هلوسة وأشباح ورؤى وما إلى ذلك. بعبارة أخرى، إذا كانت لهؤلاء تجربة قوية مشابهة مع المسيح، ولكن إذا كان القبر ليس فارغاً عندها سيقولون «يا إلهي، لقد كانت تجربة قوية ولكن يسوع بالتأكيد لم يرفع من جسد ميت، لأن الجسد الميت لا يرتفع، وها هو جسده في القبر».

في هذه النقاط علينا أن نذكر أنفسنا بالطريقة التي يدفن بها اليهود موتاهم. معظم اليهود في فلسطين يدفنون موتاهم على مرحلتين. المرحلة الأولى بلف الميت بكفن مع الكافور ووضعه في لحد في قبر صخري، أو وضعه في سرداب في المنزل، وهم لا يدفنون الموتى على الطريقة الغربية كما يحدث في الوقت الحالي، حيث يُدفن الميت في قبر محفور في الأرض ويملئ.

النقطة هنا هي، أن جسد يسوع لو كان موجوداً في القبر لكان من السهل على التلاميذ أن يجدوه، ولذلك فإن علينا أن نقول أنه لا بد أنه كان هناك قبراً فارغاً،

(١) فيرجيل ( ٧٠ ق م - ١٩ ق م ) شاعر روماني .

ولابد أنهم شاهدوا أو اجتمعوا مع شخص ما اعتقدوا أنه يسوع، على الرغم من أنه تحول بطريقة لا نتوقعها، ونجد نحن كقراء أنها مربكة جداً لنا.

والآن نأتي إلى الحركة الأخيرة في مباراة شطرنج. كيف يمكننا كمؤرخين أن نفسر الحقيقتين اللتين ذكرتهما: القبر الفارغ وظهور شبيهه ليسوع؟ التفسير الأسهل لذلك هو أن يسوع بالفعل قد رُفِع من الجسد الميت، وأن التلاميذ بالفعل التقوا بيسوع على الرغم من أنه تم تجديد جسده وتحول بطريقة يمكن معها أن يبدو حياً. لكن بعث يسوع بالفعل لا يوفر لنا تفسيراً كافياً للقبر الفارغ واللقاء مع يسوع. بعد قراءتي لكل الفرضيات الأخرى المحتملة في كل الأدبيات أجد أن هذا التفسير ضروري.

## ■ أنتوني فلو: ملاحظات ختامية

انا معجب بطريقة الأسقف رايت، فهي جديدة تماماً. إنه يعرض الأمر بطريقة جديدة لأول مرة. وهذا مهم جداً، خصوصاً في المملكة المتحدة والتي يكاد الدين المسيحي يختفي منها.

من المؤكد أن هذا شيء رائع وراديكالي. هل يمكن أن يكون هناك وحي مقدس؟ كما قلت لا يمكنك أن تحد من قدرات الإله المقتدر إلا إذا كان ذلك مستحيلاً من الناحية المنطقية، وماعدا ذلك فهو ممكن للإله المقتدر.